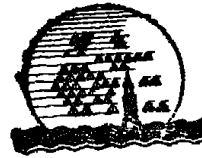


إبداع السبان وإبداع الشيوخ في دنيا الأدب

تأليف

سعد عبد العزيز



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina



الجمعية المصرية المساهمة للكتاب

١٩٨٧

اهداء

الى زوجتى الحبيبة ناهد هانم أحمد فؤاد
المرأة التى أمدتنى بالحياة بعد أن كادت تجف
أهدى كتابى ..



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
General Organization of the Alexandria Library

مقدمة

قضيت في تأليف هذا الكتاب ما يربو على ثلاثين عاما ٠٠ في الستينات. كنت أعمل مشرفا على ادارة كتابات جديدة بالدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر التي أتاحت لي فرصة الاطلاع على ابداع الشباب من قصة ورواية ومسرح ومقالة ، كنت قد أتيت لي فرصة النشر للمبدعين الشباب والشيوخ حتى استطعت أن أقدم لمصر جيلا من الأدباء في المسرح والقصة والدراما قدمت وحيد حامد وجمال الغيطاني ورمسيس لبيب ومجيد طوبيا وعز الدين نجيب ومحمد كمال ٠ فضلا عن ذلك ناقشت كل هؤلاء - أمام ميكروفون الاذاعة وأيضا ناقشتهم في كتابهم الأول على صفحات مجلة الكاتب والثقافة والجديد ٠٠

من أجل ذلك أراني أقول انني قضيت ما يربو على ثلاثين عاما في تأليف هذا الكتاب وهو ابداع الشباب وابداع الشيوخ في دنيا الأدب فالكتاب ينقسم الى شعبتين : شعبة خاصة بأدب الشباب بادیء ذی بدء ، وشعبة خاصة بأدب الشيوخ ٠٠ سوف نرى في أدب الشباب :زهير الشايب وياسين رفاعية وهو أديب سورى وأدب مجيد طوبيا ومحمد كمال محمد أما أدب الشيوخ فسوف نطلع على أدب الدكتور محمد كامل حسين وأدب عباس محمود العقاد وأدب ابراهيم عبد القادر المازني وأدب الدكتور محمد حسين هيكل وأدب الشيخ مصطفى عبد الرازق وأدب الامام محمد عبده وأدب الصحفي الثائر رشيد رضا وأدب أنور المعداوي والجوانيه عند الدكتور عثمان أمين ، ولا أنسى شاعرنا الكبير أمير الشعراء أحمد شوقي ٠ وبعد فأرجو أن يحوز هذا الكتاب رضا القارئ وأن يحقق رسالته في الحياة ٠ وبعد ، فواضح أن كثافة الخلق والابداع تبدو واضحة للعيان عند الأدباء الشباب أمثال ابراهيم عبد القادر المازني - في شبابه ، وعز الدين نجيب ، وياسين رفاعية ٠

كما أنها تتخلخل وتميل الى روح البحث والدراسة كما نرى ذلك في

قصة قرية ظالمه للدكتور محمد كامل حسين وأيضا فى قصة سارة لعباس محمود العقاد التى يغلب عليها طابع التحليل النفسى، صحيح أن قصة زينب رومانسية النزعة وهى تقطر عاطفة وحبا ودموعا . . لكن كانت لها الريادة فى عالم القصة المصرية . . خلاصة القول أن رؤية الابداع تشيخ عند الأدباء الشيوخ كما أنها تصبح غضة يانعة عند الأدباء الشبان واضرب مثلا بالأديب ابراهيم عبد القادر المازنى حين كان شابا ففى صدر شبابه كان شاعرا ملهما ، وكان يأخذ من حياته المؤسسية ويصوغها فى أشكال جديدة من الحياة والحب والجمال . . وكان يعيب على الشعراء والأدباء التقليديين نقلهم للقادمى من شعر وكتابة . . وذلك لأنه كان يعتقد أن الخلق شىء والمحاكاة شىء آخر وإن الأديب الخالق اله صغير ، يبتكر من العلاقات الجديدة ما يركبها فى تركيبات جديدة تأتى على نحو فذ فريد على أننا سنرى أن المازنى قد أبدع فى صدر شبابه الشعر ثم بعد حين أبدع قصصه ومسرحياته منها : ابراهيم الكاتب ، و ابراهيم الثانى ومسرحيته عن زوجته .

أما العقاد فكانت عبقريته عبقرية ارتقائية بمعنى هو الذى أبدع الشعر ذاته ودون تقليد أحد الشعراء ، وهو الذى أبدع النثر والكتابة الأدبية فى أسلوب النثر دون تقليد أحد من الأدباء بل كان يعيب على مصطلقى صادق الراعى اغراقه فى تقليد السابقين واتهامه بأنه عدوا لحافظ وشوقي ، فلا غرابة أن يأتى بقصة سارة وهى أصدق دليل على الزمن السيكلوجى .

أما موقف الدكتور محمد كامل حسين فتراه هنا يبتكر ابتكارات جديدة . . رأينا فى الأدب يبدع روايته قرية ظالمه . . ورأينا يفسر التاريخ تفسيراً جديداً وهو التفسير البيولوجى للتاريخ أضف الى أنه كان بحانا مبتكرا فى الطب مبدعا فى النقد والفن والأدب .

وبعد ، ما نلمسه فى ثنايا هذا الكتاب

وأخيرا بقى لى أن أشكر الهيئة المصرية العامة للكتاب التى هيات لى فرصة تقديم الكتاب فى الصورة التى يبدو عليها الآن .

كما لا يسعنى الا أن أدين بالشكر والامتنان لكل شخص أسهم بجهده فى اخراج كتاب ابداع الشبان وابداع الشيوخ فى دنيا الأدب .

عبقرية محمد عبده

العبقرية هنا يمكن أن نتمثلها فى تغلبنا على جميع المشكلات التى تعترض طريقنا وانتصارنا على العقبات التى نلاقىها فى حياتنا وكيف نجتاز حصيلة الصعاب ونتغلب عليها بما نبذله من جهد وعناء وصبر واحتمال .

وهكذا كانت حياة محمد عبده - فبادىء ذى بدء كان يواجه فى تعليمه منهجا عقيما متحجرا أقعده عن مواصلة تعليمه ، لولا انقاذه عن طريق أحد أخوال أبيه وهو الشيخ (درويش) الذى استطاع أن يخرج الفتى من أزمته النفسية و (يخرج من أيام سجن الجهل الى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد) (١) وبذلك أمكن لمحمد عبده أن يحقق مآربه ويحظى بما كان يتمناه فى حياته وهو أن يكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس ، وأمكن أن يحقق ذاته ويؤكد لها طوال عمره .

مولده :

ولد محمد عبده عام ١٨٤٩ فى قرية مصرية هى (محلة نصر) من أبوين مصريين . وما أن بلغ العاشرة من عمره حتى أتم حفظ القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية لكن الصبى سرعان ما تعثر أمام جمود منهج التعليم الذى كان سائدا آنذاك فى الجامع (الأحمدي) وكاد أن ينصرف عن العلم ، وأن يشتغل بالزراعة لولا لقائه بأحد أخوال أبيه الشيخ درويش ، وهو رجل صوفى استطاع فى خمسة عشر يوما أن يخرج الفتى من أزمته النفسية ، وأن يوجهه الى المعانى القدسية ومن ثم يقول محمد عبده فى هذا الصدد :

(وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق الا هم واحد وهو أن أكون كامل

(١) انظر رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الامام) ج ١ صفحة ٢٣ .

المعرفة ، كامل أدب النفس ولم أجد اماما يرشدني الا ذلك الشيخ ٠٠ الشيخ درويش ٠٠)

وفي عام ١٨٦٦ التحق محمد عبده بالجامع الأزهر ، أهم مركز للثقافة الاسلامية وكان ذلك بالنسبة اليه يعتبر حادث جلا في حياته ، ولكن سرعاز ما اصطدم بأسلوب التعليم المتحجر العقيم الذي كان مفروضا على طلاب العلم ، فكانت تحتشد ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوي المتشابهة والتدقيقات اللفظية التي تزهق الفكر وتعوقه عن النمو .

انصرف محمد عبده عن العلوم الأزهرية ، متطلعا الى علوم جديدة لكنه تعرض - في ذلك الحين - لازمة نفسية راح على أثرها يعتزل العال وينفر من الناس لكنه اجتاز هذه الأزمة بفضل الشيخ درويش أيضا (١)

لقاؤه بجمال الدين الأفغاني

كان رجلا ثائرا ٠٠ وكان رائدا للحرية الدينية والسياسة في نظ الشعوب الاسلامية ولقد التقى محمد عبده بأستاذه (جمال الدين الأفغاني فكان يلهمه ويوجهه الى ما فيه الخير لشخصه ولأمته ٠٠ وكان ذلك في عص الخديوى اسماعيل الذى ساده الظلام والاضطهاد ازاء الحياة الأخلاقية العقلية ، لكن تعليم جمال الدين الأفغاني انبثق كبريق يأخذ الابصار وسرعان ما انجذب اليه ذاك الشاب المجاهد واحتك بأفكاره فأيناه ينشو المقالات للصحف في موضوعات ثقافية عامة .

كان محمد عبده يتمنى أن ينير الطريق وأن يضيئه بالخير والعدل فرا يبت الوعي ويدعو الى تنوير العقول عن طريق كتاباته فى الصحف وق بتأليف كتابه الأول كتحة لأستاذه وهو باسم : (رسالة الواردات التى ظهرت عام ١٨٧٤ بالقاهرة .

شهادة العالمية

فى عام ١٨٧٧ تقدم (محمد عبده) لامتحان العالمية فى الأزهر وحامت الشكوك حوله ، وتوجس به رجال الأزهر لانصاله بجمال الدين الأفغاني ولدعوته الى نبذ التقليد والأخذ بالجديد فى المعرفة الدينية والديني وترجيح العقل فى أفعالنا وسلوكنا .

(١) أنظر رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الامام) ج ٢ .

ومهما يكن من أمر ، فقد نال محمد عبده شهادة العالمية . . . وأمكن له
القاء دروس فى المنطق والكلام والأخلاق .

وقد جمع حوله عددا عظيما من الطلاب فكان بمثابة المفكر النابه
النجيب . وفى عام ١٨٧٩ أصبح محمد عبده أستاذا للتاريخ فى مدرسة دار
العلوم وأستاذا للأدب فى مدرسة الألسن وظل يشغل هاتين الوظيفتين الى
جانب مواصلته لدروسه فى الأزهر .

الصحافة

وكم كان يروقه أن يقضى وقته فى النشاط الصحفى فتلك رغبة طالما
حبه فيها أستاذه جمال الدين الأفغانى حيث كانت لمصر فى ذلك الوقت ،
دور الريادة للصحافة فى العالم العربى .

حتى اذا حكم « توفيق » ، نجد (رياض باشا) يختاره محررا للجريدة
الرسمية وما هى الا بضعة سنين حتى صار ذلك الأزهرى الطموح رئيسا
لتحرير « الجريدة » حيث ارتفع بها محمد عبده الى النضج والاكتمال وعن
طريقها استطاع أن يذيع نزعة الاصلاح الدينى الأخلاقى ورفع مستوى الأمة
والنهوض بها لنهضة اجتماعية واعية .

وما أن جاء عام ١٨٧٩ حتى حدث انقلاب أدى الى سقوط وزارة نوبار
والوزراء الأوربيين الآخرين .

الحركة الوطنية

أخذت (الحركة الوطنية) تنمو شيئا فشيئا فكان من ثمارها حكومة
نوبار من ناحية وتأليب الجيش المصرى بقيادة عرابى على الضباط الأتراك
والشراكسة - وسرعان ما تحولت حركة عرابى الى ثورة عارمة لكن استطاعت
القوات البريطانية اخمادها واحتلال الأراضى المصرية عام ١٨٨٢ .

محمد عبده ينفى خارج الديار المصرية

بعد فشل عرابى ، سيق « محمد عبده » الى السجن حيث أتهم
بالتآمر مع رجال الثورة وحكموا عليه بالنفى ثلاث سنوات خارج البلاد .

اختار محمد عبده (سوريا) لكى تكون موطناً للعيش فيها . . . لكن
لم يمض شهور حتى دعاه (الأفغانى) اليلحق به فى باريس . . . حيث كان

» الأفغانى (فى زيارة للهند ، وزار محمد عبده باريس عام ١٨٨٤ ، وفى باريس التقى بأستاذه وهناك عملا معا على تأسيس جمعية وصحيفة أسبوعية باسم (العروة الوثقى) كانت تدعو الى الجامعة الشرقية والى تصحيح بعض المفاهيم التى استغلت استغلالا سيئا مثل مفهوم الكرامة ومفهوم الشرف على سبيل المثال يقول محمد عبده فى احدى مقالاته التى جاءت فى العروة الوثقى ما يلى :

(الشرف كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس الا أن أكثرهم عن معناها غافلون :

فئة ترى الشرف تشييد القصور ، والتعالى فى البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم واقتناء الجياد وركوب العربات وفئة أخرى تتوهم أن الشرف فى لبس الفاخر من الثياب ، وفئة تتخيل الشرف فى الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو فى الوسامات مع ان هذه الأشياء سريعة الزوال فهى لا تمس الا الظاهر ولا تمس بواطن القلوب) .

كانت صحيفة (العروة الوثقى) أول صحيفة عربية ظهرت فى أوروبا .

الصحفى الثائر : يعقوب صنوع

كان محمد عبده يعمل بهمة لا تعرف الكلل فى تحرير المجلة ٠٠ وكان مكتبه هناك أشبه بندوق لجميع الشرقيين المقيمين أو الزائرين من هنود ومصريين وسوريين وأفغانين وأحيانا كنت ترى الصحفى الثائر يعقوب صنوع بين هذا الجمع من الزوار .

وشد محمد عبده ترحاله الى انجلترا فزارها عام ١٨٨٤ وهناك استقبل » (الفرد بلنت) الكاتب الانجليزى مؤلف كتاب : (التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر) وقد ساعد (بلنت) صديقه فى ابلاغ صوته الى رأى العام الانجليزى والاهتمام بالقضية المصرية ، كذلك هيا له عدة مقابلات مع بعض رجال السياسة من الانجليز وأعضاء البرلمان الانجليزى ومنهم (راندولف تشرشل) والد رئيس الوزارة البريطانية السابق .

وما أن عاد محمد عبده الى باريس ليستأنف عمله بالمجلة حتى فوجئ بالسياسة الانجليزية تحول دون وصول العروة الوثقى الى البلاد الاسلامية . عاد (محمد عبده) الى مصر عام ١٨٨٨ فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف . كان يتوخى العفو وايقاظ ضميره ، واصلاح ذات البين بين العائلات .

فلما عين عضواً فى (مجلس ادارة الأزهر) دأب على السعى الى رفع مستوى تلك الجامعة العريقة ثقافيا وماديا وأخلاقيا .

وفى عام ١٨٨٩ عين محمد عبده مفتيا للديار المصرية ثم عين عضواً فى مجلس شورى القوانين فى ٢٥ يونية من عام ١٨٨٩ فكان يسعى للتوفيق بين وجهتى نظر الحكومة والمجلس ، وكان يدعو الى تربية الراى العام فى مصر ، والنظر فى الأمور العامة والمصالح الوطنية الكبرى .

انشاء الجامعة المصرية :

لقد رأينا (الأستاذ الامام) يبذل جهودا كثيرة حتى أقنع أحمد المنشاوى باشا بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة أرض فى احدى ضواحي القاهرة لولا أن اختاره الله فوقف المشروع .

محمد عبده والمنطق :

فى سنة ١٨٧٧ - وكان محمد عبده لا يزال طالبا بالأزهر - كتب مقالا دافع فيه دفاعا حارا عن المنطق والكلام محاولا أن يبعد عنهما الشوائب والشبهات المستقرة فى أذهان الأزهرين فقال :

(ان العلوم المنطقية انما وضعت لتقويم البراهين وتمييز الأفكار غثها من السمين ، وتبين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب وأى مقدمة يصح أن تؤخذ . . وايها يجب أن يطرح فهذا علم حقيق بأن يتخذ سلما لجميع العلوم) .

وفى عام ١٨٨٦ وكان محمد عبده منفيا فى سوريا ، اهتدى الى كتاب: (البصائر النصيرية) الذى نشرها بمصر عام ١٨٩٨ ويلاحظ أن التعليقات والايضاحات التى نشرها مع النص تكشف عن معرفة عميقة بمذاهب المنطق عند الفلاسفة الاسلاميين ومنطق ابن سينا على الخصوص .

واتخذ محمد عبده نشر هذا الكتاب العظيم الكى يبحث الأزهرين على أن يعنوا أعظم عناية بدراسة المنطق . . فعنده أن المنطق هو العلم الذى يكفل للنفس البشرية الوسيلة لبلوغ الحق واليقين .

وهو يتفق مع (الفارابى) أن قوانين المنطق هى قوانين كلية وأنه لا يمكن أن ينتفع الانسان بالمنطق ولا بغيره من العلوم الا اذا عمل بها وراعى أحكامها بما ينبغى أن تكون .

ويرى (أستاذنا) أن التطبيق والاختبار هما وسيلة للاحتفاظ بالمعرفة

المكتسبة ولجعلها بالتالى أكثر واقعية واذن فالمنطق عنده انما هو فى آن .
واحد : علم وفن .

محمد عبده الفيلسوف :

منذ تلقى محمد عبده العلم فى الأزهر وتأثر بأستاذه جمال الدين الأفغانى انصرف الى دراسة الفلسفة - العقلية - وفلسفة - المشائين الاسلاميين ،
والى دراسة اللاهوت التقليدى الاسلامى أى علم الكلام .

ممعروف انه قد عانى كثيرا من أهل التصوف وقتذاك ، وقد وجدنا
كتاب : (الاشارات) للشيخ الرئيس منسوخا بقلم الشاب الأزهرى وعليه
حواشى مقتبسة من مصادر فلسفية مختلفة .

وجدير بالذكر ، انه درس الفلسفة الصوفية الاسلامية . . ولعل
مصنفه الأول : (رسالة الواردات) تعبيرا رائعا عن بحوثه الميتافيزيقية
والصوفية .

موقف محمد عبده من التصوف :

ليس بدعا أن محمد عبده وقد نهض معارضا أصحاب الطرق الصوفية
الذين انتشروا فى العصور الأخيرة فى بلاد الشرق الاسلامى .

فمعروف انه قد عانى كثيرا من أهل التصوف اذ كان فى صدر شبابه
صوفيا ثم كان على دراية بحال أهل عصره . . فلم يرتض أن يساير المسلم
أهل التصوف ، فيهمل الواجبات الملحة المفروضة فى المجتمع وأبى أن يذهب
معهم فى تواكلهم واستهانتهم بالحياة وكأنه يقول لهم : (لم الهرب من
الدنيا ؟) وهو يقول ان الله وحده هو سبب كل شيء ولا فعل لغيره فاذا
دعونا فيجب أن ندعو الله لا (الأولياء) لأنهم بشر مثلنا ، ولسنا ملزمين .
بأن نعتقد بكراماتهم المزعومة .

ولم يكن الناس فى القرنين الأول والثانى من التاريخ الاسلامى يعرفون .
شيئا عن تلك التقاليد والبدع التى سرت الى المسلمين بالتقليد أو العدوى .
فكانت من أهم أسباب التأخر الذى يشاهده اليوم فى العالم الاسلامى .

محمد عبده الناقد :

كان يوقن أن اللغة - مادة البلاغة وجمال التعبير ، وكان أهم ما يشغله
انما هو احياء اللغة مادة وعلماء ودراسة وكتابة . . فكان ينشر نماذج البلاغة
السلفية ويشرحها بقلمه أو ينوه بها فى دروسه وتفسيراته ومن هذا القبيل :

نهج البلاغة ، ومقامات البديع ودلائل الإعجاز واسرار البلاغة . ومذهبه
الناقد في تحصيل مادة اللغة : انها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد
ومصطلحات فكان يقول : ان الكلام البليغ سهل على الفطرة ولكنه صعب
في تقليده .

ورأيه في الشعر البليغ مع جودة اللغة : (انه لا يكون شعرا الا اذا
كانت ألفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر) والا فهو نظم لا بلاغة فيه .

وفي ١١ يوليو عام ١٩٠٥ توفي محمد عبده واحتفلت مصر شعبا
وحكومة بتشجيع وفاته .

وبعد ، فقد كان محمد عبده من أبرز شخصيات التاريخ الاسلامي
الحديث . . وليس في مصر من يجهل اسم (الأستاذ الامام) . . كانت
دراسة الفلسفة عنده كشفا حقا . . وقد عبر هذا الشاب الأزهرى عن نشوة
ساذجة صادقة حين فتحت له صحبة الفلاسفة المسلمين لأول مرة آفاقا
عريضة .

ان ذهنه لم يكن جدالا صرفا ولا تأمليا محضا ولم يكن حبيس مكتبته
ولا صوفيا منعزلا عن العالم ولا خياليا يسبح في أحلامه بل كان خبيرا بأحوال
الناس وظروف الحياة . . وكان قادرا على التسامح والود مع غيره ممن
يعارضونه في آرائه .

ان أصدق تعبير يمكن أن نقوله عنه :

انه كان يجمع بين الفيلسوف وعالم الدين حيث يتعاونان معا في
شخصه تعاوننا لم يتهيا لنا من قبل مدى قرون عديدة .

قراءة فى فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق

مفكر وأديب وعالم من كبار علماء الأزهر الشريف فقد كان شيخاً للأزهر عام ١٩٤٥ ، وعالماً بأصول الدين والفقه ، وكان والده صديقاً للأستاذ الامام محمد عبده ، الذى اتصل به الشيخ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الأستاذ على عبد الرازق اتصالاً أصبح معه أقرب تلاميذه اليه وأوفاهم به .

نشأ مصطفى عبد الرازق نشأة دينية ، فدرس بالأزهر ، وحصل منه على اجازة العالمية عام ١٩٠٩ ، كما درس بالجامعة المصرية القديمة (الأهلية) ثم سافر الى فرنسا حيث درس الفلسفة والاجتماع والآداب وتاريخها فى باريس ثم انتقل الى ليون سنة ١٩١١ وهناك اشتغل مع الأستاذ ادوارد لامير بدراسة أصول الشريعة الاسلامية .

يقول عن تجربته فى حياته الأزهرية : (لم تكن دراستى فى الأزهر - على طول مدتها بالتى تشبع رغبتى فى العلم وتحقيق لروحي ما تتطلع اليه من الاطمئنان ولكن الدروس التى كنت أحضرها فى الأزهر على يد الأستاذ محمد عبده كانت تنسينى ما أشعر به من مرارة وتصدد عن نفسى السأم واليأس اللذين كانا يساورانها الا ذاك فلما انقطع رضوان الله عليه عن التدريس فى الأزهر عاودنى هذا اليأس وذلك السأم واسودت دنيا الدراسة فى الأزهر أمام عيني . فكرهت المضى فيها ، بيد انى رأيت الا أتركها قبل أن أستنير بها برأى الأستاذ الامام) .

أعد رسالة الدكتوراه موضوعها : « الامام الشافعى أكبر مشرعى الاسلام » وبعد عودته الى مصر عين موظفاً بمجلس الأزهر الأعلى ، ثم أميناً عاماً للمعاهد الدينية ، ثم مفتشاً للمحاكم الشرعية عام ١٩٢٠ . وفى عام ١٩٢٧ عين أستاذاً للفلسفة الاسلامية بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) حتى أختير عام ١٩٣٨ وزيراً للأوقاف فلم يشغله منصب الوزارة عن متابعة دراساته الفلسفية لتلاميذه الذين ظل يؤثرهم بعلمه ويشرف على

رسائلهم العلمية ، ويهيئ لهم من أسباب العلم والعمل ما كان له أطيب الثمرات وفي عام ١٩٤٥ عين شيخا للأزهر - كما عرضنا سلفا - حتى توفي في ١٥ فبراير عام ١٩٤٧ بعد أن خلف تراثا قيما من الدراسات الفلسفية والفقهية والأدبية التي كان لها أثر كبير في الحياة العقلية والروحية الإسلامية في العصر الحديث كما أن له جهودا مشكورة في عالم الأدب خصوصا في مجال البحث الأدبي فقد كتب بحثا باسم البهاء الزهير وهو شاعر مصري سوف نعرض له بالتفصيل فيما بعد . وكان مترجما حاذقا وله كتاب باسم : الملكات المصريات وهو من تأليف فناة مصرية تدعى ق . ع . فقام بتعريب الكتاب المذكور وكم كان يحلو للشيخ مصطفى عبد الرازق أن يقدم كتابا قيمة بمقدمات وافية ضافية تحمل في جوفها كل الصيد . . ففي كتاب بعنوان موسى بن ميمون حياته ومصنفاته . . وهو من تأليف الدكتور اسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بدار العلوم . . رأينا الشيخ مصطفى عبد الرازق يقدم هذا الكتاب بمقدمة رائعة تتضمن تعريفا بفضل اليهود في دورهم بتعريف المسيحيين بالفلسفة الإسلامية في القرون الوسطى . . انظر اليه وهو يقول في هذا الشأن (لليهود معظم الفضل في تعريف المسيحيين بالفلسفة الإسلامية في القرون الوسطى) .

فقد كان اليهود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر سفراء بين عرب الأندلس وبين الغربيين بما ترجموا من كتب كثيرة عربية الى لغتهم العبرية التي كان الغربيون أعرف بها ونقلت نفس هذه الكتب الى اللغة اللاتينية في تراجم أكثرها مشوهة جدا .

فهناك صلة وثيقة بين فلسفة اليهود في القرون الوسطى وبين الفلسفة الإسلامية ومن البديهي أن درس هذه الحركة الفلسفية اليهودية ورجالها انما هو لازم للاحاطة بتاريخ الفلسفة الإسلامية (١٢)

ثم نراه في فقرة أخرى من المقدمة يقول : (في بعض كلام المؤرخين ما يشعر بأن صلة ابن ميمون بصلاح الدين الأيوبي ووزيره للقاضي الفاضل لم تكن مجرد تقدير لقيمة ابن ميمون في الطب والفلسفة بل كان السلطان الأيوبي ووزيره يعرفان أيضا للفيلسوف ابن ميمون مهارته وحذقه في شئون السياسة . . فقد كان صلاح الدين ينتفع به بما لديه من لطف التدبير ومن المكانة والقبول عند يهود اليمن في تهدئة الثورات التي كانت تنزو بها تلك البلاد . .) ويستطرد الشيخ مصطفى عبد الرازق هذا (وابن ميمون من فلاسفة العرب فهو يسمى الفلسفة الإسلامية فلسفة عربية نسبة الى العرب بمعنى اصطلاحى يشمل جميع الساكنين في تلك الممالك الإسلامية المستخدمين للغة العربية في أكثر تأليفهم العلمية لتشاركهم في لغة كتب العلم .

وابن ميمون من فلاسفة العرب وهو من فلاسفة الاسلام .. ومن عجب أن ابن ميمون لم تنشر كتبه باللغة العربية ولا درست حياته ، ولا مذهبها ، ولانزال نلمس أخباره وآثاره في لغة غير لغتنا (٠٠) .

وفى كتابه : تاريخ الملكات المصريات الذى قام بتعريبه عن الفرنسية نراه يقول عن شجرة الدر فى صفحة ١٣ (٠٠٠) اختبرت بالاجماع ملكة لمصر ، وبويعت باسم (الملكة عصمت الدين) فى قصرها بجزيرة الروضة على شاطئ النيل ، ومنذ ذلك العهد أصبحت حياتها تفيض بالعظائم ، لكن يعد زمن رأى أن تسكن القلعة دار آبائها الأيوبيين (صلاح الدين) الشهير .. وشجرة الدر هى التى أبدعت حفلة المحمل المصرى الذى كان يرسل الى مكة كل عام وهى أول امرأة فى العهد الاسلامى للبلاد المصرية ضربت باسمها نقود ، بل هى فى ذلك تعتبر فذة فريدة لا ثانية لها .

كان يحبها السادة من رعيثها والفرسان بل كان يحبها كل شعبها وكانت مصر تجل مليكتها حتى وجدت نفسها مضطرة للزواج بوزير الحرب الذى كان أكبر أهل مصر نفوذا لتدفع العوادى عن عرشها . على انها ظلت تسوس البلاد من طريق خفى ..

الكن سرعان ما قتلت شجرة الدر قتلها خصومها السياسيون والقوا جسدها وراء القلعة .. فعرفها أهلها بجلبابها الفاخر المحلى باللآلئ فأسرعوا بدفنها فى مسجد صغير كانت قد بنته لنفسها وثوت هنالك فى قبر حقير ، ملكة مصر ذات العز والاجلال .

وللمشيخ مصطفى عبد الرازق نظرات فى الشعر العربى ونحن هنا نعرض لبحثه الشيق عن الشاعر المصرى البهاء زهير حيث يعرض لحياته ولشعره وحركة التجديد التى قام بها أيام كان الأدب العربى غارقا فى التزاويق اللفظية والمحسنات البيعية فى أواخر العصر العباسى .

البهاء الزهير

عرف الشيخ مصطفى عبد الرازق شعر البهاء زهير منذ صباه حيث كان يقرأ على والده من كتب الأدب فى بعض الليالى وقد دفعه هذا الى حب شعر البهاء زهير منذ أن عرفه .

أنظر الى «أديبنا» وهو يقول فى مقدمة بحثه : (كان يتأتى لعقل الناشئ أن يستشف من ثنايا ألفاظه اللطيفة وتراكيبه على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجابا دون المعانى كثيفا فى الشعر أحيانا وفى النثر .. وكان موقع وزنه الموسيقى ونغمه يستثير فى نفس أريحية وطربا ، حتى لتأثر

بذلك ذوقى ، فهو يهفو فى البيان الى نوع من الأنغام والوزن وكان البهاء زهير
يمتاز بقوة شخصيته وعزة نفسه وآبائه يقول شيخنا الأديب فى هذا
الشأن :

(البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم يجمع بين حب الخير وفضيلة
العفو وقوة الشخصية وشرف النفس وعزة الآباء . . . وتلك صفات لاتجتمع
الا لأهل الفطر الفاتكة ، خصوصا فى عصر كعصر البهاء زهير ولمن كان فى
منصبه) .

ولم يكن البهاء زهير عظيما فى خلقه فحسب وانما كان عظيما بمقامه
فى الأدب العربى فقد أحدث ثورة فى الأساليب الأدبية التى كانت سائدة
فى عصره فتصدى لدعاة التزاويق اللفظية وأصحاب المحسنات البديعية
وطالب بأن تنسلخ اللغة عن هذه التوابل التى تفسد الأذواق وتطمس روح
الابداع يقول أستاذنا فى هذا الصدد :

(عاش البهاء زهير فى القسم الأخير من العصر العباسى ، وكان الأدب
العربى فى هذا الدور قد جاوز المدى فى التنميق والعناية بالمحسنات البديعية
والسجع والاعراب اللفظى واشتهر أئمة الانشاء فى ذلك العصر رجلا :
أحدهما القاضى الفاضل محبى الدين وثانيهما العماد الكاتب بن حامد
الأصفهاني ويلقب القاضى الفاضل بشيخ البلاغة ويلقب العماد الكاتب بعمدة
المنشئين . . فأراد البهاء زهير أن يفك قيود اللغة ويخلصها من التكلف
ويجعل أساليبها النثرية تجرى على الفطرة والعفوية) .

ثم نجد الشيخ مصطفى عبد الرازق يلقي الضوء ، بعد ذلك ، على
مميزات وخصائص كل من القاضى الفاضل والعماد الكاتب فى أساليب
الكتابة الأدبية فيقول :

(وقد أدخل العماد أساليب الترسيل بما فيها من سجع وجناس
واقتباس واستعارات وكنائيات ، فى المؤلفات العلمية ، فكتب فى التاريخ
كتابا على هذا الطراز مثل مؤلفه المعروف (بالفصح القسى فى الفتح القدسى) .

أما القاضى الفاضل فله فى كتابه الانشاء طريقة تعرف بالطريقة
الفاضلية ، وسار على نهجها أهل عصره ومن جاء بعد عصره ، وفشت فى
الأدب العربى وقد سن سننا فيما تصدر الرسائل والتواقيع وما تختم ، وفى
أساليب الدعاء وغير الدعاء .

وتمتاز الطريقة الفاضلية بالاطناب وكثرة الاقتباس والتضمين
والمطابقة والثورية .

حركة التجديد التى نادى بها البهاء زهير

المجاز مع الاسراف فى الجنس وماليه من المحسنات اللفظية . مع الميل الى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .

ثم تجد الشيخ مصطفى عبد الرازق يستأنف حديثه عن البهاء زهير فيقول : (عين البهاء زهير رئيسا لديوان الانشاء فى الدولة الأيوبية . فحل محل القاضى الفاضل ، وقد تولاه بعده تلميذان من أتباع مذهبه . . لقد ابتدع البهاء زهير فى الشعر نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة فى صور المخاطبات وفى الأساليب : فهو موجز لا يحب الاطناب وهو مقتصد فى زينة اللفظ وهو نزاع الى الوضوح والبساطة فلا يرضى كثرة المجاز والكناية وهو عدو للجمود الذى يقتل مواهب الابداع والتفنن ثم هو لا يريد أن يستبدل الناس لكلامهم العادى كلام الجاهلية الأولى اذا نظموا الشعر أو كتبوا النثر ، وانما يريد أن يصحح الشعراء والكتاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية ، حتى لا تنقطع الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها) .

لم تلق حركة التجديد التى بشر بها (شاعرنا المصرى) ترحيبا أو تشجيعا وأبى الصمود لعنف الحركات التقليدية السائدة آنذاك وذلك لسماعته وخلقه الوديع . .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى هذا الصدد :

لم يرق الكثير من الأذواق التى أفسدها التقليد هذا المذهب الذى يفك عنها قيودها ويخلصها من التكلف الى مسامرة الفطرة) .

وأخيرا يشير الشيخ مصطفى عبد الرازق الى ما كان ينطبع به شاعرنا المصرى من رقة وسماحة وعفوية وروح مصرية خالصة يقول : (ولست أعرف شاعرا نفخت فيه مصر من روحها ما نفخت فى البهاء زهير ، فهو مصرى فى عواطفه ، وفى ذوقه وفى لهجته الى الغاية القصوى وان كان مولده فى بلاد الحجاز باجماع من ترجموا له .

ومعروف أنه توفى فى الرابع من ذى القعدة عام ٦٥٦هـ - ٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨ م وذلك من أثر وباء حدث بمصر آنذاك ، ودفن غير بعيد من قبة الامام الشافعى .

لقد نشأ (البهاء زهير) فى مدينة قوص بالصعيد فى مصر كما ذكر ذلك السوطى فى كتابه (حسن المحاضرة) ولم يذكر (ابن خلكان) فى ترجمته الطويلة نسبته الى « قوص » ولكنه ذكر فى ترجمته لجمال الدين

بن مطروح انه كان بين الاثنين صحبة قديمة من زمن الصبا وان اقامتهما ببلاد الصعيد حتى كانا كالأخوين ، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح . وقوص يومئذ كانت أكبر مدن الصعيد ، وفيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن والحجاز وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة ، والحمامات والمدارس والبساتين . ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين، فهناك يتجمعون ويذهبون الى جدة . . . وقوص من قديم الزمان منبع العلم والعلماء ويقول صاحب كتاب: (الصالح السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، وهو « كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الادفوى المتوفى ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) : ان بقوص ستة عشر مهنا للدريس ولم يرد ذكر للبهاء زهير في كتاب الادفوى الا عرضا وانتقال والد البهاء زهير من مكة الى قوص في تاريخ غير معروف، الا أن كلام المؤرخين كابن خلكان يفيد أن البهاء زهير أقضى زمن صباه في الصعيد . . . وربما يقال أن البهاء زهير كان طفلا حين هاجرت أسرته الى وادي النيل .

وتوجه البهاء زهير في خدمة الملك الصالح بدمشق فأقام هناك الى أن خانه عسكريه فاعتقل بقلعة الكرك .

وفي رواية أخرى أن (بهاء زهير) كاتب ديوان الانشاء في عهد الدولة الايوبية وفي عهد الملك الصالح قال هيار في كتابه الأدب العربي :

(أن شعر بهاء زهير كاتب السر في الدولة المصرية يجعلنا نذكر بلغة لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التي صقلتها مدنية خلفاء صلاح الدين) .

نماذج من شعره

يمتاز شعر بهاء زهير بأنه مصرى الروح ، مصرى العاطفة فهو يقول :

فرعى الله عهد مصر وحيا
ما مضى لي بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه
مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدني من الحديث عن النية
ل ودعني من دجلة والفرات

وليلى بالجزيرة والجيب
سزة فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطوراه
من وجوحكى بطون البداة
حيث مجرى الخليج كالحية الرفعط
طاء بين الرياض والجنات

وهو القائل

أرحل عن مصر وطيب نعيمها
وأى مكان بعدها شائق
وأترك أوطانا تراها لناشق
هو الطيب لا ما ضمنته المفارق
بلادى تروق العين والقلب بهجة
وتجمع ما يهوى تقى وفاسق

ويقول أيضا :

فيا ساكنى مصر تراكم علمتم
بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكم
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا
فتهدأ أحشاء وترقا أجفان

وقد عالج الشيخ مصطفى عبد الرازق فى جمال الفلسفة الاسلامية
ثلاثة موضوعات وهى : الدين والوحى والاسلام .

فلا غرابة أن نراه يقوم بتأليف كتابه : الدين والوحى والاسلام .
أنظر اليه وهو يقول : « وقد عرضنا فى الموضوع الأول لثلاثة مباحث
أحدهما فى العلاقة بين العلم والدين . »

وثانيها فى تحديد الدين وبيان أصله فى نظر الباحثين من الفرنجة
(بداية الاهتمام بهذا البحث وصلة ذلك بتكوين علم اللغات ، معانى الكلمة
الأوربية الدالة على الدين وأصل مادتها اللاتينية ، ومذاهب علماء النفس
ومذاهب علماء الاجتماع فى أصل الدين ، مناقشة التعاريف المختلفة للدين ،
حيرة العلماء فى تعريف الدين ودلالاتها) .

وثالثها فى الدين فى النظر الاسلامى (أصل مادة الدين ومعانيها اللغوية المختلفة الدين فى لسان القرآن ، المعنى الشرعى الكلمة دين ، الدين عند الفلاسفة الاسلاميين والفرق بين الدين والفلسفة) .

وعرضنا فى الموضوع الثانى لمبحثين : أحدهما فى المعانى المختلفة لكلمة (الوحي) فى اللغة والقرآن والسنة .

وثانيهما أهم النظريات فى تفسير ظاهرة الوحي (مذاهب المتكلمين ، مذهب الفلسفة الاسلامية، رأى الصوفية، مذهب ابن خلدون، آراء المسلمين فى العصور الحالية) . واما الموضوع الثالث فقد عرضنا فى قسمه الأول للنظريات المختلفة فى العلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى لكلمة (اسلام) وبسطنا فى قسمه الثانى رأينا فى هذا الموضوع على انه يمكن اللقاء الضوء على الفصل الثانى وهو الرأى الراجح فى العلاقة بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعى لكلمة اسلام .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى صفحة ٥٩٦ من الكتاب :

(ان القرآن يقرر أن الدين واحد على لسان جميع الأنبياء وهو الايمان بما يجب الايمان به وانما تختلف الشرائع أى الأحكام العملية :

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه) .

ودين الله الواحد الذى لا يدخله النسخ ولا يختلف باختلاف الأنبياء هو فى عرف القرآن المسمى اسلاما ، (ان الدين عند الله الاسلام) .

ويمكن القول بأنه قد أوحى بالقرآن الكريم فى مكة المكرمة ، وأكمل الاسلام ديننا فى المدينة المنورة . وقام العرب المسلمون بعد وفاة الرسول الكريم بحركة فتح امتدت قرنا وبعض القرن وكانت متعددة فقد كانت فتحا عسكريا امتد الى الهند والصين شرقا وبحر الظلمات غربا . . وكانت فتحا عنصريا بمعنى أن الجنس العربى تغلب على الأجناس الأخرى وتمثلها فى بعض الأقطار دون الأخرى . . وكانت فتحا لغويا فقد انتشرت اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة انتشارا سريعا .

واننا هنا ندين بالفضل الى كل من عبد الملك بن مروان والمأمون . . فالأول عرب الادارة فجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية والثانى نقل العلوم الى العربية فعرب الحركة الفكرية والعقلية » .

وقد رافق هذه الفتوحات انتشار الاسلام ، فازداد عدد الذين قبلوه

وارتضوا به • وجدير بالذكر ان الاسلام لم ينتشر فى فراغ • فالبلاذ التى قبله أهلها ديناً لهم ، كانت قد عرفت حضارات متنوعة واختبارات روحية ومادية متعددة ومن ثم ، فقد اتصل الاسلام بهذه كلها واتصلت به ، فعرف حضارة الهند وايران وفلسفة اليونان وشريعة الرومان وحكمة النصرانية، ومذاهب التصوف ونتجه من ذلك كله اختلاط اجتماعى سياسى فنى اقتصادى تكونت منه الحضارة الاسلامية التى كانت بدورها قد تمثلت كل هذا الذى لقيته واتصلت به ، فقبلت منه ما قبلت ولفظت منه ما لفظت وخلطت منه ما خلطت بنفسها •

فالدين انما هو كل شىء لجميع الناس •

وبعد فهذه عجالة سريعة استطعنا أن نلقفها من مجرى الحياة الروحية والأدبية للشيخ مصطفى عبد الرازق • فأرجو أن يكون القارئ قد استمتع بها واستروح نسمااته من عبيقها •

وبعد : فهذه عجالة سريعة وقبس من شخصية العالم الجليل مصطفى عبد الرازق عالم الأزهر الشريف والمترجم والفيلسوف الذى علم تلاميذه أصول الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية الأديب الباحث الذى سجل بحثاً شائقاً عن الشاعر المصرى البهاء زهير • المؤرخ الذى كتب عن سير الملكات المصريات عبر التاريخ •

أقول هذه عجالة موجزة سريعة سجلناها لكى تكون تبياناً عما ندين به من أفضال ومآثر ولكى تكون تحية اجلال لهذا الأستاذ الجليل •

رشيد رضا الصحفى الاسلامى الشائر

عاش (رشيد رضا) فى عصر التقى فيه بطش الاستبداد العثمانى. بنيران الاستعمار الأوروبى ، أى فى الفترة التى كانت تنحصر فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين ٠٠ اذ تعتبر من أشد سنوات الأمة العربية قساوة وقتامة والمأ على مواطنى هذه البلاد .

لكن (رشيد رضا) استطاع — بزمرة المصلحين النابهين ، أن يحمل رسالته التى تتضمن حركة التنوير والاصلاح واستطاع أن يبشر بها فى أنحاء الأمة العربية والعالم الاسلامى ٠٠ كان لا يفوته المشاكل العويصة التى كانت سائدة آنذاك ٠٠٠٠ والأمانى التى كانت حلما بعيد المنال ومن ثم ، راح يسعى حثيثا الى إبراز العوائق التى كانت تعترض طريقنا ، وينادى باصلاح نفوسنا وعقولنا ، كانت الوسيلة التى توسل بها لتحقيق أهدافه انما هى الكلمات التى كان يسطرها فى عالم الصحافة وعالم المناظرات المنطقية ضد أعداء العقيدة وضد العثمانيين والانجليز حتى أنه يمكن القول بأنه أعطى لتحقيق هذه القضية كل جهاده وعمره .

مولده ومراحل تكوينه : كانت شخصية (رشيد رضا) تمتاز بمزايا فطرية ومزايا مكتسبة . فكان يتصف بكمال خلقه واعتدال مزاجه ، وكانت حصيلته من (الوالدين) تمتاز بحسن وراثة ٠٠ وكان يضرب به المثل فيما اكتسبه من خلق ، وتربية قومية وتوعية وتعليم ، وحسبنا أن نقول انه كان تلميذا نجيبا للامام الشيخ محمد عبده أثناء وجوده ببلبنان منفيا زهاء خمس سنوات .

ولد (رشيد رضا) فى ٢٧ جماد الأول عام ١٢٨٢هـ — ١٨٦٥م ، فى قرية تسمى (القلمون) على شاطئ البحر المتوسط من جبل لبنان ، تبعد عن مدينة طرابلس زهاء ثلاثة أميال .

وشب في جو من الكرم ، والخلق القويم والهيبة والسماحة .. يقول في مذكراته : (اننى منذ دخلت - سن التمييز أرى في دارنا وجهاء أنصارى من طرابلس ولبنان ، كما أرى وجهاء المسلمين والقسوس والرهبان . فكان (والدى) يرحب بهم جميعا ايما ترحاب) .

المدارس التي التحق بها : التحق (رشيد رضا) بكتاب قرية القلمون ، وبعلم فيه القرآن وفهم آياته البينات ، كما تعلم قواعد الحساب ، ومبادئ الجغرافيا وبعلم العقائد والعبادات . لكنه سرعان ما انتقل الى المدرسة الوطنية الاسلامية بطرابلس عام ١٨٨٢ ، وكان اذ ذاك في الثامنة عشر من عمره حيث كانت هذه المدرسة أرقى علما وأعظم تقدما بالنسبة لهذا الشاب الطموح الذي كان يحدوه الأمل في مستقبل زاهر ناجح .. كانت مواد هذه المدرسة تدرس باللغة العربية وقد اهتمت بالعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية والاسلامية .

ولا غرابة اذا قلنا أن عوامل رقى هذه المدرسة وتقدمها انما يرجع الى مؤسسها ومنشئها الشيخ (حسين الجسر) وهو أحد كبار علماء الشام ، الذي تلقى تعليمه بالأزهر الشريف والذي تتلمذ على يد أديبنا الشهير الشيخ (حسين المرصفي) .

كان (حسين الجسر) بمثابة الأستاذ الأول (لرشيد رضا) ، وكان رائده الذي قام بتوجيهه الى كثير من المعارف والعلوم .

ظل (رشيد رضا) موضع تقدير أستاذه الشيخ (حسين الجسر) الذي تولاه بالرعاية وفتح عينيه على مشاكل الشرق . وما يعانيه من أزمات ومناعب بسبب استبداد الحكم العثماني ونهبه وسلبه لخيرات الأمة الاسلامية . وفرضه التخلف والقهر والظلم على شعوبها ومن ثم ، تربى هذا « الشاب اليافع » على كره هؤلاء المعتدين .. وكأنه أقسم على أن يحاربهم بقلمه مادام حيا .. فلما استوى عوده ووقف على قدميه ، أتاح له استاذه أن يتعرف على رجال الصحافة في بلده الذين أفسحوا له المجال في الكتابة في صحف طرابلس .

لم يقنع (رشيد رضا) بصحافة طرابلس لكي تكون سلاحا فتاكا ضد السلطان عبد الحميد .. وكان يحزن كثيرا لحال الأمة العربية والاسلامية وما أصابها من انحلال وجهل وتخلف حتى هبطت الى أسفل الدرك .

نفى محمد عبده في بيروت

كان رشيد رضا .. حينئذ .. يطلب العلم في طرابلس وتواترت اليه الاخبار التي عرف منها بأن الحديو توفيق قد قرر نفى الداعية المصري

محمد عبده فى بيروت مدة بلغت خمس سنوات . قضاها هناك فى متابعة الإصلاح العقلى والدينى ، فاشتغل بالتأليف والتعليم ، وشرح نهج البلاغة . ومقامات بديع الزمان . . متخذاً رسالة المعلم الواسع الثقافة والأفق . . وكان ان التقى هذا الشاب الطموح بالأستاذ الامام الذى تولاه بالتوعية والتعليم وقد هداه الى كتاب : احياء علوم الدين للغزالى لينهل منه ما يعمق ادراكه وعقله وكان الأستاذ الامام يكره الانجليز واذنابهم ، فلم يتورع من مهاجمتهم جهاراً . فانظر اليه وهو يتهم على الحديو توفيق امام أحد محررى الصحف البريطانية فيقول :

(ان توفيق باشا أساء الينا أكبر اساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام) .

حركة اصلاحية فى مصر

انطلقت فى مصر حركة اصلاحية كبرى وترامت أبناء هذه الحركة الى رشيد رضا وكان من الطبيعى أن يلتقى بها وبرجالها وينهل من مواردها . . ثم يسعى بدوره فيها حتى وصل الى مراكز القيادة بها وشارك فى شعلتها . . ومما يجدر ذكره أن اثنين تولوا زعامة هذه الحركة وهما: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده فأديا الرسالة على أكمل وجه .

معهد الدراسات العليا

لقد جاء نزول جمال الدين الأفغانى أرض مصر فاتحة عهد عظيم فى يقظة الشرق ، فلقى تشجيعاً وترحيباً بفكرة اقامته لمعهد الدراسات العليا لتخريج القادة وزعماء الإصلاح فى شتى الميادين .

والحق أن تربة مصر كانت صالحة للاخصاب والحصاد ، بسبب ما بذله أبناء تلك البلاد منذ القرن التاسع عشر ، أى قبل مجيء جمال الدين الأفغانى الى مصر ، من مجهود وعناء فى تحصييلهم من مدينة أوروبا وعلمها وثقافتها . . أخذ أبناء مصر ينقلون الى مواطنيهم ثمار تعارف الغرب عن طريق ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية فى شتى الفنون والمعارف . . وخلقوا بالتالى، يقظة رائعة فى ميدان الثقافة العربية فحين دخل جمال الدين الأفغانى مصر، وجه عزمته الى اكمال الرسالة التى بدأها قادة الطليعة فى تلك البلاد .

عرف (رشيد رضا) كل ما كان يجرى فى مصر ، وهو مازال أديباً وصحفيًا اسلامياً يعيش على مقالاته التى كان ينشرها فى الصحافة العربية فى لبنان . . لهذا رأيناه يفرح ويهشى بجريدة العروة الوثقى التى أصدرها من باريس جمال الدين الأفغانى فى ١٣ مارس عام ١٨٨٤ كما عرف أسباب

اصدار هذه الجريدة ، وكيف كانت رسالتها من أجل النهوض بالعالمين العربى والاسلامى ، والعمل على القاهما من برائن الاستعمار وخاصة دخول الانجليز مصر بمساعدة الحديو توفيق ، وفشل الثورة العرباية ٠٠ الأمر الذى جعل عددها الأول يتصدر بذلك العرض الرائع الذى أغاظ الانجليز وأثار غضبهم ٠٠ يقول فى هذا العرض :

(ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق (أى احتلال انجلترا نصر) جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاديين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة - أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فنقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف) ٠

لقد فطن من متابعة قراءة لسائر اعداد العروة الوثقى ، السبب الذى حمل رئيس تحرير تلك الجريدة على أن يخبئها ، ويضرب عليها طابع السرية التامة خشية أن تقع فى أيدي الاستعمار البريطانى الذى ظل يتربص بها ويقف لها بالمرصاد ومن ثم ، فقد فتحت هذه الجريدة أمام رشيد رضا آفاقا واسعة لم يكن يعرف عنها شيئا ٠٠ حتى يمكن القول أن الاعداد التى حصل عليها من العروة الوثقى كانت أشبه بالمعلم الذى علمه ما لم يكن يعلم والذى كان أشبه أيضا بعصى سحرية نقلته من الأفق الضيق فى قرينه بالقلمون بلبنان الى الوطن الشاسع الأرجاء ٠٠ وطن العروبة والاسلام ٠

السفر الى مصر

ذهب (أديبنا الاسلامى) الى صديقه شكيب أرسلان وكان مقيما اذ ذاك فى بيروت ، وذلك ليخبره بما عزم عليه من السفر والهجرة الى مصر ، باعتباره من مريدى الشيخ محمد عبده ، وزعيما من زعماء الاصلاح فى الشام آنذاك ٠٠ قال الأمير شكيب أرسلان فى مذكراته :

(كنت نازلا فى فندق كوكب الشرق ، فى بيروت ، فتناول معى السيد رشيد رضا طعام الغداء وأسر الى قضية سفره الى مصر ، وأوصانى بكتمان الخبر لأنه يجوز ان الحكومة فى حالة معرفتها بالخبر أن تمنع الشيخ رشيد رضا من السفر ، فقد كنا فى عصر السلطان عبد الحميد لا نقدر على السياحة الى الخارج الا باذن ، وان كان الاذن متعذرا جدا أيضا ولما قارب ميعاد السفر بالغ رشيد رضا فى اخفاء نواياه فأعطى صندوق ثيابه الخاصة للشيخ (أبى النهى القاوقجى) حتى لا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر السفر ٠٠) ٠

ووصف رشيد رضا في مذكراته ساعة مغادرته بيروت ، ساعة الخلاص من أسر السلطان عبد الحميد والانطلاق الى وطن الحرية قائلا :

(ولما حضرت الباخرة التى نزل فيها رفيقى من ميناء طرابلس الى بيروت ، نزلت اليها فى زورق مع الأستاذ الشيخ (صالح الرافعى) ناظر مدرسة النفوس وليس معنا شيء يدل على ارادتي على السفر .. وقد تساءل رجال التبشيرة (البوليس) الذين يفتشون المسافرين عنى ، فقبل لهم هذا الضيف طرابلسى عند ناظر مدرسة النفوس يريد أن يتنزه فى البحر ولما استقرت قدمي فى الباخرة تنفست الصعداء ، وحمدت الله تعالى أن من على بالخروج من تلك البلاد وأنجاني من ذلك الوباء) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن (رشيد رضا) كان يصحب فى رحلته السيد/ عبد الرحمن الكواكبي الذى شاركه الهجرة الى مصر كما تعاونوا سويا فى مجال حركة الوعى والتعقيل التى كان ينشرها فى مجلة : المنار .

الرعييل الاول من الزعماء المصريين

ولئن كان (شيخنا) قد التقى فى مصر بنفر من أحرار وطنه ، فانه لاحظ أيضا ما تموج به البلاد من حركة وطنية ذات مظاهر سياسية ، واجتماعية ، وثقافية . وقد نهض بهذه الحركة أبناء مصر ، الذين أفاقوا سريعا من صدمة فشل الثورة العربية وما تلاها من احتلال بريطانيا .. فقد استأنف المصريون الجهاد فى عنف بالغ وكان على رأس هؤلاء الامام محمد عبده الذى نظر اليه الجميع نظرة الأستاذ الأكبر خليفة جمال الدين الأفغانى . ثم كان مصطفى كامل وخليفته محمد فريد .. ثم سعد زغلول ومكرم عبيد .

لقد حملوا جميعا راية الجهاد وجعلوا مصر ، نارا محرقة على الاستعمار وأعوانه فى البلاد .. فكان كفاحهم مشهودا فى التاريخ .

وصوله ميناء الاسكندرية :

رست الباخرة فى الاسكندرية مساء الجمعة ٣ يناير ١٨٩٨م ، وأقام الشيخ رشيد بضعة أيام فى المدينة ثم خرج فى رحلة استطلاعية الى الوجه البحرى فزار طنطا ، والمنصورة ، ودمياط حيث أقام فى كل منها بضعة أيام . وفى يوم السبت ٢٣ يناير سافر من طنطا الى القاهرة لكنه لم يطل به المقام فى القاهرة ، فذهب الى الأستاذ الامام فى داره بالناصرة ومعه صديقه الشيخ اسماعيل الحافظ ، ورفيقه الشيخ أبو النهى القاقجى .

أن أهم ما نركز عليه الآن انما هو وقوف محمد عبده على مدى تحصيل
تلميذه الشيخ رشيد رضا ، وما أفاده من قراءاته الواسعة في شتى صنوف
المعرفة خصوصا قراءته لأحياء علوم الدين للغزالي حيث عرض فيه عن
التفرقة بين علماء الدنيا الذين لقبهم بعلماء السوء ، والعلماء الآخرين ،
كذلك حاول أن يستوضح منه ما أفاده من دراسته لجريدة العروة الوثقى،
وأيضا الأسباب التي جعلت الاسلام يهبط ولا يواكب تقدم العصر الذي
يعيش فيه .

لكن الشيخ رشيد رضا كان يكتف في صدره أمنية التي طالما تمنها
وعاش يحلم بها فهي الحلم الذي أفنى عمره وأضاع جهاده في سبيل الوصول
اليه . .

كان يحدوه الأمل أن يصنع مجلة لكي يكتب فيها كلمته الواعية لتبصير
الناس سواء السبيل .

والحق أن الأستاذ الامام أظهر اعجابه بشخصية رشيد رضا ومدى بعمق
كبير من خبراته ونفوذه في جميع النواحي الخاصة بالمجلة من كتابة وطبع
ونشر وتوزيع .

لقد أخذنا يتجادلان حول المجلة وأهدافها واسمها حتى انتهيا بهما هذا
الجدل الى تسميتها (بالمناار) .. كان هذا هو الاسم الذي قال به الأستاذ
الامام . . الأمر الذي جعل رشيد رضا يوافق عليه في الحال . . . فقد كانت
موافقته عن يقين واقتناع بأن هذا الاسم هو أحسن الأسماء وأنسبها خصوصا
وانه ينطبق على مضمون المجلة وأهدافها في النهاية .

صحيفة المنار

بدأ رشيد رضا جهاده في ميدان الاصلاح عملاقا يبهز الأبصار بقوته
الخارجة للعادة لقد صدر العدد الأول من المنار صحيفة أسبوعية ذات ثمانى
صفحات . . وذلك في ١٧ مارس عام ١٨٩٨م .

لقد حددت مقدمة العدد الأول الأغراض التي تسعى اليها هذه الجريدة
هى نشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، واقامة الحجة على
الاسلام باعتباره نظاما دينيا ، لا يتنافر مع الظروف الحاضرة .

كذلك أوضح (رشيد رضا) أن الغرض من هذه الجريدة انما هو
السير على نهج العروة الوثقى وخاصة في سعيها للقضاء على الخرافات
والاعتقادات الدخيلة في الاسلام، ومحور الأفكار الشائعة عن القضاء والقدر،

وما أدخل على العقائد من بدع الاعتقاد في الأولياء ، وما يأتيه طرق المتصوفة من بدع وضلالات .

ثم الحض على ترقية التعليم العام ، واصلاح كتب التدريس وطرائق التعليم ودفع الأمم الاسلامية الى مباراة الأمم الأخرى في جميع الأمور الضرورية لتقدم الأمم .

اعجاب محمد عبده بأسلوب رشيد رضا : أظهر الأستاذ الامام اعجابه بأسلوب (رشيد رضا) في معالجة المقالات وخاصة ما جعله فيها بأسلوب المناظرة . . لكنه قال له بعض النقد الخفيف الذي تقبله عن طيب خاطر . . قال محمد عبده .

(ان المنار) في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه الا الخواص ، فيجب أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه الى أفهام جميع القارئین حتى العوام) . . لقد أخذ يقلل ، بعد ذلك ، من غريب اللفظ في أسلوبه وكتاباتة .

كذلك كان للأستاذ الامام ملحوظة أخرى على جريدة (المنار) انما هي أن يبتعد (المنار) عن الخوض في سياسة الدولة العثمانية لو قليلا ، وان يقتصر كلية على الاصلاح الدينى والاجتماعى .

وقد وافق رشيد رضا على جميع توجيهات محمد عبده .

لكن ما كادت السلطات العثمانية تسمع بصدور (المنار) حتى بادرت الى منع تداوله في الاراضى التابعة لها . . فأصدر (رشيد بك) والى بيروت أمرا بجمع العدد الثانى من السنة الأولى (للمنار) واحرقه .

واضح أن (رشيد رضا) كان يسعى منذ الصبا الى تحقيق أمانيه وهى أن يرى الشرق وقد أشرق عليه شمس الحرية والحضارة والتقدم . . يراه وقد تحرر من العثمانيين والانجليز والفرنسيين . . وذلك عن طريق الصحافة والخطابة والمناظرة .

ومن أجل هذا كان فرحا بجريدة (المنار) لأنها كانت تمثل ثمرة شبابه وكفاحه . . كان يضمونها أفكاره في الاصلاح الدينى والاجتماعى . . وإيقاظه للنواحي العلمية والسياسية حتى استطاعت هذه الجريدة في مدة وجيزة أن تصبح (الجريدة) الشرعية الاسلامية الأولى في العالم الاسلامى .

عبقرية العقاد

العبقرية عندي ، لا تعدو أن تكون مجهودا موصولا لا يتوقف الا بالموت ٠٠ ولقد كانت حياة « العقاد » جهادا مستمرا لا يتوقف عند حد وانما ظل دائما هكذا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

ولد (عباس محمود العقاد) في الثامن والعشرين من يونيو عام ١٨٨٩ من ثم ، كانت والدته تقول : (لقد وضعت قبل نهاية الشهر ما ينتهي بيومين اثنين) فلا غرابة ، اذا كان (العقاد) يحتفل بيوم ميلاده في الثامن والعشرين من يونيو من كل عام .

ولد « أديبنا الكبير » في مدينة أسوان ٠٠ في بيت من بيوتها العريقة ٠٠ كانت والدته تمتاز بالثابرة وشدة البأس في معاملة أهل المنزل ٠٠ وكان « العقاد » شديد العطف عليها ، فكان يرسل اليها راتبا شهريا يوازي ثلث ما يتقاضاه من صحيفته التي كان يعمل بها ٠٠ فكانت تنفق جزءا منه وتدخر الباقي حتى استطاعت أن تشتري بما ادخرته (العقاد) الذي حول منزلها الصغير الذي تركه زوجها .

في المدرسة

في حياة (العقاد) مدرستان : مدرسة التعليم الابتدائي من ناحية ، ومدرسة الحياة من ناحية أخرى كان يتلقى التعليم على أيدي أساتذة معينين في المدرسة الابتدائية قد فرضتهم الحكومة ليتلقى عليهم ٠٠ أما المدرسة الثانية فقد اختار فيها أساتذته بنفسه فلم يفرضوا عليه وانما كانوا جميعا من المؤلفين المشهورين الذي كان يقرأ لهم ما يشاء وانى شاء ، حسب رغبته هو .

وجدير بالذكر أن مواهب « أستاذنا الكبير » قد برزت وذاع اسمه

بين السلامية والمدرسين . وكان الشيخ (فخر الدين الدشناوى) مدرس اللغة العربية أكثر المدرسين اهتماما به . وكانت أسوان حينئذ محط أنظار الزوار من عظماء القوم فى مصر وفى العالم .

ومما يذكر أن الزعيم (مصطفى كامل) زار المدرسة شتاء أحد الأعوام، ودخل أحد الفصول وكتب على السبورة هذا البيت من لامية الطغرائي الطغرائي :

والمرء ان لم تفد نفعا اقامته
غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يزل

وطلب أستاذ اللغة من العقاد أن يشرح له البيت فقام وأخذ يشرح البيت ويستفيض حتى نال اعجاب الزعيم مصطفى كامل .

فى الوظائف

اشتغل (العقاد) بوظائف الحكومة، وبالتدريس فى المدارس الأهلية . . . ولكن لم يطل به المقام فى أى منهما . . . فقد نظر الى وظائف الحكومة على أنها قيد وخضوع ووظائف التدريس على أنها فوضى وخنوع .

لقد بدأ عمله فى وظائف الحكومة بقلم (القيد) بمديرية الفيوم . . . كان يتسلم عمل القيد بدفتر الصادر . . . وحدث أن أرسل اليه البريد فى وقت متأخر - فلم يستطع قيده وإرساله فى المواعيد المقررة للعمل ، كان يرد اليه البريد قبيل انصراف الموظفين ، فيضطر الى البقاء بعد الموظفين بساعة أو ساعتين ، فضلا عن المجهود الذى يحتاجه انجاز العمل فى ذلك الوقت المتأخر . . . وقد احتج العقاد كثيرا وشكا كثيرا . . . لكن لم يسمع احتجاجه ولم تقبل شكواه فلم يجد بدا من ترك العمل والاستقالة .

ويبدو أن العقاد بتصرفه على هذا النحو ، كان أول موظف يستقيل من الوظائف الحكومية فى هذا الزمن . ثم اشتغل العقاد بعد ذلك ، فى وزارة الأوقاف ، وكان ذلك فى الفترة بين ١٩١٢ - ١٩١٤ لكنه سرعان ما استقال من وظيفته .

وقضى العقاد فترة فى أسوان بعد هذه السلسلة من الاستقالات « كانت هذه الفترة على حد تعبيره موسما خصبا حافلا بالثمرات : (فقد انتهيت من كتاب ساعات بين الكتب فى خمسمائة صفحة ، وقمت بتأليف كتاب يضم أهم مذاهب الفكر الحديث أولها: مذهب داروين ومذهب نيتشه فى السوبرمان، كذلك فرغت من كتاب عن المرأة سميته « الانسان الثانى » .

فى التدريس

لقد عاد العقاد الى القاهرة يشتغل بوظائف التدريس ومعه صديقه عبد القادر المازنى . ويحكى أن التلاميذ كانوا يطلقون على العقاد اسم (حرحور) تشبيها بالكاهن المصرى المعروف فى تاريخ قدماء المصريين . وذلك لانفراده وصمته وانصرافه الى عالم الحفايا والأسرار ، كما أطلقوا على ابراهيم عبد القادر المازنى اسم (تيمورلنك) لشدة وعرج فى قدمه قد أصابه .

لكن سرعان ما استقال العقاد والمازنى من المدرسة الاعدادية ، وهما لا يملكان ما يقيم أودهما ، الأمر الذى جعل صديقهما عبد الرحمن شكرى يغضب منهما ويثور عليهما ؛ فكيف يفعلان ذلك وهما فى حال من العسر والفاقة .

ولئن كان (العقاد) لم يفلح فى وظيفة موظف حكومة بأحد الدواوين . ولم ينجح كمدرس باحدى المدارس ، الا أنه استطاع أن يكون ناظر مدرسة ناجح . كان ناظرا لمدرسة المواساة بأسوان وقد أفلح فى قيادتها . فكان هو الناظر وصاحب الأمر والنهى فى المدرسة . لكن تصادف أن أقام (العقاد) حفلا كبيرا ، دعا اليه مدير المديرية ، وكان رجلا متعجرفا ، مغرورا فلم يقبل دعوته ولم يعتذر عن الحضور الأمر الذى أثار العقاد وجعله غاضبا لمسلكه القبيح . ولعل هذا ما جعل أحد الوشاة يشى به لدى المدير وكان رد فعل ذلك انما هو صدور أمره العسكرى بأن يلزم العقاد بيته وأن يكون تحت المراقبة ذلك لأن الحادث وقع ابان الحرب العالمية الأولى وكان المدير حاكما عسكريا .

العقاد والتجديد

انتقل الشعر فى القرن السابع والثامن من الهجرة الى نوع من الصناعة، ظهر فيه أثر التكلف الذى تسوق اليه الرغبة فى الترصيع والتنميق جريا وراء مقتضيات فن البديع ، فكثير من الشعر ملئ بالسجع والجناس والتورية، وما الى ذلك . فكان كل هم الشعراء الذين ظهروا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن يعيدوا الى الشعر مكانته الأولى فى عصر الاسلام والعصر العباسى فلجأوا الى أشعار المتقدمين يحومون حولها وينظمون أشعارهم فى ضوئها حتى بلغوا مقصدهم فى هذا السبيل ، فرأينا ديباجة أبى فراس تظهر فى شعر (البارودى) وديباجة البحترى وأبى تمام تظهر فى شعر على الجارم .

وقد كتب (العقاد) على قصيدة لحافظ ابراهيم فى صحيفة الدستور عام ١٩٠٩ فقال ما خلاصته (أن الشاعر قد أخذ قطعة من الحرير وقطعة من

الكتان وقطعة من الصوف ، فكل منها صلح لصنع كساء فاخر من نسجه ونونه . . لكنها اذا جمعت على كساء واحد فنلك هي مرقعة الدروايش » .

كان (العقاد) وزميله المازني على حق حين انبريا يهاجمان شعر المحاكاة ، ومن هنا ظهر في جو الأدب روح جديدة قوامها ثلاثة شعراء هم عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري .

جماعة الديوان (١)

في الامكان أن نطلق على شكري والعقاد والمازني جماعة الديوان نسبة الى الكتاب النقدي الذي أصدره العقاد والمازني عام ١٩٢١ .

وليست جماعة الديوان هذه نزعة فردية تبرز في الحياة الأدبية ثم تتلاشى ولكنها كانت طليعة جيل جديد ، غير جيل شوقي وحافظ ومطران . . جيل ينشد قيما جديدة ويتطلع الى معان جديدة . . والحق أن هذا الجيل . كان متسلحا بالثقافة العربية واسع الأفق متفتحا للجديد . وقد وصف (العقاد) هذا الجيل وبين تأثيره ومنابع ثقافته بقوله : (فالجيل الذي نشأ بعد شوقي لم يتأثر به أقل تأثر لا من حيث اللغة ولا من حيث الروح ، بل كان الأصح أن شوقيا تأثر بمن نشأوا بعده فجنح في أخريات حياته الى أغراض من النظم تألف أغراضه الأولى التي كان يعيبها عليه الجيل الناشئ . في أوائل القرن العشرين ، فاتجه الى الروايات وأكثر من الاجتماعيات والتاريخيات ، وعدل أو كاد عن شعر المناسبات الضيقة الذي كان ينحصر فيه وقلما يتعداه ، أما اللغة فلم يتأثر فيها الجيل الناشئ بشعر شوقي لأن هذا الجيل كان يقرأ دواوين الأقدمين فيدرسها ويعجب بها . . . وذلك مثل المتنبي والمعري وابن الرومي والشريف الرضي أحمد بن يس وابن زيدون . . ان هذا الجيل كان لا يختلف الا في الأداء والعبارة لأنه متفق في ادراك معنى الشعر ومعاييره ونقده » .

الشعر العربي والشعر الانجليزي (٢)

انظر اليه وهو يعقد مقارنة بين طبيعة الشعر العربي وطبيعة الشعر الانجليزي فيقول : (شعر العرب منبت مقصور على أمة واحدة وأن شعر الانجليز شعر متفتح الجوانب متصل بحياة الأمم الأخرى) ثم يواصل حديثه

(١) كتاب جماعة ابولو للدكتور عبد العزيز الدسوقي .

(٢) ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد ص ٣٤٤ .

فى هذا الصدد فىقول : (ومن الفروق الواضحة بين الشعر العربى والشعر الانجليزى ان أولهما يدور أكثره على الحس وثانيهما يدور أكثره على العطف والخيال ، فالشاعر العربى يصف امرأة لها سمات جسدية من الفرع الى القدم تقاس وتكال ٠٠ أما العاشق الانجليزى فيصف المرأة التى يحبها كأنها روح عاطف له ثوب من الجسد جميل والشاعر العربى يعنى بالصورة الحسية المحسوسة دون الصور الباطنية . ويريك الهلال منجلا والقمر درهما فضيا ولا يحكى لك وقع هذه الأنبياء فى النفس ٠٠ ولولا ابن الرومى لحلا الشعر العربى من ملكة التصوير العالية وتشبيهاته الخيالية الرفيعة . ومن الفروق بين الشعرين أن الفردية غالبية على الشعر العربى والاجتماعية ، غالبية على شعر الانجليز ٠٠ فالعواطف التى فى الشعر العربى هى العواطف البسيطة . الساذجة ٠٠ ولعل ظهور الروايات التمثيلية والقصصيا فى الأدب الانجليزى وامتناعها فى الأدب العربى ، ربما جاءت منه أيضا سذاجة المدح العربى التى لاتشبهها سذاجة فى الآداب الأوربية .

وتحت عنوان تمثال النهضة (١) يحدثنا « أستاذنا » عن كيف يقاس حجم رقى الأمم بمقياس الكماليات قبل الضروريات ٠٠ « تمثال نهضة مصر أول عنوان يقرأه العابر فى ميادين القاهرة من كتاب نهضتنا الفنية ، وقد كان العابر فى هذه العاصمة لا يقع على رمز واحد لروح مصر الحديثة ٠٠ فالיום يتصل ما بين مصر الحديثة ومنف القديمة ، ويتقارب ما بين أبى الهول الرابض وأبى الهول الناهض ، وتنطلق صخور مصر مرة أخرى بما أفاضته عليها روح مصر ماضيها العريق وحاضرها المأمول . هذه هى القيمة الكبرى التمثال النهضة الذى أنجزه الأستاذ محمود مختار فهو عنوان مشهور لشيء فى مصر غير المعدة والمحراث ٠٠ ثم يحدثنا عن البطولة (٢) فهو بادئ ذى بدء يتساءل من هو البطل ؟ ويجيب على هذا السؤال فىقول :

(ان الرجال الذين يخافون على امهم الذل ويرجون لها العزة ، أو الذين يخافون على العالم قاطبة أن يرين عليه الرجس ويرجون له الخلاص والرفعة ، أو يخافون عليه الظلام ويرجون له النور والمعرفة . أن هؤلاء الذين يخافون ذلك الخوف ويرجون ذلك الرجاء ثم يثبتون على محنة المطامع والآلام أعواما طويلا ٠٠ ولا ينسون الأمة والعالم فى مآزق الهول ومدارج الغواية ، أولئك هم عظماء الأبطال فى تاريخ بنى الانسان وأولئك هم شرف الآدمية وعزاء الحياة والمعنى الذى تطيب من أجله الأرض وتنظر من صوبه السماء ومن هؤلاء كان سعد زغلول) .

(١) ساعات بنى الكتب لعباس محمود العقاد ص ٣٣٦ .

(٢) البطولة مستوحاة من ذكرى سعد ص ٢٠٣ من كتاب ساعات بنى الكتب .

قصة سارة

ونعتقد (تجربة عاطفية) ، انها تجربة حب ، عاناها (العقاد) في صدر شبابيه واستطاع تكييفها في قالب قصصى .. انها قصة (سارة) وهى قصة الحب التى دارت بين العقاد وسارة . وأعظم تعبير لهذه القصة . انه عز التعبير عن (الانتظار اللا مجدى) فقد ظل (البطل) ينتظر (البطلة) ويعتول انظاره حتى تمدد الزمن فراح يحسب الدقيقة عنده دهرًا وذلك خلال هذا الموقف المتوتر المشدود .

وهنا نستطيع أن نفطن الى طبيعة «الزمن السيكلوجى» .. الزمن الذى يجعلنا نشعر بحجمه ، سواء كان زمنا ممدودا أم قصيرا وذلك وفقا للحالة النفسية التى تكون عليها .

وجود الله

فى كتاب : « حياة قلم » لعباس محمود العقاد وفى الفصل الحادى عشر وهو بعنوان : دين وفلسفة يحدثنا (أستاذنا الكبير) عن وجود الله فيقول : فى رأينا أن مسألة وجود الله مسألة (وعى) قبل كل شىء .. فالإنسان له وعى بقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية .

والوعى والعقل لا يتناقضان .. ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التى استدلت بها الفلاسفة على وجود الله .. ولكننا نلتقى هنا بأشيعها واجمعها الى التواتر والقبول وهى : برهان الخلق ، وبرهان الغاية . وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير .

ومن الموضوعات التى كتب فيها العقاد بروعة فائقة موضوع العبقريات حيث يتناول فيها سير الأنبياء والزعماء والقادة بالتفصيل والقاء الضوء على مغزى كل شخصية . وكيف كانت فى حياتها شخصية فذة فريدة .

اننا لا نستطيع أن نعرض لكل شخصية من شخصيات العبقريات وذلك لضيق المقام هنا وحسبنا أن نعرض العبقرية محمد .

عبقرية محمد

ليس الكتاب شرحا للإسلام أو لبعض أحكامه أو دفاعا عنه أو مجادلة لخصومه إنما الكتاب تقدير (لعبقرية محمد) بالمقدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى فمحمد هنا عظيم لأنه قدوة المقيدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس . . عظيم لأنه على خلق عظيم . . انه نقل قومه من الايمان بالأصنام الى الايمان بالله .

ولم تكن أصنام كأصنام يونان التى تمتاز بالذوق والجمال ولكنها أصنام شائعات كتعاويذ السحر التى تفسد الأذواق وتفسد العقول فنقلهن محمد الى عبادة الحق الأعلى . . عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه . . ونقل العالم كله من ركود الى حركة ، ومن فوضى الى نظام ، ومن مهانة حيوانية الى كرامة انسانية . . ان عمله هذا لكاف لتحويله المكان الأسنى بين صفوة الاخيار الخالدين .

فاذا رجع بمحمد ميزان العبقرية وميزان العمل وميزان العقيدة فهو نبي عظيم وبطل وانسان عظيم .

ويضم كتاب محمد الموضوعات التالية :

- ١ - علامات مولد
- ٢ - عبقرية الراعى
- ٢ - عبقرية محمد العسكرية
- ٤ - عبقرية محمد السياسية
- ٥ - عبقرية محمد الادارية
- ٦ - البليغ

٧ - محمد الصديق

٨ - محمد الرئيس

٩ - الزوج

١٠ - الأب

١١ - السيد

١٢ - العابد

١٣ - الرجل

١٤ - محمد والتاريخ

١ - علامات مولد :

بين هذه الدول المتداعية • أمة ليست بذات دولة • ولكنها تتأهب
لإقامة دولة هي أمة العرب •• وقد تيقظت الوجودها وشعرت بمكانتها ••
فاذا سارت القوافل من خليج فارس الى بحر الروم فهي تسير في حراس
من العرب •• واذا سارت القوافل من اليمن الى الشام فهي في حراسة
الأعراب •• انها أمة رأت هؤلاء المحيطين بها يجرون عليها لاختضاعها
وابتلاعها •• انه عالم يتطلع الى نبي ، وأمة تتطلع الى نبي ومدينة تتطلع
الى نبي ، ثم ها هو انسان نبيل عريق النسب فقير يتيم خبير بكل ما
يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحضر •• تربى في الصحراء ،
وآلف المدينة ورعى القطعان واشتغل بالتجارة وشهد الحروب والاختلاف ••
انه محمد بن عبد الله عليه السلام •• قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا
في حاجة الى رسالة وقالت حقائق التاريخ •• لقد كان محمد هو صاحب
هذه الرسالة •

٢ - عبقرية الراعي :

كانت لمحمد فصاحة اللسان ، واللغة ، وكانت له القدرة على تأليف
القلوب وجمع الثقة وكانت له قوة الايمان بدعوته على نجاحها •• كان محمد
فصيحاً وفصاحته في نطقه •• فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم ••
كان جامعاً للمحبة والثقة ، وكان مشهوراً بصداقته ، وأمانته ، كاشتهاره
بوسامته •

٣ - عبقرية محمد العسكرية :

لم ينجح الاسلام لأنه دين قتال كما يردد اعداؤه المغرضون ولكنه

نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق ٠٠ لم يجتنب محمد الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف ، ولكنه اجتنبه لأنه نظر الى الحرب نظرتة الى ضرورة بغیضة يلجأ اليها ولا حيلة له فى اجتنابها ٠٠ لم يكن الاسلام دين قتال ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب ولكنه كان مع هذا نعم القائد البصير ٠٠

٤ - عبقرية محمد السياسية :

هكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الأمور اذ دعا المسلمين وغير المسلمين الى مصاحبته فى رحلته .

فى عهد الحديبية تجلى تدبيره فى سياسة خصومه وسياسة اتباعه ، وفى الاعتماد على المسلم والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ، ولا تصلح العهود ٠٠ ولقد أفسد على قريش ما تعدوه من اغصاب العرب على الاسلام بما أدعوا عليه قطعه للأرزاق ، فها هو محمد نفسه يأخذ معه المسلمين الى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام فاذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون اليه فتلك جنائته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه ٠٠ ولا وزر فيما أصاب الارزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين .

ويواصل (أديبنا الكبير) عرض عبقریات الرسول فلا يفوته أن يعرض لبقية أبعاد شخصية كعبقرية محمد الادارية ، فهو يعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملة شخصية تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين أو مؤديا لغير رسالة من سائر أعمال الانسان ٠٠ أما السليقة المطبوعة على انشاء الادارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام وتعرف الاختصاص بالعمل .

وقد كانت هذه السليقة فى محمد عليه السلام كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل ، وكان قوام الرئاسة والامامة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة وهما :

الكفاءة والحب . وقد كانت أوامر الاسلام ونواحيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارا كانوا أو مهاجرين ولكنه لم يترك أحدا يدعى لنفسه حقا فى اقامة الحدود واكرام الناس على طاعة الأوامر واجتناب غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس .

ولما أراد أن يصادر الخمر نهج فى ذلك نهجا يقصد به الى التعليم والاستئنان فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين ٠٠ ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغى أن تكون فى يد ولى للمسلمين لا فى يد فرد

له من سلطان الآخرة كل ما للنبي الذي يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون وكان له من سلطان الكفاءة ما يعترف به بين أتباعه أكفاً كفاء وأقر مهيب ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر بسلطان الحب والرضا والاختيار . . كان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه . . ويعلق الأستاذ العقاد على ذلك فيقول (واليوم يكثُر اللاغظون بحرية الفكر ويحسبون كشفها من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها فهذا الذي يحسبونه كشفاً من كشوف العصر قد جرى عليه حكم النبي قبل أربعة عشر قرناً وشرعه لأمته في أحاديثه حين قال عليه السلام . (ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) .

لقد كانت الرئاسة عند محمد هي سنة الصداقة والحب .

٩ - الزواج :

كانت المرأة قبل الاسلام تدفن في مهداها فرارا من عار وجودها ، فأصبحت بذلك انسانا ينال العقاب من ينالها ، بمكروه . . ماذا صنعت رسالة محمد ؟

لقد طلب من المسلم باحسان معاشرتها ، وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال : (الرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) وجعل محمد يعرض على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها في المنظر الذي يرونها .

١٠ - الأب :

محمد الأب كان أصلح الآباء فقد فجع في بيته فجيسة لا يدارى فيها ألم انسان الا صبر الأنبياء . . فقد مات في هذه الفترة كل أولاده . . مات « القاسم » و « الطاهر » طفلين ، وماتت « زينب » و « رقية » و « أم كلثوم » .

١١ - السيد :

كان يكره أن تقبل يده مخافة أن تجرى العادة بين الناس فتحمل بينهم على الذلة والخضوع وقال أبو هريرة رضى الله عنه : (دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويله ، وقال للوزان : زن وأرجح فوثب الوزان الى يد رسول الله يقبلها ف جذب يده وقال هذه تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك انما أنا رجل منكم . . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال : (صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله) .

١٢ - العابد :

طبيعة العبادة وطبيعة التفكير وطبيعة التعبير وطبيعة العمل والحركة كانت طبيعة تهيؤ للعبادة فقد نشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه ونعوى التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار والنظر الى ما حوله بعين الناقد السرفع عن الدنيا الجانح الى الطهر واستقامة الضمير .

كانت عبادة محمد خلوا بالنفس الى حين أو عجباً من بدائع الكون فما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت أمام عينيه . . دهشة لا تعد لها دهشة . . أن محمداً باعث الايمان الى القلوب . . لقد كان يجدد ايمانه وكان يدعو الله فيقول : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) لقد بهره الجمال من صباه : جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء ، وجمال الوجوه التي يلمح فيها الحسن فيطلب عندها الخير ومن الواجب أن نذكر أن محمداً نبى وأن النبى يعلم جميع الناس الايمان فهو يفتح للناس أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد حتى لا يضلون في تيه الشكوك والمتناقضات .

١٣ - الرجل :

ان محمداً فى المقام الأول بين الرجال : فى المقام الأول بخلقته . . فى المقام الأول بنيته وفى المقام الاول بعمله . . لم يكن كارها لطيبات الدنيا ولا خاصا لأحد على كراهتها .

١٤ - محمد فى التاريخ :

الحق أن فتوح محمد فتوح ايمان ، وان قوة محمد قوة ايمان لقد جاءه سيد قومه (ابن ربيعة) فقال له ملاطفا : « يا ابن أخى ان كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالا ، وان كنت تريد شرفا آزرناك علينا » . فما كان من النبى الا أن أجابه بآيات من القرآن الكريم .

وبعد ، فهذا قليل من كثير مما أحزرتة قريحة الأستاذ (عباس محمود العقاد) فما أشبه شخصيته بالموسوعة الجامعة للمعارف والثقافات .

فحسبنا أن نعرض تلك القطرة التى استقطرناها من محيط معرفته وثقافته .

محمد كامل حسين الأديب المفكر

- ولد عام ١٩٠١ وهو ينتمى الى أسرة علمية كان شغلها الشاغل تذوق ودراسة اللغة والأدب الأمر الذى جعله يتطبع بمؤثرات بيئته الثقافية.
- التحق بكلية الطب عام ١٩١٧ وتخرج عام ١٩٢٣ بتقدير ممتاز كطبيب متخصص فى جراحة العظام وحصل على زمالة كلية الجراحين بانجلترا، وماجستير جراحة العظام من ليفربول عام ١٩٣٠ .
- عين أستاذا لجراحة العظام بكلية الطب - قصر عينى عام ١٩٤٠، كما عين مديرا لجامعة عين شمس عام ١٩٥٠ ويعمل مستشارا لمستشفى الهلال الأحمر منذ عام ١٩٣٧ حتى الآن . أنشأ أول قسم لجراحة العظام فى الجامعات تخرج فيه الكثيرون .
- نشر له العديد من البحوث التى تتميز بالدقة والأصالة والابتكار فى مجال الجراحة ، كما ألقى بعضها فى المحافل الدولية منها هيئة الأمم ، وجمعية التفاهم فى أمريكا ، ومؤتمر السلام لليونسكو الذى عقد فى جنيف عام ١٩٧٤ ، وكانت له محاضرات فى كنيسة القديسين بالقاهرة . وأغلب هذه المحاضرات تدور حول بعض المبادئ الكبرى فى الاسلام ومنها النقوى والسلام والرحمة ، ناظرا الى القرآن الكريم ككتاب هداية ، وقيم وأخلاق، مستجليا التفكير الاسلامى بطريقة عصرية ترقى الى مستوى الأذهان فى كل الأمم .
- تضمنت بحوثه بحثا فى معرفة قدماء المصريين لعملية فتح القصبه الهوائية ، وفى بحث آخر أثبت فيه معرفة القدماء المصريين لرد خلع مفصل الكتف بطريقة (كوخر) ، كما نشرت له مجلة المخطوطات الصادرة عن الجامعة العربية « دراسة تحليلية لطب الرازى » وفيها اثبات لتفوق الرازى فى العلوم الاكلينيكية ، وشرح لأسلوبه فى التدوين والاستنتاج . كما نشرت له مجلة (الجمعية الطبية المصرية) (تاريخ الطب عند العرب) .

● نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عن روايته الرائعة :
(قرية ظالمة) فى عام ١٩٥٧ . كما نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم
عام ١٩٦٥ ، ومعروف أن « قرية ظالمة » ترجمت الى الانجليزية والفرنسية
والألمانية والايطالية والأسبانية . وتقتبس الاذاعة البريطانية مقتطفات منها
وتذيعها بالانجليزية فى « عيد الفصح » .

● ومن كتبه القيمة كتاب « وحدة المعرفة » حيث يتضمن نظريته التى
تجعل العلوم الطبيعية وقوانينها أساسا وتجعل القوانين البيولوجية امتدادا
لقوانين العلوم الطبيعية وتجعل الانسانيات امتدادا للقوانين البيولوجية ،
وتجعل الميتافيزيقا امتدادا للانسانيات . . كما ألف كتاب « متنوعات »
ويشمل جزئين . . الجزء الأول يحتوى على أقدم رسالة علمية فى التاريخ
وهى عبارة عن دراسات تتعلق كلها ببردية « أودين سميث » ، وقد بين
فيها الدكتور محمد كامل حسين الأخطاء التى وقع فيها الشراح المحدثون
فى تشخيص عدد الحالات المذكورة فى الرسالة ، كما استنتج أن تكون
الرسالة قد كتبت أثناء بناء الاهرام ، لما فيها من خبرة منقطعة النظر
باصابات الوقوع من ارتفاع عال ، كما قارن سيادته فى هذا الكتاب بين
الرسالة وبين مقالة « أبو قراط » عن الاصابات ، كما نوه بتفوق الطبيب
المصرى القديم ، كما شرح ما كان عند قدماء المصريين من علم بالتشريح ،
والنض ، والأمراض والعلاج . أما الجزء الثانى من كتاب « متنوعات »
فتناول نظراته فى العلوم اللغوية والآداب والفنون .

● قام بمراجعة الترجمة الانجليزية لكتاب « ابن سينا » .

● من مؤلفاته كتاب (الوادى المقدس) ، وكتاب « ذكر الحكيم »
وكتاب التحليل البيولوجى للتاريخ .

● وهو عضو فى المجمع اللغوى ، ومن رواد حركة التجديد فى اللغة
العربية ، وله دراسة عميقة تتضمن خلق نحو جديد ، وقواعد محددة
لا تتعدى ستة أسطر .

● لم يتزوج .

هو العالم ، المفكر ، الاديب « الدكتور محمد كامل حسين » الذى
يمتاز بسعة مداركه ، وبنظراته الشمولية المتكاملة لشتى صنوف المعرفة ،
وهو صاحب أنظار فى العلوم وفى الطب وفى الدين ، وفى الفلسفة ، وفى
النفس ، وفى الأدب ، وفى اللغة العربية وعلومها . . ففى كل هذه
المجالات كانت نظراته عصرية جديدة ، تواكب روح العصر ، وتكشف عن
تراثنا وما يحمله فى جوفه من أصالة وفائدة ، ومدد نحتاج اليه فى
حاضرنا .

كان أول ما صادفه فى بحوثه الغزيرة العديدة من مشاكل ، مشكلة الأسلوب . . فقد أدرك أن اللغة العربية غير قادرة على ملاحقة أفكار العصر ، ووقائعه وأحداثه ، ومن ثم ، راح يضع اللغة العربية تحت مجهر الدرس لكى يستجلى مواطن قوتها ، وأسباب تعويقها وجمودها . لقد اكتشف أن الداء يكمن فى تلك الفرقة التى تفصل بين تفكيرنا ، ولغتنا ، ولقد رأى أن ذلك لم يرجع الى صعوبة اللغة أو عدم مرونتها ، وانما كانت الصعوبة فى رأيه تتمثل فى صعوبة علوم اللغة وليست اللغة ذاتها . . فاللغة شىء ، وعلوم اللغة شىء آخر ، فكان الدكتور محمد كامل حسين من رواد الداعين الى معالجة اللغة فى ضوء علوم حديثة ، بحيث ننأى بعيدا عن علومها القديمة . فبذلك يمكن أن تستقيم اللغة وتلين للتعبير عن أفكارنا وأحاسيسنا وتصوراتنا .

ويوضح الدكتور محمد كامل حسين وجهة نظره هذه بأمثلة عديدة ساقها اليها فى كتابه : (متنوعات الجزء الثانى صفحة ١٧٥) فيقول : أن الطب الحديث لم يقيم على تبسيط نظريات الطب القديمة ، وانما تقدم الطب حين طرح ذلك كله جانبا ، وبدأ الناس علمهم من جديد . ولم يتقدم علم الفلك بتبسيط نظرية الدوائر ، أو حذف بعضها ، وانما تقدم علم الفلك حين نبذ الناس لبيدأوا علما جديدا .

وكذلك علوم اللغة ، لن تصبح مقبولة عندنا بالحذف أو التبسيط ، وانما يكون بالبحث من جديد فى المادة اللغوية وتحليلها تحليلًا جديدًا . . والواقع أن المحدثين يقفون من علوم اللغة أحد مواقف ثلاثة : اما أن يجهلوا تماما وهو نقص كبير واما أن يعرفوا منها القدر الذى يتسددون به ويسخرون منه وهو عيب ، واما أن يعلموها حق العلم وهو عنده شر المواقف الثلاثة وأشدها خطرا . . أما درسها على انها علوم قديمة فهو ما لا نقره . . ذلك أن عقلية العلوم التى نشأت فى القرون الوسطى ، عقلية لها أصل فى طبيعة الناس وخاصة فى شبابهم ، ومن الخطر على تفكير الشباب ننشأ فيهم هذه العقلية ، فذلك يحجب عنهم عقلية العلوم الحديثة التى تنكر هذه الأصول القديمة . . فالطب القديم ، والفلك والكيمياء فيها علم غزير ، ولكن مجموعة هذه العلوم لا تتفق فى كثير أو قليل من العلم الحديث . . فمثلا الكيمياء القديمة كانت منطقية تماما وهى مع ذلك ، كلها خطأ . . ألم يقولوا أن الفضة باردة يابسة فى الخارج ، حارة رطبة فى الداخل ، وأن الذهب حار رطب فى الخارج ، بارد يابس فى الداخل ، فاذا أبطن برودة الفضة ، وأخرجت حراراتها ورطوبتها صارت ذهبًا . . كل العلوم القديمة منطقية ، لكن العيب فيها أو منطقها يقوم على فروض لا أصل لها . كذلك فروض علماء اللغة تجعل اللغة منطقية ولكنها لا تكون غير صحيحة . . ويرى أستاذنا أن أكبر حدث فى تاريخ اللغة العربية كان نزول القرآن

الكريم . حتى بلغت اللغة العربية أوج مجدها وتمام نموها ، وعرفت أرفع أساليبها . ولعل اللغة العربية تكون هي اللغة الفريدة الوحيدة بين اللغات الكبرى التي لم نموها وازدهارها على هذا النحو . ويرى ناقدنا الكبير أن اللغات لا تقاس بعدد ألفاظها ، أو بصعوبة علومها وإنما يقاس غناها بما أخرج أهلها من علم وأدب وفي هذا الصدد ، يستشهد الدكتور محمد كامل حسين بقول « فولتير » الذي كان مدحه للغة العربية بما يشبه الذم حيث يقول : (أن اللغة العربية تصويرية) (ذلك لأنهم ظلوا ألف سنة يقولون عن عين المرأة كعين الظبي) ولم يفت على أستاذنا الكبير أن يرد على هذا النقد المغرض للغة فيقول : (أن الأدب الفرنسي ظل ألف سنة يدور حول امرأة تخون رجلا ، ورجل يخون امرأة) ان الدكتور محمد كامل حسين يروعه موقف المحدثين الذين لم يستطيعوا أن يفهموا روائع النتاج الأدبي العربي كنتاج الجاحظ والمعري . كذلك يشير هذا « الفقيه الكبير » الى حقيقة هامة في تاريخ اللغة العربية ، وهي أن اللغة تحولت من لغة وسيلتها الوحيدة السماع ، الى لغة وسيلتها الكبرى القراءة . فعنده أنه ينبغي أن يتبع ذلك تغير تام في طبيعة علومها . وهذا ما لم نعلم به حتى الآن . « والأستاذ الدكتور » لا يقفوا أثر الأقدمين الذين جعلوا دراسة الأدب في جوهرها دراسة لغوية مدعمة في ذلك بأمثلة نحوية . ففي رؤية أن اللغة لا نعدو أن تكون أداة تعبير عن آرائنا واحساسنا تعبيراً دقيقاً بحيث يظهر الفروق الدقيقة بين معنى وآخر واللغة فوق ذلك ، أداة للتفاهم بين الناس « كذلك نراه لا يأخذ بما يقال من أن الكلمة الفصيحة هي التي ترد في المعاجم حتى لو كانت كلمة مهجورة تنأى عن الاستعمال أو الاستحسان . وإنما يرى أنه يجب أن نوجه أقصى العناية الى تركيب الجمل ودلالاتها . وفي هذا الشأن يطالب بتكوين علم جديد خاص بذلك . علم يوضح فنية تركيب الجملة ، وكيف يؤدي تركيب بعينه الى دلالة بعينها . وهو ينظر الى اللغة على انها التعبير عن عقلية الأمة التي تتكلمها ، وان المحافظة على اللغة لا تكون الا بتعريضها للتطور الذي يجعلها أداة حية للتعبير ، لا أثراً من آثار المتاحف التي يعجب بها الناس .

رأيه في شعراء العربية القدامى

ينفرد الدكتور محمد كامل حسين برأى خاص في شعراء العربية القدامى فقد تناول شعر المتنبي وأبي نواس وأبي العلاء بالدرس والتحليل . أما المتنبي فهو يمتاز عنده بموسيقاه الفذة . لكن شعره يكاد يخلو من الصور وعلى نقيض ذلك يكون شعر أبي نواس فهو شاعر حاذق في رسم صوره وكأنه هنا فنان تشكيلى . ومما ينبغي أن نذكره

أن « أديبنا النابه » يستهجن استخدام الألفاظ الأجنبية التي ليس لها أصول عربية والشائعة في لغتنا النقدية كالرومانتيكية ، واللاسيكية والنرجسية ومن ثم ، يأخذ على الأستاذ العقاد نعته لأبي نواس بأنه نرجسى وكان أولى به أن يطلق عليه اسم أنانى بدلا من هذا الاسم الغريب على لغتنا . والدكتور محمد كامل حسين ممن يعجبون بشعر أبي العلاء المعرى ، فهو عنده أقوى رجال الأدب شخصية ، وأعمقهم تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاءً . . يقول عنه : (فى حيانه صرامة ، وفى عقيدته جد ، وفى احساسه دقة وفى آرائه جرأة ، فلا غرابة أن يكون شعره محبوبا إلينا على بعده بعدا سحيقا عن أذواقنا . . ويحسب بعض الناس أن الأديب لا يستطيع أن يرتقى بفكره إلى دراتب الكون والانسان . . وقد يظن البعض أن ذلك من شأن الفلاسفة لا الأدباء . . لكن أبا العلاء استطاع ببصيرته النافذة أن يغوص إلى أعماق أعماق الأشياء ، وأن يرتفع بشعره إلى أعلى عليين . .) لكن الدكتور محمد كامل حسين لا يقف عند هذه المزايا التي يعدها لهذا الشعر . . فهناك من مزاياه ما يفوق ذلك بكثير وهى المزايا التي تنتزع إعجابه وتقديره له وتعلقه به . . فهو يقول : (ان إعجابنا به يرجع إلى صفة يبلغ بها الأدب أرفع مراتبه وهى قوة التعبير والقوة تكون فى الصدق والدقة) ويتسم أبو العلاء بأسلوب ظريف ورشيق فى التهكم ومن أمثلته ما جاء فى رسالة الغفران قوله : (لقد حرم بعض الأدباء أن يتزوجوا من حوريات أصلهن أوز ، حتى لا يقول أهل اللجنة عنهم أزواج أوز) . . أن هذا النوع من القول نادر فى أدب أبي العلاء ، ولكنه يدل على قدرته على الأسلوب الهادى الرقيق الذى يثير الابتسام المتزن لا الضحك المغرق . . كذلك يمتاز أبو العلاء بدلالة قوية صادقة دقيقة تعبر عن نفسه أو بيئته ، أو عن النفس الانسانية كلها . . فالمعرى عند (أديبنا الكبير) يدل على نفسه دلالة قوية ولعل ذلك سرجه له وإعجابه به . . فهو من المفكرين الذين عاشوا أدبهم حتى أصبحت حياتهم وأدبهم شيئا واحدا ، وهذا نادر جدا بين أدباء العالم كله .

وهنا يقتبس « أستاذنا » ذلك التشبيه الذى ينادى به أحد النقاد المعاصرين . . فالمفكرون عنده قسمان . . قسم أشبه بالثعالب والآخر أشبه بالقنافذ . . فالثعالب عنده هم الذين يحسنون أمورا كثيرة مختلفة ، والقنافذ هم الذين يحسنون شيئا واحدا يعكفون عليه . . فالثعالب أمثال هوميروس ، وأرسطو ، وجوته وشكسبير ، أما القنافذ فهم أمثال أفلاطون ودانتى وبسكال ، وحين نطبق هذا التشبيه على أدباء العربية نجد الثعالب أمثال بشار بن برد والجاحظ والعقاد . أما القنافذ فهم أمثال أبي العلاء المعرى . . وقبل أن نترك تصورات « أديبنا الكبير » فى اللغة ، والأدب والشعر ، لا يفوتنا أن نعرض لبعض آرائه فى قضايا كتابنا المعاصرين ،

فهو يلاحظ أن « الكاتب العربى » فى عصرنا ، انما هو انسان حائر قلق . هو حائر بين القديم والحديث بين الفصحى والعامية ، بين الأدب الواقعى، والرمزى والوجودى والمكتشف بين مجد قديم ثابت وبين حركة تجديد أدبية وفكرية لا يكاد يلحق بها ومن ثم ، يوصى أديبنا العبقرى الكاتب المعاصر بأن يعنى بأمرين هما الموضوع والأسلوب . أما الموضوع فيجب أن يستمد من حياته وخبرته . فعليه اذا أراد أن يكون صادقا الا يصف وقائع لم يشهد لها شبيها فى تجاربه فى الحياة « ففى رأى » أستاذنا أن أروع شئ فى الكتابة الأدبية هو صدق العواطف ودقة تحليلها . أما الأسلوب فله شقان : شق يرجع الى طبيعة الكاتب وشخصيته، وشق يرجع الى مواعته للموضوع . فعنده أن الأسلوب انما هو صورة من صور النفس ، فالكاتب العنيف يخفق ان أراد أن يكون أسلوبه هادئا . والتفكير العميق لا يحسن أن يكون أسلوب أدواته رشيقا رقيقا . وخير وسيلة يكون بها الأسلوب مهذبا ، أن يروض الكاتب نفسه على أن يكون مهذبا . اما مواعمة الأسلوب للموضوع فلا يكفى فيه ما يقال عن مطابقة اللفظ للمعنى، فقد يكون أوفق للفكرة الرائعة أن يكون أسلوبها متواضعا حتى لا يطغى على جمال الفكرة فيذهب بروائها . والمصورون أدرى الناس بمثل هذه الأمور .

وليحذر الكاتب التهاون فيما يكتب صغيرا كان أم كبيرا . والمواهب وحدها لا تكفى . وعلى الكاتب الا يكتب حتى تسيطر عليه فكرة غالبية، وحتى يحس أنه لن يهدأ له بال حتى يخرجها للناس . وعلى هذا ، ينبغي على الكاتب أن يكون صادق الشعور ، صادق التفكير ، صادق التعبير . ولم يكن الدكتور محمد كامل حسين ناقدًا حاذقًا ، وفقها لغويا فحسب، وانما هو أيضا يعرف الابداع الأدبى ، فقد أبدع روايته الرائعة (قرية ظلمة) فى بداية الخمسينات، ونال عليها جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٥٧ وقد نفذت الطبعة الأولى والثانية والثالثة وطبعت طبعة رابعة . ولا يسعنا الا أن نعرض لهذا العمل الروائى الفذ بالتحليل والتقييم .

رواية قرية ظلمة

تبدأ الرواية بكشف ما حدث لأهالى اورشليم ، وهم من بني اسرائيل وقد طلبوا من حكامهم الرومان ، صلب المسيح ، ليقضوا على دعوته، وكانت دعوته أن يحتكم الناس الى ضمائرهم فى كل ما يصدر عنهم من أفعال . فى ذلك اليوم أرادوا أن يقتلوا ضميرهم فكان فى ذلك نكبة الانسانية الكبرى وخرجت فتاة فقيرة صغيرة ، رثة الثياب ، تسوق قطيعا من الغنم، ومازالت تسير على غير هدى حتى بلغت جبل « كالفارى » ، أى جبل

الجمجمة .. وأجهد الفتاة أن تجرى وراء كل شاردة من أغنامها لتردها إليها .. أما أصحاب الرأي فى المدينة فقد أرهقهم ما قضوا فيه ليلتهم من نقاش حول هذا الرجل الذى جاءهم بدين جديد .. لقد خيف من دعوته على دينهم ونظامهم .. كانوا قد حكموا عليه بالصلب ، وتواعدوا فى دار ندوهم يوم الجمعة ليبلغوا حكمهم الرومان مآقر عليهم رأيهم فى شأن النبی الجديد . وكان رجل الاتهام شاب من بنى اسرائيل وكانت امرأته أجمل فتاة فى اورشليم ، وقد أخبرته بأن اليوم عيد مولدها .. لكنه الآن يخبرها بما يشغله ويعكر عليه صفوه وهو انهم يطالبون بدم رجل قامت عليه قيامة الناس ومن ثم كان لابد من حسم أمره اليوم .. وتسأله ما ارتكب من جريرة ؟ فيعترف لها بما ألصق به من تضليل الناس والتمرد على تعاليم التوراه ، فهو يقول ان الله هو الحب وهو يدعو الى حب أعدائنا ..

وانتهينا بأننا حكمنا عليه بالصلب .. وكان فخورا ببلاغته وقوة بيانه وحجته وحرصه على الايمان والوطن وتعاليم التوراة فتسأله زوجته: ألا يزال النجاح معبودكم الأكبر ؟ .. انه يفترسكم ويقضى على فضائلكم كلها .. أتقتلون رجلا لأنه يقول ان الله هو الحب .. وقالت غاضبة : انها كلمة لا يقولها مجرم .. ان حب المرأة هو الخطوة الاولى الى حب الله .. وتستطرد قائلة : ان البرود العقلى ليس غاية الكمال .. كان قلبك يخفق لأشياء ، غير العقل والحكمة .. أترى ذلك راجعا الى ما وفقت اليه من نجاح ؟ فيجيب على تساؤلها - ان قمم الجبال العالية مغطاة دائما بالثلج وترد عليه مؤكدة له بأنها تفضل أسفل الوادى حيث يكون الدفء ، وله أن يرقى وحده الى حيث تكون الثلوج .. لقد أزعجه أن يدب بينهما شقاق ، وهو على حبها حريص أشد الحرص .. لكنها عادت تقول انها تقدر واجبه وتعفيه اليوم من التفكير فى عيد مولدها .. وفرح بكلماتها الأخيرة وأدرك حسن تقديرها .. وخرج من بيته ولكنه كان أقل ثقة بنفسه، ولم يعد مطمئنا الى ما كان يراه بالأمس من أنه قام بواجبه ونصر الدين والوطن والأخلاق .. ولم يعد يؤمن انه كان فى جانب الحق .. لقد أخذ طريقه الى دار الندوة ، وساوره الشك فى اتهام رجل ضعيف لم يقترب اثما .

دكان حداد :

صادف فى طريقه دكان حداد فقير قذر .. فلم يعبا بالوقوف عنده، لولا أنه رأى أمام الدكان رجلا من التجار يمطر الحداد وابلا من الشتائم صارخا فى وجهه : أين الحديد وأين المسامير الأربعة الكبار التى أوصيتك أن تصنعها ، وهدده بأنه يعرف حدادا آخر سوف يصدق عليه من المال ..

وأراد الحداد أن يستعين عليه برجل ذى لحية طويلة كان قد جلس بباب الدكان وكان يحمل مفتاحا كبيرا وأحس التاجر حين شاهده بأنه من أكبر أتباع النبی الجديد . وأنه هو الذى منع الحداد أن يصنع ما طلبه منه . فلم يسع التاجر الا أن يبرد وزره الشنيع قائلا : « ان كان هذا النبی الجديد كاذبا . فمونه حلال ، وان كان صادقا وقتله ظلما فاعلموا انى حسبت لذلك حسابا طويلا ، فهب قتله جريمة يعاقب عليها الله ، فنحن فى منجاة من هذا العقاب . بل سأرسله الى الرومان مع طفل ساذج . . . ونكن الشيخ ذو اللحية منعه من ذلك ، الأمر الذى جعل التاجر يبتعد عنهما على الفور . وسمع رجل الاتهام هذه المناقشة ، وتذكر مناقشة زوجته له . فاختلط عليه الخير بالشر . كان يريد أن يهتدى الى الصواب . أصلب هذا الرجل اليوم حق أم باطل ؟ وازداد كآبة وحزنا وعرج وهو فى طريقه الى الندوة الى بيت صديق له . وأخبره بحيرته فى هذه القضية . فنصحه بقوله حاسب ضميرك وحده ، ثم اخلص لهذا الضمير . وليس عليك ان تعلم هل سيرى الناس عملك حقا بعد مئات من السنين . ويجب عليه بأنه يود لو يستطيع انقاذ هذا النبی . فهو يريد الا يذهب الى دار الندوة اليوم حتى لا يحمل الوزر كله .

المفتى :

كان فى اورشليم عالم فقيه تقى ، وكان يتولى افتاء بنى اسرائيل فى امور دينهم ، وهم قوم فى حاجة دائما الى الفتيا ، وكان له ابن من أذكى الناس يصحبه دائما الى الندوات دائما ، يستمع ويتعلم ، وكان يعد نفسه لأن يلى الافتاء من بعد أبيه ويحكى الابن لأبيه كيف استمع بالامس الى حديث رجل الاتهام عن صاحب الدعوة الجديدة ، وكيف أعجب ببلاغته وبيانه . وسأل الابن والده هذا السؤال : ما سبيل الناس الى الصواب ؟ فأجاب عليه الوالد (المفتى) بأنه يجب أن يكون حكمنا على أية قضية لا يتعدى حدود الضمير ، وليس فينا من يرضى ضميره عن صلب هذا الرجل وسعر المفتى بتأنيب ضميره قائلا : « انى لا اريد أن تبقى فتاوى على الزمان سببا فى صلب رجل لا أعلم عنه شرا .

لا زار :

كانت معجزة المسيح ، احياء رجل اسمه (لازار) فى اورشليم بعد وفاته . فأمن بالمعجزة قليلون ، وأنكرها كثيرون . كانت أخته قد لجأت الى المسيح لكى يبعثه من أجلها . اذ لم يكن لها فى الحياة غيره ، وكانت تؤمن بالمسيح فاستجاب لإيمانها وعادت الحياة الى أخيها ، الا أنه صار بعد ذلك ، صاحب اللون ، غائر العينين ، قليل الكلام ، شارد الفكر ،

كان لا يفرح ولا يحزن ، ولا يضحك ولا يبكي ٠٠ وكان شديد الاضطراب دائم الخوف ٠٠ كان أتباع النبي يتخذونه آية من آيات الله ، أما بقية الناس فكانوا يعدونه أتعس أهل أورشليم ٠٠ وبينما لازار يسير مبكرا فى ذلك اليوم اذ رآه بعض الأطفال فأخذوا يرشقونه بالحجارة، ويسخرون منه ، ويؤذونه ، فلاذ بدكان « حداد » فقير قريبا منه ، حيث كان مشغولا بمهمة كلفه بها تاجر أراد أن يوقد النار ، وأن يعمل له أشياء لابد من صنعها اليوم وأغلق عليه العطاء ٠٠ فما أن رأى (لازار) حتى صرخ فى وجهه أن يبتعد عنه فهو مجلب للشؤم ٠٠ ولوح له بمطرقته واضطربت يده فأفلتت المطرقة ووقعت فى الكور فتطايرت قطع من النار أصابت احداها التاجر فى عينيه فزاد من شدة الألم ٠٠ وحينئذ جن جنون الحداد فاندفع صوب التاجر ليرى ما حدث له ، فوقع على الأرض ودخل أحد المسامير فى يده فخرج من ظهرها وعلا الصياح واستند الهرج ، فهرب « لازار » وقرر أن يترك المدينة وأن يهاجر الى بلاد نائية . يبشر فيها بالدين الجديد .

قيافا :

تولى قيافا مقاليد بنى اسرائيل ، وفرح الناس أن سيحكمهم رجل عالم ، عادل ، طيب ، فاطمأنوا لحكمه ، وأحسوا بأن عهدا جديدا فى تاريخ قومهم قد بدأ . كان لا يؤمن بالقوة ، واستطاع أن يقف من الرومان موقفا وسطا بين الشدة واللين ٠٠ ومما أعجبه من النبي الجديد سياسته ازاء الرومان وقوله : « أعطوا ما لقيصر وما لله الله » وكان معجبا بملكة السماء ذلك أن « قيافا » ظل طول حياته يبحث عن حل حاسم لمشكلة خلقية لم يعثر على حل لها وهى البحث عن جزاء للفضائل السلبية ، والفضائل المستترة ٠٠ ان الفضائل الايجابية كالشجاعة ، والكرم ، وعمل الخير ، جزاؤها هو تقدير الناس واحترامهم ، وحبهم ، أما الفضائل المستترة كالصبر والاقلاع عن عمل الشر والعطف على الضعيف والبر على الفقير والأمانة فليس لها جزاء واضح ، والفضائل المستترة كالتواضع واحتمال الأذى ونبد الشر وهى أقسى على النفس وأصعب احتمالا من الفضائل الايجابية البراقة البرائة ٠٠ وأخيرا اهتدى الى حل فرح به ، وهو أن طبيعة الانسان كل لا يتجزأ ، فهى وحدة متماسكة ٠٠ لقد وجد النبي يضع حلا لهذه المشكلة ، ذلك أنه خلق لهم مملكة السماء جزاء على هذه الفضائل السلبية والمستترة ٠٠ لكنه كان يعتقد أن النبي الجديد لن يوفق فى اصلاح حال الناس ٠٠ انه يضع الضمير فوق التدين ، لكن أهل التدين سيقضون عليه قبل أن ينقذه أهل الضمير ٠٠ ويريد أن يضع الانسانية فوق الوطنية والقومية ، لكن أهل الوطنية سيقضون

عليه قبل أن تنقذه الانسانية ويشير قيافا الى قول أتباع النبي الجديد عن كونه ليا . . لكن أليس أخفاقه عجزا ومتى كان العجز من صفات الربوبية . . لكن اسرائيل تألبت عليه كلها ، وطالبت بدم النبي الجديد . عندئذ رأى « قيافا » أن يقبل ما رأوه بالأمس وهو أن يحكموا عليه بالصلب . . قال قيافا لنفسه : (أنى أن قاومتهم خلصونى ولا يكون انقاذه وان خضعت لاجماعهم نفذوا أمرهم فيه . . وفي كلتا الحالتين لن أستطيع أن أنقذه أليس هو صاحب معجزات . . فليحدث ما يحدث ، فان كان الله أراد أن يقتل فما أنا بمنقذه .

دار الندوة :

دخل قيافا مكان الندوة حزينا مكتئبا ، وزاد اكتئابه حين سمع الناس يصيحون : أقتلوه ، أصلبوه ، أحرقوه ، انه ساحر خطير . وجال بعينه فرأى رجل الاتهام فنارت ثائرته وراح يقول : (اذا قام هذا الشاب ليقول مثل قوله بالأمس ، تصديت له وحملت عليه وفندت حججه . وسفّهت رأيه وليكن ما يكون) . . لكن هذا الشاب شارد الفكر . يتردد فى أن يهم بالكلام كان أول المتكلمين شيخ حطّمته السنون ، وأخذ يقول بأنه سيلقى الله بعد قليل ولا يحب أن يلقاه كاذبا . . فهو لا ينكر المنل العليا التى يدعو اليها النبي - الجديد ، ولكنه يأخذ عليه أنه جعلها جزءا لا ينفك عن الدين ، وهو يريد أن يحمل الناس عليها بقوة التنزيل ان دعوته ليست كفرا .

ثم وقف المفتى ليصحح خطأ وقع فيه فى تفسير معجزات النبي ، فهو لم يقل بكذبها ، وأردف قائلا : (انظروا الى المعجزات التى قام بها صاحب الدعوة الجديدة . . فمن معجزاته انه أطعم الناس وهم آلاف ببضعة أرغفة ، وأنه أحال الماء نبيذا وأنه أحيا ميتا ، وأبرأ مرضى كثيرين . . كل ما حدث أنه أطعم قوما مؤمنين طعاما قليلا قنعوا به ، وكذلك قصة النبيذ ، فانه سقى الناس ماء فأحسوا منه طعم النبيذ ، وأثّره ، فالمعجزة فى هذا الحادث قوة تأثيره فيهم وشدة ايمانهم به . ثم أنه أحيا ميتا ، وليس فى ذلك خرق لسنة الكون . . فهو لم يدع أحياء « لازار » الى الأبد . ولم يحى الموتى كلهم . . أما ابرأوه المرضى فبركة ونعمة ، ولا يمكن أن نطعن عليه من أجله . . أن المعجزة لا تكون كذبا الا اذا نقضت قانونا طبيعيا . . أما اذا كانت المعجزة تتعلق بأمور نفسية يؤثر فيها الايمان والعقيدة ، فلا محل للطعن فيها . . ان معجزات هذا الرجل كلها خير الانسان ، ولم نعلم عنه أنه آذى بها أحدا من قومنا . . وما أن توقف « المفتى » عن الكلام حتى علت الأصوات خارج الندوة تنادى بقتل

الرجل وأتباعه ، حتى أنهم اقتحموا دار الندوة وهم يصيحون : أقتلوهم ، أحرقوهم جميعا ، لا بد من قتله وقتلهم معه ٠٠ ثم اندفعت الجماهير الى دار الحاكم الرومانى تطلب بدم هذا الرجل وأتباعه ٠٠ وهكذا تمت أكبر جرائم التاريخ ٠٠ جريمة الحكم على المسيح بالصلب ٠٠ لقد حكم على المسيح بالصلب بدعوى كفره بالله ، فهل يبقى بعد ذلك لأحد ثقة فى حكمة الانسان !!؟ ولم ينقض من اثم الانسان شيئا أن رفعة الله اليه .

فى ضوء ما سبق ، يتضح لنا كيف أصر غوغاء اسرائيل على قتل المسيح ، رغم تراجع قادتهم وزعمائهم وحكامهم ، فقد رأينا كيف كان ممثل الاتهام يعتصر ألما وحزنا على مشاركته فى هذا التآميم ، ورأينا كيف قال المفتى لأبنه من انه لا يرضى ضميره عن صلب هذا النبى الجديد ، وكيف كان قيافا الحاكم الفيلسوف ساخطا على قومه . متنبئا بهذه الحفيقة المؤسسية ٠٠ ذلك لأن المسيح وضع الانسانية فوق التدين والوطنية والقومية ٠٠ لكن ضمير عامة الاسرائيليين كان من الشعف ما أحلوا دم المسيح فكانت خطيئتهم الكبرى التى سجلها التاريخ ، وفى كتاب آخر ، يبحث الدكتور محمد كامل حسين عن طبيعة النفس المطمئنة ٠٠ فليس بالمال والبنين ، وليس بالجاه والمجد والنجاح يحيا الانسان سعيدا ٠٠ وليست السعادة فى تحقيق أهدافنا وغاياتنا ٠٠ ان شقاء الانسان انما يعزى الى قلقه وحيرته واضطرابه ومن ثم ، ينبغى أن نستبطن النفس وننظر نظرة داخلية اليها ٠٠ ينبغى أن نتعرف عليها حتى نستطيع أن نتعرف على رؤيتنا للأشياء ، فنحن لا نعرف حقيقة عالمنا الا اذا عرفنا حقيقة أنفسنا ٠٠ ولعل سقراط كان محقا بقوله (اعرف نفسك) فحينئذ يتحقق فهمنا للحياة ٠٠ لكن كيف السبيل الى ذلك ؟

ان كتاب (الوادى المقدس) يجيب عن هذا السؤال فى ثانيا صفحاته .

ان كتاب (الوادى المقدس) وهو من تأليف الدكتور محمد كامل حسين انما هو رحلة الى أغوار النفس الانسانية حيث يكشف عن أسرارها ودوافعها وخفاياها ٠٠ فهو يحدثنا عن كل الوسائل التى نتوسل بها حين نريد أن نهتدى الى سواء السبيل وحين نريد ان ننسلخ عن الأدراة والشهوات الحسية حتى تشف رؤيتنا ونصفو نفوسنا ٠٠ ومن أجل هذا ، نجد « مؤلفنا الكبير » يحدثنا فى كتابه عن التطهر والهدى ، والضلال والأديان ، والحقائق الأبدية والحرمان ، والضباب ٠٠ ويقصد « الدكتور المؤلف » بالوادى المقدس ، ذلك المكان الذى كلم الله فيه الرسول موسى انه بقعة من أرض سيناء حيث شاهد موسى ربه . فامتثل خاشعا ليكلمه تعالى . وموسى رسول الله يخلو قلبه من كل حقد أو غل ، فقد اهتدى

الى الحكمة والتفكير المستقيم .. كان يمتاز بأن طبيعة جسمه وعقله ونفسه
توافق نوافق موسيقيا .. فعنده أن السعادة الانسانية لا تكتمل الا على
هذا النحو .. فيؤمن بأمر ثابتة في النفس أصولها الايمان والخير
والحكمة . ومبادئها الحب والعلم .. ولقد كان ينظر الى « الوادى المقدس »
على أنه المأوى الذى يقيه عواصف الشر .. وعنده أن الويل للمرء اذا
كانت حياته خلوا من الايمان أو الخير أو الحب أو الحكمة .. وليس النجاح
فى هذه الدنيا مانعا من التطهير وليس التطهير عائقا للنجاح .. ان الطهر
انما هو السبيل الى حياة جميلة طيبة .. وان الحياة الصادقة تقوم على
السلم ، والسلم ينبغى - بادىء ذى بدء - ان يكون بينك وبين نفسك
ويحققه الايمان . وينبغى ان يكون بينك وبين الآخرين ويحققه الحب .
وينبغى ان يكون بينك وبين العالمين ويحققه الخير .. ينبغى على الانسان
الا يؤذى الناس فهذا العدوان أشبه بعمل الدواب منه بعمل الانسان
الرهيف الحس .

أما التطهير عند « استاذنا » فهو ارتفاع النفس عن الطباع الحيوانية
البحثة .. فلم يعرف الناس فى تاريخهم الطويل شيئا أقوى من الدين ،
فى تطهير النفوس ، والدين هو استقطاب النفس للخير المطلق وهو الله
.. ويرى استاذنا أن البشرية فى أول أمرها تكون غفلا غير ذات لون
خاص ، ثم تدب فيها روح الاستهداء ، وبذلك تصبح نفسا حتى اذا اهتدت
فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا ومن ثم ، فأكثر الناس طيبون بطبعهم ،
يرتاحون الى عمل الخير ، ويستشعرون سرورا عميقا حين يتاح لهم أن
يعملوا صالحا .. ويدل على الخير الكامن فى النفوس ان يندم الناس على
ما يعملون من شر ، على انهم يندمون كثيرا على شر ارتكبوه كان لامفر منه ،
وقد يفرحون به وقتا قصيرا ثم يذهب النفع ولا يبقى الا الندم . وتحت
عنوان الهدى والضلال يقول « استاذنا » ان الهدى هو ، أن يظل الانسان
فى صراط المستقيم وهو الخط الذى يصل بينه وبين الله رأسا دون
اعوجاج .. أن الهدى أوله النفس التى اهتدت الى الخير . وآخره بلوغ
الانسان الى الوادى المقدس .. أما الضلال فهو حيرة النفس بين أمور
شتى . فلا تعرف ما نهتدى اليه وقد يوقعها الى الشرك بالله، وآخر الضلال
هو الكفر فى أبشع مظاهره .

أن أنواع النفس عند الدكتور محمد كامل حسين أربعة : فهى اما
أن يكون أصل طبيعتها الهدوء التام ، أو الكبح الهادئ أو الاندفاع المتزن ،
أو الاندفاع العنيف .. والذين من طبيعتهم الهدوء التام لا يضطربون
للأحداث الطارئة . وليس من صفاتهم الملل .. هؤلاء تغلب عليهم الحكمة
وسداد الرأى ودماثة الخلق وحسن الجوار .. والذين من طبيعتهم الكبح

الهاديء هم الذين يشعرون بالرغبة فى الاندفاع ، لكنهم يخشون من هذا الاندفاع أن يؤدى بهم الى الخطأ . أو الخطيئة . . . والذين من طبعهم الاندفاع المتزن هم الذين يحبون أن يعملوا ، وأن تكون حياتهم مملوءة بما ينير الرضا فى نفوسهم والاعجاب .

وينتقل الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين الى نقلة أخرى فيحدثنا عن الدين ، والجمال والعلم . . . فالدين يهدى الانسان الى سواء السبيل والجمال يرضيه ، وليس من شأنه أن يهدى الانسان . . . أما العلم فهو يعلم الانسان وليس من شأنه أن يهديه ولا يعنيه أن يرضيه . وفى كتاب « الوادى المقدس » موضوع آخر يحدثنا فيه الأستاذ المؤلف وهو الحقائق الأبدية . . . فيشير الى حقائق الطبيعة قائلا فللنظر الى تعاقب الليل والنهار . . . لقد عرفها الناس منذ الأزل ، وهى ثابتة ولا جدال فيها ، باقية أبد الآبدين . . . ومازال الناس ينظمون حياتهم على أساس هذا التعاقب . . . يتحدثون عن طلوع الشمس وغروبها . . . وتعلقت وظائف أجسامهم ، بل تعلقت حياة النبات والحيوان بظلام الليل ونور النهار . . . وعلم الناس أن الأرض هى التى تدور ، وأن الشمس لا تطلع ولا تغرب ، وأن القمر لا نور له وأن النجوم لا تتغير مواقعها . . . وظل الناس يطربون لنور القمر علما بأنه جسم مظلم تنعكس عليه أشعة الشمس) . . . وقديما آمن الناس أن أمور الغيب والدين والأخلاق من الحقائق الأبدية السماوية العليا التى نزلت من السماء . . . ومن الحقائق اليقينية أن الله غاية الهدى وأنه تعالى أصل الهدى يقول المسلم فى صلاته « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . . . آمين » . . . والمسلم يعبر فى هذا الدعاء عن انه يؤمن بأن الله ينعم على الناس فيهديهم صراطا مستقيما . . . يكون لهم فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة .

كذلك يحدثنا الدكتور محمد كامل حسين فى هذا الكتاب عن موضوع قلما تناوله المفكرون بالبحث والدرس . . . أنه موضوع الحرمان ويقرر « المؤلف » بأنه لا يقصد بالحرمان معناه المألوف ، وإنما أراد به مدلولاً محدداً تحديداً علمياً دقيقاً . . . صحيح أن الأطباء اكتشفوا أمراضاً خاصة يصاب بها الانسان ترجع الى حرمان جسمه من عناصر هامة كالبود، والفيتامينات والهرمونات . . . وقد اتفق الأطباء على تسمية هذه الأمراض بأمراض الحرمان . . . والحق أن علماء النفس لم يفتنوا فى تعديل الأمراض النفسية لقوة الحرمان . . . فقد رأى « فرويد » أن سبب اضطراب النفس إنما يرجع الى الكبت الجنسي ، ورأى غيره انها ترجع الى عوامل أخرى ومن المؤرخين من يرجعها الى مكافحة الطبيعة ، والبحث عن المأوى والزاد ، وبعضهم يرجعها الى ضغط العوامل الاقتصادية أما الدكتور محمد كامل

حسين فعنده أن الحرمان انما هو لغة النقص . . أن النقص العام لا يعد حرمانا بل يجب أن يكون النقص فى مادة من المواد التى تسمى مواد الحرمان . . فنقص الغذاء عامة لا يعد حرمان . . وقد يكون الغذاء قليلا ولكنه اذا استكمل عناصره . لم ينشأ عنه مرض من أمراض الحرمان . . وفى رأيه أن مواد الحرمان يجب أن تكون نادرة ، وأن أثر الحرمان يجب أن يكون عاما . فلو أن الانسان فقد سمعه أو قدمه أو أصيب بمرض فى عضو من أعضائه فيفقد عمله فلا يعد ذلك حرمانا . . وانما الحرمان يكون من مادة لها أثرها فى النشاط الجسمى كله . . ويلاحظ أن أمراض الحرمان كلها تؤدى الى الضعف وفقد النشاط . . والناس يعلمون أن السعادة لا تتحقق لهم ببلوغ الغايات التى يسعون اليها فمن الناس من أوتى كل ما تصبو اليه نفسه وهو مع ذلك أبعد الناس عن السعادة . . ومن الناس من أوتوا أكبر حظ من الثراء دون أن يوفقوا الى الاطمئنان النفسى ثم يعرض « الدكتور المؤلف » للعوامل الهرمونية فى الحياة الداخلية للانسان وأول هذه العوامل الهرمونية التى لابد منها للصحة النفسية هو الحب . . الحب بأوسع معانيه يقول الدكتور محمد كامل حسين فى هذا الصدد : (أن الرجل الذى يحرم هذه العاطفة رجل مريض . . يصطبغ شخصيته بنوع من النشوية) وفى رأى « أستاذنا » أن خير الحب ما كان مخلصا لهدف واحد . وان أسرفه أقواه ، لا أكره . وأن المسرفين فيه ، وكبار المحبين ليسوا أصح نفسا من الذين لم يصيبوا منه الا القدر الكافى . ويشير « الأستاذ الدكتور » الى أن الطبيعة استطاعت أن تربط بين الحب وبين العاطفة الجنسية وهى أقوى الرغبات اطلاقا . . ومن أكبر الخطأ أن نحسب الحب الجنىسى عند الانسان شبيها به عند الحيوان . . فهو عند الانسان وسيلة لبلوغ شئ هام جدا ، خاص بأرقى مظاهر الانسانية وهو الحب ، ومع ذلك ، فالحب الجنىسى وحده ، لا يكفى الانسانية الى اكتمل نموها ، وأن ما يسمونه (الارنفاع) لا يكون لنقص أصاب العاطفة الجنسية ، وانما هو استكمال لها حين لا تكفى وحدها فى نهضة القدر الكافى من الحب العاطفى الراقى . فالجنس ليس غاية الغايات عند الانسان ، والذين يستطيعون أن يبلغوا من عاطفة الحب مبلغا يكفيهم لصحة نفوسهم دون حاجة الى الجنس الآخر هم المتصوفون والفلاسفة والفنانون . . والعامل الهرماني الثانى للصحة النفسية عند « مؤلفنا » هو الشعور الفنى بأوسع معانيه . . المحرومون منه معذبون ، والرجل الذى لا يوفق فى حياته الى أداء شئ جميل لا يمكن أن يكون سعيدا . فالناس يختلفون فى ذلك فمنهم من تعجبه الموسيقى أو التصوير أو الطبيعة أو الزهور . . ومن أكبر العوامل الهرمونية هو الايمان . . فكل انسان طبعى لابد له أن يؤمن بشئ ، يستوى فى ذلك البدائيون الذين يؤمنون بأسخف الخرافات ،

والعلماء الذين يؤمنون بالقوانين الطبيعية .. ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن حرية الفكر تعد أول عامل حرمانى فى حياة الأمة .. والحرية الفكرية هى الأمر الذى اذا حرمه الناس شل نشاطهم ، وتبلد ذهنهم مهما يكن الانتاج المادى أو القوى التى يبلغونها ، ويكفى الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار الذين يتمتعون بحرية كاملة .. وأخيرا يعرض « أستاذنا » فى كتاب (الوادى المقدس) لموضوع بعنوان (الضباب) وهو الذى يكتنف حياة الانسان من كل جانب .. صحيح أن له عقل يضئ ما حوله الى مدى مختلف باختلاف توره ، ولكنه نور محدود على أى حال والانسان يمتاز بالذكاء لكن لا يعرف بذكائه المستقبل . ان الذكاء عند الدكتور محمد كامل حسين ميدانه العلم وموضوعه العلاقات بين الأشياء مستقلة عن الانسان .. ورغم أن الانسان فى مقدوره أن يقيس سرعة الضوء ، ويعرف خواص الذرة ، ويدرس قوانين الوراثة ، الا انه ليس فى مقدوره أن يدرك على ما يصلح لك فى مستقبلك القريب أو البعيد ، لأن فى ذلك كله أمورا مجهولة لا يعرف كيف يكشف عنها ، ولا يعرف كيف يحسبها حسابا صحيحا .. ولكن هل للناس أن يثقوا بالعقل ؟ ويتساءل الدكتور المؤلف : أليس من واجبهم أن يعرفوا حدوده ومواطن قوته وضعفه ، وأن يتبينوا مصادر أخطائه فيتجنبوها .. ويستطرد قائلا « لقد خدع الانسان عن قوة عقله ، فهو لا يرى من الماضى الا أقربيه اليه ، ولا يتبين من أسبابه الا أبسطها .. ليس للانسان أن يقدر المستقبل البعيد أو يبني أعماله على هذا التقدير .. وسوف تظل حياة الانسان ، مهما يكن حذرا حكيما عاقلا ، سلسلة من القرارات يتخذها وهو فى حيرة من أمرها ، أصواب هى أم خطأ ؟ » وأخيرا يرى « المفكر الكبير أن الحياة الصحيحة الحالية من الضباب انما هى حياة النفس المشرقة الجميلة التى لا تسبب حيرة ولا ارهاقا .. انها حياة الوادى المقدس .

كتاب ذكر الحكيم :

يؤمن المسلمون العرب أن القرآن الكريم انما هو كتاب بلاغة وبيان، وان بلاغته فاقت لسان العرب وفصاحتهم . ومن ثم ، كان القرآن الكريم انما هو معجزة سيدنا محمد رسول الله التى أنزلها تعالى على الأمة العربية .. لكن القرآن الكريم لم يكن كتاب بلاغة وبيان عند الدكتور محمد كامل حسين فحسب ، وانما هو أيضا كتاب حكمة وأخلاق ومثل عليا ليهتدى المسلم فى كل مكان فى حياته ، ويهديه الى الرشده .. ان (الأستاذ المؤلف) يرى أن المسلمين اليوم فى أشد الحاجة الى من يفسر لهم القرآن تفسيراً دينياً خلقياً عصرياً .. فقد أراد أن يقدم للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث ما يقرب القرآن من أفهامهم ، وأراد شرحاً جديداً يفهمون به القرآن من حيث هو كتاب منزل غرضه الهداية والوعظ،

ومن حيث هو أصل العقيدة الاسلامية ، وما هي خصائص النفس المسلمة . . . وعنده أن الأمم الاسلامية اليوم في حاجة الى ايضاح ما في دينهم من السمو الخلقى البالغ على النحو الذى يقنع المحدثين . . . ومن المؤكد أن الاسلام في هذا العصر يحتاج الى أن يعرف العالم عنه الشيء الكثير وذلك بأسلوب المفكرين المعاصرين . . . أن معجزة القرآن تتمثل فيما حققه من نجاح فى اخراج الأمة العربية فى سنوات قليلة من وثنية بدائية الى أسمى الايمان . . . لقد نقلهم من هذه الوثنية الى أرقى مراتب التنزيه . وهو أمر يحتاج الى سمو فى الفكر ، وعلو فى النفس لم يكن للعرب أن يبلغوه من دون القرآن الكريم .

ويعرض الأستاذ المؤلف لثلاثة أساليب لفهم القرآن الكريم : التأويل ، والتأمل ، والتدبر . . . فالتأويل هو ما جرى عليه المفسرون من شرح الآيات ، وبيان معانيها ، وما يتعلق بذلك من أسباب النزول . . . وأوجه الدقة فى الآيات بيانا واعجازا أما التأمل : فهو بيان مغزى التنزيل وحكمة اختيار الأحداث التى وردت فى آياته مما يكون فيه من مواعظ وعبر واهتداء وميدانه استخلاص ما تحتوى عليه الآيات ، والقصص من هداية المتأملين فيها . . . وهناك التدبر وهو بيان أثر التأمل فى نفس كل انسان . . . ويعرض « الأستاذ المؤلف » لبعض القصص القرآنية على نحو الأساليب الثلاثة . . . منها قصة آدم وهى تمثل عاقبة العصيان ، وما يجره على الناس فيحرمهم الخير . . . وكذلك التوبة وحددها . . . فهى قصة رمزية وفيها شرح لطبيعة الانسان ومصدر شروعه ، وما أدى اليه عصيانه ، وكل ما فى الصفات البشرية من مزايا وسوءات قال تعالى : « واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » . . . ان بقية المخلوقات الأخرى كالملائكة والحيوان والنبات والجماد لم تخرج عن أوامر الله لكن الله أراد أن يجعل مخلوقا يختلف عن الآخرين ، فخرج عن ارادته وعصى أن يسجد لآدم . . . لقد أعطى الله الانسان الارادة والعقل حتى يكون قادرا على الاختيار ، وجعل له الحرية فى اختيار الطاعة أو العصيان . . . هنالك بدأ له انشر جذابا مغريا . . . أغراه بالعصيان . . . فعصى آدم ربه . . . ولم يكن ذلك الا جزءا من حكمة الله . . . وكان عصيانه واضحا صريحا « فلم يكن هناك مناص من أن يحمله الله مغبة عصيانه بحرمانه نعيم الجنة الى حين . . . ووجد آدم أن عليه عبء اختيار الخير والشر ، وكان عليه أن ينبس بعقله وهداية الله ما هو صلاح له ، وما هو محرم . . . لقد جعل الله الانسان ذا ارادة ، وجعل للشر عليه سلطانا ، وجعل للناس عبء مقارمتهم له . . . أما قصة قابيل وهابيل فتمثل بلوغ الشر غايته بقتل الاخ أخاه . . . وفى رأى أستاذنا أن هذه القصة أبلغ تعبير عما يغرى النفس حين يتحكم فيها الحقد والغيرة . . . وتأتى قصة نوح لتكون تبيانا لأمر الرجل

البعيد النظر الذى يدعو قومه أن يعدوا عدتهم لما قد يقع لهم من مكروه، فتأخذهم العزة ، ويعصون أمره ، فيأتيتهم العذاب فجأة حيث لا نجاة منه ٠٠ اما ابراهيم ففیه تتمثل غاية الطاعة ، وهو خير مثال لحياة الذين يتعرضون للأذى فى سبيل الدعوة الى الحق ٠ وهناك قصص أخرى للأنبياء أصحاب الشرائع التى تتضمن ما تهتدى به النفس الى سواء السبيل ٠٠ ويحدثنا كتاب ذكر الحكيم عن بنى اسرائيل فيقول (أستاذنا) فى صفحة ٧٤ : (انهم كانوا يتعالون على العرب فى الجاهلية ، يفخرون عليهم أن عندهم كتابا انزله الله عليهم ، يهديهم الى الحق ٠٠ وكان مظهر هذا التعالى انهم كانوا يعتقدون أنهم وحدهم عرفوا الله ، والدين والحق ٠٠ وهو مظهر من مظاهر اعتقاد بنى اسرائيل انهم شعب الله المختار ٠٠ وكانوا يقولون لا نؤمن الا بما أنزل إلينا ، ونكفر بما وراءه ٠٠ وكأنهم كانوا على يقين أن الجنة لهم من دون الناس ، وهم يقولون أن لهم وحدهم الخطوة عند الله ٠٠ وكان اليهود يعلمون ان نجاح الدعوة الاسلامية يقضى على ما كانوا يستمتعون به من تفوق دينى وعقلى واجتماعى واقتصادى على من حولهم من العرب ٠٠ ولا نزاع أن انكارهم ما جاء فى القرآن ، مرجعه الى الدفاع عن امتيازاتهم هذه) وفى الكتاب موضوع بعنوان معنى الظلم فى القرآن الكريم ٠٠ أن الظلم هنا هو الجور ، ومجاوزة الحد ٠٠ وهذا هو أصل معنى الظلم ٠٠ فهو ضد العدل ٠٠ وآيات الظلم تنقسم الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ثلاث وخمسون آية ، يقع فيها الظلم على الغير كقوله تعالى « وما ربك بظلام للعبيد » وقوله « ولا يظلمون فتيلا » ٠ وقوله « فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » أى لا تظلمون غيركم ، ولا يظلمكم غيركم ٠٠ وفى هذا القسم من الآيات التى يقع فيها الظلم على الغير يكون معنى الظلم والجور ٠٠ أما **القسم الثانى** فيضم تسعا وعشرين آية وفيها جاءت كلمة الظلم ومعناها الجور ٠٠ ويعنى الظلم هنا (ظلم النفس) وهو مذهب خلقى نفسى اختص به الاسلام ٠ ويأتى **القسم الثالث** ويضم مائة وسبعا وتسعين آية ، وفيها جاءت كلمة الظلم ٠٠ وفى رأى الأستاذ الكبير أن الظلم فى هذه الآيات معناه ظلم النفس وهو يدل على أمور مختلفة كالشرك بالله ، والنفاق ، والعصيان ، وتعدى حدود الله ، والقتل ، وارتكاب الفاحشة وما الى ذلك ٠ أن ظلم النفس تعبير اسلامى خالص ٠٠ فهذا التعبير لم يوجد الا فى القرآن من الكتب المنزلة ٠٠ ومن ظلم النفس مخالفة الرسل وعصيان أمرهم وارتكابه ٠٠ فالله يجعل كل من ارتكب انما أو ضل سبيل الحق ، وكل من حاد عن الطريق القويم ، وكل من تعدى حدود الله انما هو ظالم لنفسه ٠

كتاب وحدة المعرفة :

يرى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين أن العلم كثر فروع ، وتعددت أوجه نشاطه . فالعلم عنده سواء كان علما طبيعيا أو علما انسانيا انما يقوم على القوانين التى هى خلاصة مشاهد وخبرات وتجارب . . . وهى القوانين التى تعلل ظواهر العلم ، وتفسر مادته ، ملتزمة فى ذلك بالمناهج العديدة ، المتنوعة . ومن الواضح أن المعطيات العلمية سواء كانت فيزيائية ، أو انسانية انما هى خلاصة النتائج التى يمكن أن نستقصرها عن طريق المناهج العلمية التى تقوم أساسا على التحليل والتركيب . . . ومن ثم ، فأشتات المعرفة التى نستخلصها من كل فروع العلم يمكن أن تتبلور جميعا فى مركز واحد : هو التحليل والتركيب . ولما كانت أفكار العلوم كلها يمكن أن نستنتجها فى ضوء محور واحد : هو التحليل والتركيب ، فقد ينبى على ذلك ، تجميع أوجه فروع العلم ، واستقطابها فى وحدة محكمة متماسكة هى وحدة المعرفة .

وفى ضوء هذه النظرية التى ينادى بها الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ، فى كتابه وحدة المعرفة يضع الطبيعة وقوانينها - لتأكده من صدقها ويقينها كأساس للمعرفة ، ويجعل القوانين البيولوجية امتدادا لقوانين الطبيعة ، ويجعل قوانين الانسانيات امتدادا للقوانين البيولوجية ، اما الميتافيزيقا ، فهى عنده امتداد للانسانيات . ومن أجل هذا ، يرى الأستاذ المؤلف أن المعرفة الصحيحة انما هى المطابقة بين نظامين - قد يختلفان من ناحية المظهر ولكنهما يتطابقان فى جوهرهما الا وهو نظام الكون ، ونظام العقل . فمقياس الصواب من الوجهة العلمية ، انما هو اتساق كل جزء من النظام الكونى مع أجزائه الأخرى ، اتساقا يقوم على نظام ثابت يتفق ونظام العقل . . . أما الحقيقة الجزئية ، فلا تعد حقيقة مالم يطابق نظامها نظام الأجزاء الأخرى . . . وقد أراد الأستاذ المؤلف أن يقوم بترتيب طبيعى للقوانين الكونية ، فهو يبدأ بأبسط القوانين وأعمها ، وأدناها وهى قوانين المادة ، ثم يتلو ذلك قوانين الحياة وهى أكثر تعقيدا ورقيا . . . أما قوانين الانسان فتعتبر أخص وأرقى وأكثر تعقيدا من قوانين الحياة ويعزو أستاذنا سبب اضطراب المعرفة ، أنها لم تبدأ من البسيط الى المعقد الى الأكثر تعقيدا . . . ولكنها بدأت بالانسانيات . ثم تبعها بعلوم الحياة ، ثم الماديات . . . ومن أجل هذا ، جاء الخلط والاضطراب ، والتفكك . . . ثم يضرب الدكتور مثلا عن المعرفة بجميع أبعادها ، وتاريخها ، ونشأتها ، ونموها ، بثلاثة رجال يقفون على حافة بحيرة فى وسطها شجرة باسقة يغطيها الماء ، فلا يظهر منها الا أوراقها وثمارها . . . بدأ أولهم بالبحث فى هذه الأوراق ، والثمار ، بحث خصائصها وتغيراتها ، وتبين ما تحدثه فيها من تقلبات الفصول ، وحالة الجو ، وصفات الماء . . .

وجمع من ذلك كله علما كثيرا وخلص من ذلك كله الى ايجاد قوانين صادقة فى بعض وجوهها ٠٠ فقد عرف أن التمار يتم تكوينها فى الربيع، وأن ظهور الطمى يصحبه ازدياد فى خضرة أوراقها ٠٠ علم هذا الرجل يقوم على مشاهدات صادقة ، واستنتاجات صحيحة وعلاقات بين الأشياء تطابق الواقع ، الا أن ذلك لا يكفى للعلم بطبيعة الشجرة وهياتها ٠٠ هذا الرجل رمز للعلوم الانسانية من فلسفة واجتماع وأخلاق ٠

ثم اهتدى الرجل الثانى الى طريقة الغوص فى الماء ٠ فكشف بذلك عن أغصان الشجرة وجذعها ، ودرس صفاتها وتربثها وعلم من جزاء الغوص فى الماء ، علما كثيرا ، الا أنه لم يتبين علاقة ذلك كله ، بما فوق الماء ، وما تحت الأرض ٠٠ هذا الرجل أقرب الى تصور الشجرة على حقيقتها من الرجل الذى بقى على الشاطئ ٠٠ ان الرجل الغائص فى جوف الماء انما ينتمى الى علماء الحياة أى علم الكائنات الحية الذى يعد أكثر لصوقا لعلماء الانسانيات ٠٠ أما الرجل الثالث، فكان لديه جهاز يستطيع به أن يطرد الماء عن قاع البحيرة ، فاستطاع بذلك ، أن يحفر أرضها ، ويتبين جذور الشجرة ، وهو ما لم ينتبه أحد من صفاته ٠٠ هذا الرجل مثل علماء الطبيعيات ٠٠ بذلك التشبيه للمعرفة يوحد أستاذنا بين فروع المعرفة المختلفة ، فهى عنده أشبه بالشجرة التى تضم ساقا ، وفروعا وأوراقا وجذورا وثمارا ٠

ثم ينتقل الأستاذ المؤلف الى موضوع آخر فى كتابه وحدة المعرفة ، وهو جهاز التفكير ٠٠ وهو فى نظره الأداة التى نستعين بها فى تحقيق ما نصبو اليه من أهداف وغايات ٠ هذه الأداة هى العقل ، وعنده أن العقل لا يطبق الفوضى ، وهو قادر على أن يضفى روح النظام على الأشياء حتى يمكن فهمها ٠ وهو فوق ذلك ، قادر على الابداع والابتكار ٠ ويتلو ذلك حديثه عن مذاهب التفكير ، فهو يرى أن مذاهب التفكير الكبرى يمكن خلاصتها فى نوعين أساسيين : النوع العلمى ، والثانى النوع الفلسفى والدينى ٠٠ الأول موضوعه يتمثل فى ربط الأشياء بعضها ببعض ، وكشف العلاقات بين الأسباب والمسببات ٠٠ أما النوع الثانى فهو يتصل بالمفاهيم الكلية ، والغايات ، والمثل العليا ٠٠ فالتفكير الفلسفى والدينى يبدأ بأواخر الأمور ، وبالنتائج النهائية ٠٠ ويعمل على تفسيرها تفسيراً شاملاً كاملاً ، وهو يضيق بالتفاصيل ويزعجه البحث الدقيق فيما هو واقع فعلاً ٠ وعلى هذا ، تكون الفلسفة عنده حائرة معلقة بين العلم والدين ٠٠ ومن الموضوعات التى يعرضها موضوع : - خطأ التفكير الثنائى ، فقديمًا قسم الطبيعيون الأشياء الى حار وبارد ، ورطب ويابس وتحدث الفلاسفة عن الخطأ والصواب على أنهما نقيضان ، ورجال الدين تحدثوا عن الخير

والشر ٠٠ ولا يكاد يخلو مذهب من أثر التفكير الثنائي الذى يعرض له « مؤلفنا » فعنده أن « العقل » يطمئن الى هذا التقسيم فالشيء اما متحرك أو ساكن ، وأما رطب أو يابس ، وأما حار أو بارد ٠٠ ويعزو ذلك الى موقف الانسان فى العصور الماضية فقد جعل نفسه مركز العالم ثم وضع الأشياء كلها عن يمينه أو يساره ، وأصبح الانسان يعيش الامور بنفسه ويرتبها ترتيبا هو محوره ، هالبارد هو ما يشعر ببرودته وكذا الحار ، والخير والشر ٠٠ وعند الأستاذ المؤلف أنه ينبغي القضاء على مثل هذه الثنائية الفكرية ، فان التفكير لن يستقيم حتى نخلص من اعتبار الانسان مقياسا تقاس به الامور ٠٠ ولقد ثبت فى العلوم الطبيعية أن التفكير الثنائي لا حقيقة له ، فليس لحرارة الانسان مغزى علمى خاص ٠٠ لقد قضى على هذه الثنائية حين وجدت الأجهزة التى تقاس بها صفات الأشياء مستقلة عن حواس الانسان ٠٠ ويحدثنا الدكتور محمد كامل حسين عن موضوع القوانين والأشياء فهو يرى أن الحياة لا تعدو أن تكون مجموعة قوانين تعمل فى الأشياء ٠٠ ولقد قسم الناس الصفات الى معنوية ومادية كل له قوانينه الخاصة ٠٠ فلو وقفت القوانين المعنوية لأصبح الانسان حيوانا ولو وقفت القوانين الطبيعية لأعدمت الأجسام ، وأصبح العالم كله جزئيات ٠٠ ولو وقفت القوانين الكيميائية لأعدمت الجزئيات وأصبح العالم كله ذرات ، ولو انعدمت القوانين الذرية لأعدمت الذرات وأصبح العالم كله بروتونات والكترونات وهكذا ٠ فالأشياء لا توجد بغير قوانينها والقوانين لا توجد الا بأشياءها ٠٠ على أن هناك قانونا أعلى من كل القوانين ذلك هو قانون الضمير والارادة ٠٠ أنه لا يعمل الا بعد أن تعمل الارادة والقوة والعلم ، أنه أعلى قانون انساني ٠٠ ولذلك فان من لم ينته يوما عن عمل يرغب عليه ، يكون قد حكم على نفسه بالحرمان من أرقى الصفات الانسانية ٠

كتاب التحليل البيولوجى للتاريخ :

التاريخ هو الزمن ، والزمن هو الحركة ، والحركة هى التغير ، والتبدل ، والتحول من حال الى حال ، فاذا طبقنا هذه المقدمة على الكائن الحى ، نجده فى رحلة الزمن يولد وينمو ويتطور ٠٠ أى فى البدء كان وليدا ثم طفلا ، ثم شابا فرجلا ثم شيخا هرما طحنته السنون أنه فى تلك المرحلة يذبل ، ويتقلص وينكمش ثم يتلاشى ٠٠ فالانسان ككائن حى يؤثر فيه الزمن ويطبغ هذه الآثار على مظهره الخارجى وحياته الداخلية ومن ثم نجده يسير فى رحلته الزمنية أى التاريخية فى خطين اثنين : خط صاعد ثم خط هابط ٠٠ فالعوامل البيولوجية هى التى تتأثر بمؤثرات الزمن ، وهى التى تدفعه بقواها الديناميكية الى الصعود ثم

تحتّم عليه أن يتراجع شيئاً فشيئاً الى الدرك الهابط . فاذا كان التاريخ انما هو القوة الدافعة لنمو الانسان ، فانه حتم عليه أن يكون خاضعاً لقوانين بيولوجية خاصة به ومدار هذه القوانين هو أثر الزمن فى حياة الانسان الخارجية والحياة العقلية .

على اننا نستطيع أن نتعمق هذا الموضوع اذا درسنا غرائز الأفراد، والجماعات ، والمدنيات . فالغرائز تشمل كل ما تتكون منه شخصية الانسان ، وكل ما يتعلق بانفعالاته وشعوره ومزاجه ، وكل ما يتعلق بالنفس من حب وكراهية أو ايمان وكفر . ونحن لا نعلم شيئاً عن الوسائل التى يمكن بها تغيير التركيب الداخلى للكائن الحى . وفى هذا الشأن يقول الدكتور محمد كامل حسين : (أن الغرائز أهم شئ فى حياة الأفراد . بها تتحدد غايات الحياة ، وأسلوبها ، والناس لا يعملون بعقولهم أو بارادتهم . انما يعملون وفقاً لما جبلوا عليه من طباع . وليس للزمن أو التاريخ أثر فى هذه الغرائز) .

أما غرائز الجماعات فتخلفت فى طبيعتها عن غرائز الأفراد ، فليس للجماعات احساس قوى بالخير والشر ، ولا بالايمان والكفر مثلاً . لكن شعورها بالظلم والعدل ، وبالحرية والاستعباد ، وبالولاء والتمرد مرهف جداً . وحين تتشابه الغرائز عند الفرد والجماعات يكون التقدير للغرائز مختلفاً . مثال ذلك الاحساس بالشرف ، والحرية . الفرد يرى الشرف أكبر من الحرية ، فقد يفقد الرجل حريته ولا يفقد شرفه ، ويكون معقولا أن يفقد حريته ويضحى بها فى سبيل شرفه . أما الجماعات فان احساسها بالحرية يكون أقوى من احساسها بالشرف ، اذ لا يمكن أن يكون للأمة شرف اذا فقدت حريتها لأن فقدانها الحرية يفقدها الشرف أيضاً . ان غرائز الجماعات أصعب من غرائز الأفراد لكن لكل أمة صفات مميزة على مر العصور ، فالأمة الأسبانية مثلاً لها صفات ثابتة لم تتغير منذ كانت أكبر أمة فى أوربا ، ولم تفارقها حتى اليوم حين لم يعد لها ذلك المقام . وليس حياة الجماعة خاضعة للزمن ولا للحياة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ولا تتبع تقلباتها . أما غرائز المدنيات ، فلكل مدنية صفة خاصة تلازمها دوماً . وتتميز المدنيات بما يكون موضوع عناية أهلها وبأسلوب تفكيرها ، فالمدنية الصينية خلقية ، والهندية ميتافيزيقية ، ومدنية الشرق الأوسط دينية ، والمدنية الاغريقية منطقية جمالية ، والرومانية سياسية اجتماعية ، والغربية طبيعية تجريبية . وهذه الصفات لا تفارق المدنيات من أول أمرها الى آخره . وليس للزمن عليها أثر كبير .

ثم يحدثنا الدكتور محمد كامل حسين عن فنون الأفراد وعنده أن

كل عمل يأتيه الانسان يكون فيه عامل الذوق ، والاختيار يعد عملا فنياً ، والفنون البحتة ليست الا ابراز شخصية الانسان فى شكل جميل ، وقد تبرز هذه الشخصية فى غير الآثار الفنية ، فكل عمل يقوم به الانسان فى حياته يدل على شخصيته . . أما عن فنون الجماعات فهى عند أستاذنا أكبر مادة للتاريخ ، ذلك لأن الزمن فيها أوضح منه فى حياة الأفراد ، وحياة المدينيات ، وقد أوضح الدكتور محمد كامل حسين أن أهم ما فى حياة الفرد غرائزه ، وأن أهم البحوث البيولوجية المتعلقة به انما هى بيولوجية نفسية خلقية أما المدينيات فأهم ما فيها الحياة العقلية وهى تاريخية تسير على نهج بسيط هو النمو المستمر . أما الجماعات فأهم ما فيها حياتها الخارجية وفنونها . . ففى الحياة الخارجية للجماعات نتبين أهم قوانين التاريخ . . ولها من طبيعتها التاريخية ومن تنوع مظاهرها ، ووضوح معالمها وطول مدتها ما يجعل البحث فى تاريخها أكثر وضوحاً ، وأظهر نتائج من البحث فى الافراد أو المدينيات .

أحمد أمين الأديب وصاحب النظر الاسلامي

انه أديب ومفكر اسلامي ، وله نظرات في الحياة الاجتماعية ولد في القاهرة عام ١٨٨٧ وتوفي في الثلاثين من يونيو عام ١٩٥٤ .

درس بالأزهر وتولى مدرسة القضاء الشرعي فترة من الزمن ثم انتقل للتدريس في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) ثم انتخب عميدا لها وعين عضوا بالمجمع اللغوي ، اتجه الى التأليف في عالم الفلسفة فكتب (الأخلاق) عام ١٩٢٣ ثم عنى بدراسة الحياة العقلية في الاسلام فأصدر أهم كتبه : « فجر الاسلام » ، « ضحي الاسلام » وهو ثلاثة أجزاء و « ظهر الاسلام » وهو أربعة أجزاء .

وسوف نلقى الضوء على هذه الكتب التي تمثل الحياة العقلية عند المسلمين ونشأتها وتطورها حتى العصور الحديثة .

نشر عدة مقالات في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة) التي كان يرأس تحريرها وقد جمع هذه المقالات في كتاب أسماه : فيض الخاطر ظهر على أجزاء متتابعة قبل وفاته ، كان رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر التي قدمت أمهات الكتب العربية القراء الأمة العربية والاسلامية، كتب سيرته الذاتية في كتاب باسم (حياتي) وشارك الدكتور زكي نجيب محمود في تأليف كتاب : (قصة الأدب في العالم) .

وهو ثلاثة أجزاء حول النتاج الأدبي في العالم من قصة وشعر ومقالة .

وذلك في عصور مختلفة قديمة ووسيطه ، وحديثه في الشرق والغرب مع نماذج من كل أدب ، أسلوبه يمتاز بالوضوح والنصوع والبعد عن الغبش والتوابل والتزاويق اللفظية .

وجدير بالذكر أن (أحمد أمين) حاول في كتبه الاسلامية : (فجر

الاسلام . وضحاها . وظهره) أن يقوم بتحليل العقل الاسلامى فى تطوره وارتقائه ، وحاول أن يلتمس العلل البعيدة التى غدت العقلية الاسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها على مر العصور ، واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع الى العوامل الدينية المستمدة من الاسلام ، والى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة الاسلامية .

انه نظر الى العقل الاسلامى فشرحه فى حرية شديدة ، وانتقل من التحليل الى الأفكار التركيبية التى انتهت اليها العقلية الاسلامية حتى تحققت فى الحياة واستوت نى مظاهر السلوك وبرزت فى الأقوال المسطرة والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

وقد التزم (أحمد أمين) فى بحثه أبوابا ثلاثة كان يفصلها عندما تناول الحضارة الاسلامية وهذه الأبواب الثلاثة هى الناحية الاجتماعية ثم العلمية ثم الدينية ومن ثم ، اذا شئنا أن نعرف العقلية الاسلامية فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين وأدواتها التى تبرز بها وتحقق وهى العلوم المختلفة، وحياتها بل روحها وهى المراكز الاجتماعية التى تركزت فيها ونمت وترعرعت . ومن ثم ، فالفكرة فى نظر (أحمد أمين) أشبه بالنهر الجارى المتدفق . الحياة الاجتماعية روافده والحركة العلمية مجراه والدين مصبه وغايته ، ونجد تطبيق هذه الفلسفة واضحة أعظم الوضوح فى كتابه (فجر الاسلام) ، ومفصلة تفصيلا جليا فى كتاب (ضحى الاسلام) وأشد تفصيلا فى كتاب (ظهر الاسلام) .

« الخصائص المميزة لشخصية أحمد أمين »

لعل من أهم الحاصل التى أضفت على شخصيته طابع الحكمة والتفكير الموضوعى إنما هى حريته والبعد عن الدجماطيقية والترحيب بالنقد ، والجلاء والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء . .

وسوف نلقى الضوء على كل خاصية من هذه الخصائص التى كان يتسم بها أستاذنا الكبير فقد كان يؤمن بحرية الفكر الى أبعد الحدود ، فلا يقول الا ما يعتقد ولا يحقق الا بالحق وحده ، لا يهمه مصانعة ذوى السلطان أو تملق الجماهير أو مشايعة الأهواء وتبدو هذه الحرية فى الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها الجماهير ومشاعرهم ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد . . جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة أهل العقل فى الاسلام ونادى بالرجوع اليه مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع، وحكموا على أصحابه بالكفر وحرقوا كتبهم ومنعوا تدريسها فى مدارسهم ،

جاء برأيه فى الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جزاء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر فجر الاسلام ، كذلك رأيناه لم يبال بالسنة ، كما لم يبال بالشيعة فى سبيل اعلان رؤية وحرية فكره وذلك أعظم تعبير عن شخصية أديبنا الفيلسوف .

وجدير بالذكر أن هذه الحرية قد صعبته فى جميع آرائه الأخرى سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، فها هو يزور بغداد عقب انتهائه من كتاب (فجر الاسلام) وكيف تعرض منه للهجوم على الشيعة وكيف دبرت له الشيعة مؤامرة كادت تودى به لولا خروجه من بغداد خلصة وخيفة من هؤلاء المتآمرين فأنظر اليه وهو يحكى عن تلك الحادثة فى كتاب حياتى صفحة ٢٦٢ (ولما أخرجت كتاب (فجر الاسلام) كان له أثر فى نفوس كثير من الشيعة، كما كنت أقدر ذلك لأنى كنت أظن أن البحث العلمى التاريخى شىء والحياة العملية الحاضرة شىء آخر ولكن شيعة العراق والشام غضبوا وألقوا فى الرد عليه كتباً ومقالات شديدة اللهجة لم أغضب منها ٠٠ ولما لقيت شيخ الشيعة فى العراق الأستاذ (آل كاشف الغطاء) عاتبني على ما كتبت عن الشيعة فى فجر الاسلام وقال : انى استندت فيما كتبت على الخصوم ، وكان الواجب أن استند الى كتب القوم أنفسهم ، وقد يكون ذلك صحيحاً فى بعض المواقف ، ولكنى استندت على كتبهم فى ضحى الاسلام ونقدت بعض آرائهم نقداً عقلياً نزيهاً مستنداً على كتبهم ٠٠٠ والحق أنى لا أحمل تعصبا لسنية ولا شيعة ، والقد نقدت من مذاهب أهل السنة ما لا يقل عن نقدى لمذهب الشيعة ، وأعليت من شأن المعتزلة ، بعد أن وضعهم السنيون فى الدرك الأسفل احقاقاً لما اعتقدت أنه الحق .

وقد حدث وأنا فى بغداد حادث خطير ، فقد دعينا لنشهد مجلساً من مجالس العزاء يقيمها الشيعة فى ليالى الامام على ، فذهبنا الى (الحسينية) بالكوخ - ضاحية من ضواحي بغداد - فرأينا داراً واسعة احتشد فيها عدد لا يقل عن أربعة آلاف ، وقد سرى فى القوم أن وفد مصر - حضر ، فازدحموا على استقباله ، وأخلت لنا ناحية جلسنا فيها ، وخطب بعض الخطباء لتهنئتنا ورد عليهم الأستاذ عبد الوهاب عزام التحية بمثلها ، ثم قام خطيب الليلة الأستاذ كاظم الكاظمي ، وهو خطيب طلق اللسان حسن التأثير فى السامعين فرحب بالوفد وبأحمد أمين ، ولكنه عرج من ذلك على كتاب فجر الاسلام وما فيه من تجن على الشيعة وأكثر الحاضرين من عوام الشيعة الذين تؤلمهم هذه الأقوال أشد الألم ، ولا يمنعونهم مانع أن يفتكوا بكل من يعتدى على عقيدتهم ، ولكن الخطيب ماهر ، اذ أحسن هياج الجمهور وتحفزهم اقتبس جملة من فجر الاسلام فيها مدح الشيعة ، وهكذا ظل الرجل يلعب بعواطف الناس بين مد وجزر وتهيج وتهدة فلما طال هذا وخشى بعض الحاضرين سوء العاقبة

نصحننا ناصح أن ننسل من باب خلفى ففعلنا ونجوننا بأنفسنا ٠٠٠٠ على أن الحرية التي كان ينادى بها أحمد أمين ظلت تصحبه فى جميع آرائه - سواء كانت آراء سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، تماما كما يتبين لنا هذا من النظر الى مجموعة مقالاته التي جمعها فى كتابه الرائع : (فيض الخاطر) فمن أراد أن يبلور مذهبه الفلسفى فى الحياة فعليه أن يتتبع هذه المقالات .

أما العنصر الثانى المكون لتفكيره فهو البعد عن الدجماطيقية والقطيعة، فلم يكن أحمد أمين يقطع بالرأى ، الا بعد البحث والتنقيب وجمع الأدلة والبراهين ، بل كان على استعداد للنزول عن رأيه اذا اتضح له بطلانه، أو نيهه اليه ناقد وهذا يسلمنا الى الخصلة الثالثة وهى النقد والرغبة فى النزعة النقدية فى الاصلاح - اصلاح العقول والنفوس ، بمعنى النظر فى العقل البشرى لمعرفة حدوده وتقال فلسفة نقدية أيضا لمن يعدل عن النزعة الدجماطيقية حتى لينقد نفسه بنفسه كما فعل أفلاطون فى المثل فى محاوراة بارمنيدس .

وكان أحمد أمين نقديا على كلا المعنيين وحسبنا أن نشير الى ذلك الموقف النقدي المثالى الذى ضربه أحمد أمين عقب نشر الطبعة الأولى من كتاب فجر الاسلام ٠٠ فلعل هذا الموقف يعد حدثا خطيرا فى الحياة الأدبية والفكرية فى مصر والشرق ، فلم يسبق لكاتب أن فتح صدر مجلته لنشر النقد الذى كان لاذعا كما فعل أحمد أمين فى مجلة الثقافة .

أما الخصلة الرابعة فهى الجلاء والوضوح ، وجاء هذا الوضوح من أمرين ، الأول وضوح الرأى فى ذهنه والابتعاد عن التزويق والزركشة فى اللغة ٠٠ كان يستطيع أن يتقعر ويشجع ويجرى على أساليب الحاجز وغيره لكنه أثر جلال المعنى على جمال اللفظ وزين الفكر على جرى العبارة والتعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى فى الصميم دون برقشة أو زركشة حتى يفهم الناس العناية بالأفكار والابتعاد عن الصنعة والتقليد الذى قتل الفكر وأثقله .

أما الخصلة الخامسة فهى النظرة الكلية الشاملة دون الاغراق فى التفصيلات وهذه هى الفلسفة عند بعض المشتغلين بها يقول : ولديمررانت فى كتابه (مباهج الفلسفة) :

(سوف نعرف الفلسفة على أنها النظرة الكلية والعقل الذى يبسط الحياة ويحيل الاضطراب الى وحدة) .

والحق كان أحمد أمين فيلسوفا بحق وحقيق من خلال كتاباته

وخصوصا من خلال الفصل الختامي من ظهر الاسلام ٠٠ وكذا كتابه :
(الحياة العقلية في الاسلام) فقد ارتفع الى النظرة الكلية الشاملة .

على انه يبقى لنا بعد عرض موجز لفكر أحمد أمين أن نلقف بعض
الصور والمواقف التي عاشها .

دخوله الجامعة : فأنظر اليه حين يستجيب للدكتور طه حسين عميد
كلية الآداب آنذاك حين يحدثه في التحاقه أستاذا للغة العربية ، فلم
يسع أحمد أمين الا أن يستجيب لهذه الدعوة يقول في كتاب : (حياتي)
صفحة ٢١٨ :

(دق جرس التليفون يوما بمنزلي في مصر الجديدة وأنا قاضي بمحكمة
الأزبكية عام ١٩٢٦ وإذا المتكلم صديقي الدكتور طه حسين يطلب الى
مقابلته ، وذهبت لمقابلته فاذا هو يعرض علي أن أكون مدرسا بكلية
الآداب ، فترددت قليلا ثم قبلت ، لنفوري من القضاء وحبى للتدريس
وذهبت الى الكلية حيث قصر الزعفران الآن ، فوجدت شيئا جديدا علي ،
لا هو كالأزهر ولا كمدرسة القضاء ٠٠ أساتذة كأنهم عصابة أمم ، هذا
انجليزى وهذا فرنسى وهذا بلجيكي وهذا ألماني وقليل من الأساتذة
المصريين ، وليس فيهم معمم الا أنا ، وعميد الكلية بلجيكي ، والطلبة
أحرار ، يحضرون الكلية أو لا يحضرون ، وأقسام الكلية متشعبة قسم
للفلسفة ينزعه الفرنسيون ، وقسم للانجليزية ينزعه الانجليز ، وقسم
لغات القديمة وقسم للجغرافيا وآخر للتاريخ ٠٠ والطلبة موزعون علي
الأقسام ٠٠ ومن الطلبة عدد كبير يقضى سنة في كلية الآداب اعدادا لكلية
الحقوق ، وقد قضيت زمنا حتى أفهم كل ذلك ، وأحسست أن الجو
مبعثر ، ليس هناك ارتباط وثيق بين الطلبة بعضهم وبعض الأساتذة ،
بعضهم وبعض - وصدمني أول أسبوع أنى أحسست حركة تدمير بين
العميد البلجيكي والأساتذة لأسباب لا أدريها .

أخذت أهيب نفسي للبيئة الجديدة علي مضض حتى فهمت الأوضاع
واستقامة الأمور ٠٠ وكان الطلبة كلهم ذكورا . وشاهدت مرة ثلاث بنات
في قسم اللغة الفرنسية علمت أنهن نصف مصريات أبوهن طبيب مصرى
وهو المرحوم الدكتور علي ابراهيم حسن ، وأمهن ألمانية فسألت نفسي :
هل أعيش حين أرى طالبات مصريات صميمات في الكلية ، ولكن الزمن
كان أسرع مما توقعت ، فامتألت الكلية بالبنات بعد قليل .

ها أنذا أطلق كتب الفقه ، وأعود الى كتب الأدب واللغة والنحو ،
ودرست في أول سنة درسين : درسا أقرأ فيه الكامل للمبرد ، ودرسا
أقرأ فيه البلاغة . ومن قديم لم تعجبنى البلاغة العربية ، فبحثت في

المكتبة الانجليزية عن كتب فى البلاغة فأنا أقرأها وأقارن بينها وبين ما كتب فى البلاغة العربية وأختر خيرهما وأوفق بين مصطلحاتها .

مشكلة العمامة : كان أحمد أمين يصر أن يكون معمما بين الأساتذة ، الأمر الذى جعل الدكتور عبد الرازق السنهورى يتصدى له محاولا اقناعه بعدم ارتداء العمامة لأنه قد صار الآن أستاذا بالجامعة وهذه العمامة ينتمى إليها رجال الدين خصوصا من يعمل بالأزهر الشريف . فانظر اليه وهو يتحدث فى هذا الشأن : (وقبل بدء الدراسة فى السنة التالية دارت مناقشة طويلة بينى وبين صديق لى أستاذ فى كلية الحقوق قال لى : لماذا نصر على لبس العمامة والعمامة رمز لرجل الدين ولست الآن رجل دين وانما أنت تعلم اللغة العربية والأدب العربى كما يعلم الفرنسيون اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى وهذه أمور مدنية لا دينية ، ثم ان لبسك العمامة فى وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريبا فى بيئتك . الخ . وقد فكرت ، فهذا الذى قاله حق . وما زال يلح على حتى استجبت لرغبته . ولقد شجعنى على رفض العمامة ما كنت ألاقىه فى لبس العمامة من عناء ، عامة الناس فى مصر يوقرون الطربوش . وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العمامة ، ذهبت الى فندق مرة فقال صاحبه ليس لى عنده مكان خال ، واذا بمطربش يأتى بعدى فيخلق له مكان . وأتتيا مرة لركوب الدرجة الأولى فى الترام فيقول لى الكمسارى : تعالى هنا . مشيرا الى الدرجة الثانية . وعدت الى هذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة كنت تلميذا فى مدرسة أم عباس . وقد كنت قد نسيت رباط الرقبة كيف يكون ، فكنت ألبس الى من يربطه لى الى أن تعلمته ، وانتهزت افتتاح الدراسة فى العام الجديد فذهبت مطربشا ، كنت أتعثر فى الشارع وفى الكلية خجلا من الناس .) .

العمامة والزواج : تعثر أحمد أمين فى موضوع الزواج فرغم أنه لم يكن طموحا محبا للزواج من ثرية أو صاحبة جاه ومال الا أنه عانى كثيرا من عمامته فكم تقدم الى بيوت رضوا عن شبابه . لكن لم يرضوا عن عمامته . فهذه العمامة فى نظرهم لرجل متدين والتدين فى نظرهم يوحى بالتمزمت وقلة التمدن والاتصاق بالرجعية والحرص على المال ونحو ذلك من معان منفرة ، والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق المسير للدنيا . انظر اليه وهو يقول فى هذا الشأن : (رضى بى قوم وأحبوا أن يرونى فأحببت أن أريهم أنى منمدين ، وذهبت اليهم أحمل كتابا انجليزيا وجلست اليهم وجلسوا الى وتحدثت اليهم حديثا عصريا على آخر طراز وحشرت فى كلامى بعض الكلمات الانجليزية فاستغربوا لذلك . وفهمت انهم أعجبوا بى ورضوا عنى ، ولكن بلغنى أن الفتاة أطلقت على من الشباك

وأنا خارج فرأت العمامة والجبّة والقفطان فرعبت ورفضت أن تتزوجني
رغم الحاح أهلها ٠٠ وشاء القدر أن تتزوج هذه الفتاة من شاب أنيق كاتباً
فى وزارة ولكنه سكير معربد أذاقها المرار فى حياتها الزوجية ثم طلقها ،
وما زال يسموئ حالها حتى تزوجت بعامل فى التلغراف وجاءت الى وأنا
قاضى محكمة الأذربكية تطلب من زوجها النفقة ٠٠) ٠

الجوانية عند عثمان أمين

العبقرية عند الدكتور (عثمان أمين) إنما هي الصبر الطويل والجهد الدائب لتذليل العوائق التي تقف في الطريق .

الصبر والاصطبار لبلوغ الهدف ، والحذق والذكاء لتحقيق الأمل .
وقد كانت حياة الدكتور (عثمان أمين) سلسلة من المتاعب ، والمعاناة المستمرة التي لم تكن لها حدود ، أو نهاية ..

فما دبت قدمه على الأرض ، الا وتبعته حصيلة من المشاكل ، والمتاعب التي جعلته ، بقوة ارادته — يطفو فوق سطحها ويقهرها فائزاً — في النهاية — بمطالبه وأهدافه ، محققاً حريته ، وتفرده ، واستقلاله .

مولده : ولد الدكتور (عثمان أمين) في قرية (مزغونة) وهي إحدى قرى مديرية الجيزة من أسرة ريفية يعمل أكثر أفرادها في الزراعة ومن ثم ، نشأ في بيئة دينية محافظة ، متسامحة وأراد والده أن يحفظ القرآن فأدخله (كتاب القرية) ولم يمكث في (الكتاب) الا ساعة وبعض ساعة ، ولم يلبث أن تركه الى غير رجعة فراراً من (سيدنا الشيخ) .

وأراد الوالد أن يقوم بمهمة تعليمه ، فشرع في تحفيظه (جزء عم) مستعيناً في ذلك ، بتفسير الأستاذ الامام محمد عبده .. وأحسب أن طريقة الأستاذ الامام قد استهوته وهو ما يزال طفلاً .. فلعل ما انطبع في نفسه حينئذ من تفسير الامام لآي الذكر الحكيم في سور : (الناس) ، و (الفلق) و (أبيض لهب) و (الفيل) وغيرها من (جزء عم) قد جعلت الدكتور عثمان أمين يتجه الى اختيار : (محمد عبده ، وآرائه الفلسفية والدينية) موضوعاً لرسالة الدكتوراه من جامعة باريس .

مدرسة قبطية : وحين أحس والده انه تقدم في الحفظ مع الفهم ،

رأى أن يدخله فى مدرسة صغيرة قبطية كان قد أنشأها (صراف البلد
(سليمان أفندى عطية) الذى كان يشارك المسلمين فى الاحتفال بالعيدين
والمولد النبوى وأحياء رمضان .

وقد كانت المدرسة عبارة عن (فصل واحد) ٠٠ وكان أعضاء هيئة
التدريس بها شخصا واحدا اسمه (جورجى أفندى) قدم من الصعيد
(الجوانى) ، ليتولى وحده ودون الاستعانة بغيره تعليم جميع المواد لجميع
التلاميذ وفى مختلف المستويات فى آن واحد .

وكان أول درس عملى جوانى انتفع به فى هذه الفترة من أيام
صباه انما هو : التسامح والأخوة ٠٠ أما التسامح فقد تجلى فى الحاقه
بمدرسة قبطية المسلمون فيها أقلية ضئيلة و « عثمان أمين » ابن لأحد
شيوخ البلد المعممين الحافظين للقرآن ٠٠ وأما الأخوة فقد كانت تتجلى
فى إقامة صلاة الفجر مع والده فى الدار قبل الخروج ثم وقوف (عثمان
أمين) للصلاة والدعاء مع زملائه من الأقباط فى المدرسة قبل أن تبدأ
دروس الصباح .

ذكريات قاهرية : انتقل (عثمان أمين) من قرية (المزغونة) الى
القاهرة فالتحق أولا بمدرسة : (العاصمة الكبرى) وكانت تقع على مقربة
من (باب الحلق) ولم يمكث بها الا قليلا ثم انتقل الى مدرسة (الهياثم)
وهى تقع ما بين (الناصرية) و (حارة السقائين) .

وفى المدرسة السعيدية : التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية وآل
على نفسه أن يسهم فى أكثر من وجه من وجوه النشاط الاجتماعى فى
المدرسة ، فكان عضوا بجمعيات الخطابة والتمثيل والرحلات والموسيقى
والتصوير .

دوره فى البحث عن فنان

على مسرح المدرسة اشترك فى تمثيل مسرحيات كثيرة ٠٠ يذكر
منها تمثيلية : (البحث عن فنان) حيث قام فيها بدور مستشرق ايطالى
يبحث عن شخصية فنية فى بلاد الشرق ، فعثر عليها أخيرا على ضفاف
النيل ، على مقهى من المقاهى البلدية ٠٠ وجدير بالذكر أن الأستاذ
التابعى كتب نقدا فنيا عن هذه التمثيلية ٠٠ نوه فيها بجهوده فى التمثيل .

حياة داخلية نامية متغيرة : كان (الدكتور عثمان أمين) يحس منذ
حدانة عمره أن له حياة داخلية نامية متغيرة على الدوام ، زاخرة بالصور
والمشاعر والأحلام فقد كانت تمر به فترات صمت طويلة فيمسك عن

الكلام مع غيره ولا يريد أن يعبر لأحد عن مشاعره .. ويظهر أن حالة الصمت هذه قد بلغت حدا جعل والده يظن انه صبي غبي لا حيلة له فى التعليم ، فلما جاءت آخر العام الدراسى برقية تهنئة من أحد معارفه تنبئه بنجاحه فى الامتحان ونفوقه على أقرانه ، لم يصدق الخبر السار . فلما تحرى الأمر ، وتأكد من صدق الخبر لم يبد منه أى ارتياح .

الى الجامعة المصرية: قبل انمامه للدراسة الثانوية بالمدرسة السعيدية، سرعان ما تلقى نبأ غير سار فقد تزوج والده زوجته الثالثة من القاهرة .. وكانت امرأة سيئة فقد راحت تكيد له طرف والده ووقعت بينه وبين والده خلافا عائليا عميقا أدى الى توقف عثمان أمين عن الدراسة فترة من الزمان ، ودفعه ذلك الى اشتغاله بالتدريس بمدرسة العياط الابتدائية ، وهى المدرسة التى كان قد أتم فيها مرحلة التعليم الابتدائى .. لكنه سرعان ما انتقل الى الدراسة حتى ظفر بالبكالوريا .

ولم تتوقف هذه المرأة عن شنشنتها المعروفة فراحت تكيد له فيما يخص نوعية دراسته فالدكتور عثمان أمين أراد أن يلتحق بكلية الآداب .. أما والده فقد أراد له مدرسة المعلمين العليا .. وكان سبيل تلك المدرسة ميسرا أمام الطلبة ، اذ تكفلت الدولة بالانفاق عليهم فى التعليم والمعيشة .. لكنه أصر على الالتحاق بكلية الآداب بالجامعة المصرية - وكان قد مضى على انشائها عام واحد .. واختار من أقسام الكلية قسم الفلسفة على التحديد .. فى حين كان والده يستنكر اسم الفلسفة ولا يسيخ الاشتغال بها ويراهها مرادفة للتعقيد فى الحياة والمروق من الدين .

ولما أصر كل من الوالد والدكتور عثمان أمين على موقفه ، صمم (الابن) على أن يستقل بنفسه فعمل على تدبير حياته طوال سنى الدراسة الجامعية ، ودون الاعتماد على أى معونة من والده .

وكانت أول خطوة فى سبيل هذا الاستقلال أن طلب مقابلة الأستاذ البلجيكي (جريجوار) وكان عميدا لكلية الآداب ، وراح يوضح له الأمر فوافق فورا على قبوله طالبا فى الكلية بالمجانبة الكاملة .

أما الخطوة الثانية التى اتخذها الدكتور عثمان أمين فى هذا الشأن ، انه وضع لنفسه نظاما يكفل فيه تحصيل العلم وكسب المعاش فى آن واحد ومن ثم ، كان ينهض من نومه عند الفجر ، ويمضى فى القراءة والدروس حتى يحين موعد الذهاب الى الجامعة .. ويخصص صبيحة كل يوم للاستماع الى المحاضرات ، يخصص وقت العصر للمطالعة فى البيت ، أو مكتبة الجامعة .. ويخصص وقت المساء لاعطاء الدروس

الخصوصية لبعض تلاميذ المدارس الابتدائية أو للقيام بأعمال الترجمة أو التحرير والتصحيح في بعض الصحف والمطابع العربية .

وجدير بالذكر ، ان الناس أعدوا اصراره على دراسة الفلسفة - في ذلك الوقت - جرأة بالغة . . . وقد تيسر الطريق أمام الدكتور عثمان أمين لتحصيل الفلسفة بسبب قيام حركة التجديد التي قادها الامام محمد عبده آنذاك ، فمعروف أن أكثر رجال الدين يحرمون الاشتغال بالفلسفة حتى اذا جاءت الجامعة المصرية الحديثة وقام بتدعيمها كل من محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول ولطفى السيد . . . لم يكن هناك بد من أن تفتح الجامعة قسماً للدراسات الفلسفية في كلية الآداب أقبل عليه الطلاب من كل حذب وصوب .

فلسفته

الجوانية فلسفة جديدة اهتدى اليها أستاذنا الدكتور عثمان أمين بعد اطالة النظر في أمور النفس ، وواقع الحياة والناس . . . وقد نبئت عنده من تأمل روح الدين والأخلاق ومن تأمل آيات القرآن والأحاديث ، ونبعت عنده من خوضه في أعماق أمتنا وخصائص بيئتنا ودعائم تراثنا الحضارى .

والجوانية فلسفة تنظر الى (المخبر) . ولا تقف عند (المظهر) وتلتمس (الباطن) دون أن تقف عند (الظاهر) .

وتفحص « الفلسفة الجوانية » عن (الداخل) بعد ملاحظة (الخارج) وتلتفت دائماً الى (المعنى) وإلى (العتمة) والى (الروح) .

ان عماد الفلسفة الجوانية أن (الحقيقة) يجب أن تلتمس فيما وراء المظهر الخارجى والوجود العيانى وهذا (الماوراء) وهو المعنى الأول من معانى (الجوانى) من حيث هو مقابل المعنى (البرانى) .

واضح أن الدكتور عثمان أمين انما هو صاحب مدرسة في الفلسفة وله مواقفه في الفكر الفلسفى وتجاربه مع مختلف الفلسفات .

وقد استقرأ (أستاذنا) بعض الشواهد التي تؤكد وجهة نظره في هذا الصدد . . . فما هو يوضح رؤيته الجوانية في مجال الفلسفة والأدب فيعرض لنا بعض النماذج الخاصة بالغزالي والخاصة بأدب عباس محمود العقاد .

يعرض لنا عن الجوانية الأخلاقية عند الغزالي فيقول :

لقد حمل الغزالي حملة شديدة على الفلاسفة والفقهاء والمتكلمين :
ذلك لأن مذاهبهم اتسمت بالبرانية ، اذ اصطنعوا الحرفية والشكلية
باستعمالهم ظاهر العقل أو ظاهر الشرع من جهة وفصلهم العقل عن
الشرع من جهة أخرى .

والغزالي يؤكد لنا هذا المعنى فيقول : (ان العقل لن يهتدى
الا بالشرع والشرع لم يتبين الا بالعقل . . فالعقل كالبصر . . والشرع
كالشعاع ولن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج ، ولن يغنى الشعاع
ما لم يكن البصر . . وأيضا فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذى يمدّه :
فما لم يكن زيت لم يحصل السراج ، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت) .

ونستطيع أن نفهم مخالفة الغزالي لغلاة الصوفية ، وأصحاب
الشطحات ، لعدم الاخلاص فى أحوالهم ، وخروجهم عن حد الأدب مع
الله . وانسلاخهم عن أحكام الشريعة ، ونقده للمدعين التصوف - فهذا
فى نظر الغزالي - تصوف مسرحى برانى لا ينبغي حضور القلب مع الله
وخلوص القصد له . . أما التصوف الذى يريد الغزالي فتصوف ذوقى
جوانى ، يهدف الى الكمال الخلقى تطهيرا للقلب وتنقية للنفس .

والأخلاق عند الغزالي ليست وصفا لظواهر الأفعال ، بل هى سعى
وتحقيق جوهرها الأبدى ، ولا تقاس قيمة العمل الأخلاقى بنتائجه ، بل
بمصدره من صفاء القلب وباعثه من استقامة الضمير .

ويؤكد الغزالي - جوانية الأخلاق الاسلامية - مبينا انها قائمة فى
صميمها على الايمان واليقين ، أى التصديق بالقلب .

والأخلاق الجوانية عند الغزالي هى أخلاق الجسد والعمل وليست أخلاق
الدعة والتراخى ، أو أخلاق التواكل .

وحاصل موقفه من الأخلاق الاسلامية هو التماس المعنى الجوانى
للأقوال والأفعال ، وربط الأعمال الظاهرة بالبواعث الباطنة ، واشتراط
حضور القلب وصدق النية ، وتمام الاخلاص فى العادات أو المعاملات .

وبعد هذا ، تعمق فى فهم المثل الأعلى الأخلاقى وربط حياة الناس
بحياة المجتمع الفاضل .

ولا يفوت الدكتور عثمان أمين أن يعرض لكتابات العقاد ويستبطن
جوفها ويعرض لخصائصها (الجوانية) فواضح أن العقاد جمع بين الوضوح
والتركيز ، والائتلاف بين المنطق الصارم والحس المرهف وبين المثل المجرد
والحقيقة الواقعة اما فى مجال الأدب . . فتتجلى منازع العقاد الجوانية فى

الايمان بالروح . والسعى الى الاصاله ، ومحاولة الفهم بالتعاطف والنفاذ الى اللب . والاحتفال بالتجربة والمساناة والتعبير الجميل عن الشعور الصادق .

الشعر والفلسفة :

يرى « العقاد » أن بين الشعر والفلسفة صلة وثيقة، ذلك ان الشعر الجوانى الأصيل هو الذى يبقى بما وراءه من زاد، وهو شعر المعنى والفكرة والعاطفة لا اللفظ والطلاء والشكل .

والشعر يعمق صلتنا بالوجود ويفتح أعيننا على ما فى الكون من جمال ، ويرهف أحساسنا بما يصدق من أنعام . . ولن تكون وسيلة الى ذلك الفاظا ورموزا بل تجربة واعية هى فى صميمها تجربة ميتافيزيقية .

الجوانية فى القصة : ان قصة (سارة) انما هى القصة الوحيدة التى كتبها العقاد وهى قصة (جوانية) كلها ، لا تشغل الأحداث الخارجية فيها الا أقل قدر ممكن مما يلزم لحبكتها الفنية .

الجوانية فى نظر العقاد الى نعاليم المسيح كتب عبقرية المسيح . عبقرية المسيح كنان (جوانى) من أوله الى آخره يحس القارئ العربى أن مؤلفه المسلم قد فطن الى جوهر العقيدة المسيحية حين قال :

(انها عقيدة قوامها أن الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه . . وان ملكوت السماء فى الضمير وليس فى القصور والعروش ، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه ، وما يلبسه ، وما يقيمه من صروح المعابد والمجاريب ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم ، وعمرؤا ظاهريهم فجاءهم الرجاء الذى يصلح لذلك البلاء ، بشارة لا تبالي أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير) .

فرسالة المسيح عليه السلام صريحة فى نقض شريعة الأشكال والظواهر ، واقامة شريعة الحب . الحب الذى هو عطاء بلا حساب ، أو شريعة الضمير الذى يقوم فى دخيلة الانسان مخترقا حجب الزمان والمكان : (وكل ما هنالك أن تصبح الفضيلة وحى نفس وحساب ضمير، ولا يصبح قصارها وحى القانون وحساب العكوك وأساليب الروغان من السطور والحروف) .

وما من شك ، أن الطريق الذى يرسمه السيد المسيح طريق شاق، لأن فيه مجاهدة للنفس وقمعا لشهواتها . . وما يقوى على هذا السلوك الا الجوانيون المخلصون .

أن دعوة السيد المسيح دعوة جوانية ، فقد كان همه الشاغل هو
اصلاح النفوس ولن يتم هذا الصلاح بتغيير الأشكال الخارجية وإنما يتم
بتغيير البواعث النفسية ومن ثم فالحساب هنا حساب جوانى مداره
النفى والضمير .

وبعد ، فهذه عجالة نكتبها لفقيه الفلسفة استاذنا الدكتور عثمان
أمين وما أحسبنا قد وفينا بما ندين من عرفان وحب واجلال .

الرؤية النقدية عند أنور المعداوى

منذ عام أو يزيد فقدت الحياة الأدبية كاتباً نابهاً له منزلة كبيرة فى نفوسنا .. كان قد ودع الحياة بعد أن جاهد المرض وصارعه ومازال يستبهد به حتى أسلم روحه فى النهاية .

وهكذا خطف الموت أنور المعداوى وهو لم يزل فى صدر الشباب ولم تنزل بقية من كلمات تجول فى نفسه .. تريد أن تنطلق من عقالها لتشع بالضوء فى عالمه الأدبى ولتأخذ مكاناً فى بناء تفكيره وتصوراتيه .

لكن يد المنون عاجلته فانتزعته فجأة رغماً عنا ، وحملته بعيداً حيث يرقد فى عالم الظلام والصمت الأبدى ..

وبعد هذا الفراق أولى بنا أن نذكر المعداوى وأن نخط السطور تحية لجهاده فى مضمار الأدب .. هذا الجهاد الذى يعبر بحق عن روحه الثائرة التى أبت أن تتعاطف وطابع الصنعة والافتعال والتقليد فى الأدب .

الصديق والزيف :

فقد كان رحمه الله ، ينادى بأن الفن الأصيل إنما هو الذى ينبع من صميم صاحبه .. فعلى الأديب أن يتحلّى بالثوب الذى ينسجه من صميم نفسه حتى يعبر عن طبيعته الخالصة ، وطبيعة التصورات التى امتصها من واقع الحياة .. فلا ينبغى أن يستعير أثواب الآخرين ليتحلّى بها حتى لا يتهم بالزور والزيف .

وبمعنى آخر لا ينبغى أن يحاكي غيره فى أساليب التعبير الأدبى وإنما على الأديب الخالق أن يستولد ذاته .. أى عليه أن يستبطن هذه الذات فينصت إليها ويرهف السمع الى حديثها الذى يمكن أن يحيله الى نسق من الكلمات النابضة بالحركة والوجدان والخيالات .

لهذا كان المعداوى صاحب نظر باطنى . . فقد كان ينظر الى الاعماق دائما . فعلى قدر ما يستطيع أن يطوع الكلمات من أجل التعبير عن التجربة والباطنة على قدر تجويده وبلوغه حد الاصاله والكمال .

ويمكن أن نتعرف على طبيعة الأشكال التعبيرية عند المعداوى على أساس ناحيتين ! .

الذوق من ناحية والادراك الذهني من ناحية أخرى . . فلكي يتم التعارف على عمل أدبي ينبغي على المتلقى أن يذوق هذا العمل بقلبه وأن يعيه بادراكه الذهني .

فنحن لا ندرك من الأشياء سوى صورها المجردة وأن أداة هذا الادراك انما هو العقل . . لكن ليس بالعقل وحده يمكن أن تتحقق الرؤية في عالم الأدب . . فهناك الذوق أيضا حيث يمكن أن نلمس الأشياء وهي تسيل في مجرى شعورنا فتثير فينا أحاسيس الشجن والأسى والفرح والكتابة والأمل وغيرها من الأحاسيس التي يمكن تكثيفها وتشكيلها تشكيلا ابداعيا .

لهذا كان حتما على الأديب أن يكون خلاقا والا يقترب من جانب الصنعة الا بالمقدار الذي يتيح له فرصة تملكه للاداة التعبيرية التي ينبغي أن يسيطر عليها ويوجهها التوجيه الصحيح .

ولهذا كان لابد أن يتعلم الكاتب معنى الصدق وبمعنى آخر لابد أن يتعلم كيف يصوغ التجربة التي يعاينها صياغة فنية ملائمة فيكون بذلك واعيا بطبيعة التشكيل الذي يضيفه على مادته حتى تصبح نابضة بالحياة والخيال والجمال . واذا كان سبيل التعرف على عمل أدبي لا يتم للمتلقى الا على أساس شرطين هما التذوق والتفهم فكذلك يمكن أن نشترط على الكاتب المبدع أن يلتزم نوعين من أنواع الصدق :

الصدق الشعوري من ناحية والصدق الفني من ناحية أخرى . . بمعنى أن الصدق الشعوري انما هو الذي يعبر عن وجدان الكاتب النابض بالأحاسيس المتباينة التي نملا جوانحه . . وبمعنى أن الصدق الفني انما هو الادراك الجمالي الذي نهتدى في ضوئه الى اسرار العمل الفني . فيمكن بذلك أن يقوم الكاتب بتوحيد العناصر وتأليفها تأليفا ديناميكيا متفاعلا .

وحين يتحقق معنى الصدق الشعوري ، والصدق الفني بين ثنايا العمل الفني انما يتحقق أيضا معنى الأداء النفسي الذي يعد مقياس الاصاله عند المعداوى .

الرؤية النقدية :

لهذا نقوم طبيعة الرؤية عند المعداوى على جانبين :
جانب خارجى وهو الذى يمثل مايترى على الحواس من معطيات .
حسبة تجرى فى عالم الواقع .
وجانب داخلى وهو الذى يمثل ردود فعل هذه المعطيات وما تتركه
من أثر فى وجدان الكاتب .

فمن هذا التلاقى بين التيار الخارجى والتيار الداخلى يمكن أن يستقى
الفنان عمله الفنى الخلاق . . هذا العمل الذى قد تكون وسيلة تحقيقه
الكلمة أو النغمة اللونية أو النغمة الصوتية . . ومهما تعددت وسائل
التعبير فهى لا تعدو أن تكون أداة تقوم بعملية التشكيل والبناء .

وفى ضوء هذا نلاحظ أن المعداوى كان لا يقف عند مفاهيم البلاغة
التقليدية التى صارت تجرى مع الزمن مجرى التوابت المقدسة فنجد
يتعدى هذا وينادى بأن الأدب إنما هو تمثيل ذاتى وليس تمثيلا لقوالب
السالفين . وهو أيضا بناء جميل وليس قطعة من بناء . . ولهذا لا ينبغي
أن يقف مفهوم الجمال عند حدود الكلمة المنمقة أو الكلمات ذات الأوزان .
والأنغام وإنما لابد أن يتسم الإدراك الجمالى بالسمة المعمارية بمعنى أن
الكلمة هنا لابد أن تكون بمثابة اللبنة التى تشارك فى ارتفاع البناء .

لهذا كان الفن عند المعداوى لا يعدو أن يكون نظاما تشكليا قد
يتخذ مادته البنائية من الكلمات أو الألوان أو الأصوات . . ومن هنا كان
هذا النظام التشكيلي فريدا مبتكرا فلم يكن وليد المقلدين ولم يكن محاكاة
أو أداء لفظيا .

وعلى الرغم من أن المعالم قد يبدو شائبا مضطربا للعيان إلا أن مهمة
الفنان هنا تتمثل فى اصفاء روح الصفاء والانسجام على الأشياء وحسبنا
أن ننظر الى معجزة الشكل الفنى الذى يبده الفنان، فنجد أن هذا الشكل
إنما يحمل فى جوفه النقائص والاضداد وأن الفنان من خلال قوته
الابداعية استطاع أن يؤلف بين العناصر المتنافرة واستطاع أن يوحد بين
الاحاسيس المضطربة بحيث أمكنه فى النهاية أن يعطى المتلقى تشكيلا
فنيا رائعا .

فلا غرابة أن نجد المعداوى يعيب على الحركة السريالية ايمانها
بتصوير عنصر النشاز فى العالم فيحدثنا فى هذا الصدد فى كتابه -
(على محمود طه) قائلا :

فى القصيدة الشعرية وفى اللوحة التصويرية وفى المقطوعة الموسيقية وفى كل عمل ىمت الى الفن بسبب من الاسباب ىحسن بالفنان ٠٠ بل ىجب عليه أن ىكون له مضمون ٠٠ هذا المضمون لابد له من تصميم ولا بد له من خط سير ، ولا بد له من خطوات تتبع خط السير وتعمل فى حدود التصميم ٠٠ ذلك لأن الفن فى كل صورة من صوره ىجب أن ىعتمد أول ما ىعتمد على تلك الملكة التى نسميها (ملكة التنظيم) ٠٠ وكل فن ىخلو من عمل هذه الملكة التى تربط بين الصور وتوفق بين الخواطر وتنسق المشاهد ٠٠ كل فن ىخلو من عمل هذه الملكة لا يعد فنا بل هو فوضى فكرية أساسها وجدان مضطرب وذهن مهوش ومقاييس معقدة وأبلغ دليل على تلك الفوضى الفكرية فى بعض ما نشاهده من آثار تنسب ظلما الى الفن هو تلك الحركة السريالية التى هبطت الى ميدان الشعر كما هبطت الى غيره من الميادين فعبئت بكل الأنظمة والمقاييس التى تطبع الفن .

على ضوء ما سبق ىتضح أن التصور الفنى ، عند المعداوى ، ىنبغى الا ىخرج عن حدود نظام الأشياء ٠٠ فقد ىكون الفنان قادرا على أن يصوغ الأشياء صياغة جديدة ٠٠ لكى لا ىنبغى أن نحطم ، من خلال هذه الصياغة العلاقات الصورية المنطقية التى نهتدى فى ضوءها الى معرفة الأشياء وبعنى آخر ىستطيع العقل أن ىجرد صور الأشياء وأن ىخلقها خلقا جديدا دون أن ىمس ادراكنا فى ذلك بالتشويه والتمويه .

لهذا كان العمل الفنى عند المعداوى أصدق تعبير عن مجرى الحياة فى اتساقها وتوافقها ٠٠ أو قل هو أصدق تعبير عن تجميل الحياة وتلوينها بالروعة والجلال .

وعملية الابداع عند المعداوى لا تعدو أن تكون ضرورة نفسية واجتماعية وانسانية ٠٠ وما العمل الفنى الا حصيلة خبرات الفنان ، وهو حين ىستجيب للحظة الابداع لا ىفعل أكثر من أن ىستولد ذاته .

وبذلك ىمكن أن نفسر الاستجابة لعملية ابداع على أنها نوع من التفريج عن الذات والتسرية عنها مما تعانیه من شحنات التوتر والضييق والقلق ٠٠ وبذلك ىمكن أن ىحقق العمل الفنى نوعا من التوازن بين عالم الفنان الخارجى وعالمه الداخلى ٠٠ وبالتالى ىمكن أن ىحقق الفنان – عن طريق ممارسة فنه – تكيفا وتلاؤما مع البيئة التى ىنتمى اليها .

تجربة الابداع الفنى :

ولقد كان المعداوى ينظر الى معاناة الفنان نظره تقدير ٠٠٠ فما الحرمان والضيقر والقلق الذى يعانیه الفنان فى حياته ، الا مدعاة للخصوبة والابداع وسببا من أسباب تفتق الذهن وشحن الخيال .

لهذا يحدثنا المعدادى فى هذا الصدد فى كتابه « نماذج فنية » بما يلى : (أن الحرمان .. أكثر اتارة لمكانم الشعور فى النفس الانسانية .. لقد كنت أرى أن الفنان الذى يعيش فى رحاب الحرمان يعيش متوثب الشعور دائما ، تلتهب أفكاره من وقدة العاطفة واشتعال الوجدان .. هناك حرمان يتمثل فى ذلك الأعمى الذى لم تشأ له الحياة أن يرى ضوء النهار ، وهناك حرمان يتمثل فى ذلك الأصم الذى حالت المقادير بينه وبين الانصات لموسيقى الطبيعة .. وهناك حرمان يتمثل فى ذلك المصدور الذى ينفت دما ولا يعرف طعم العافية الا من أفواه الناس .. نعم ، هناك « ملتن » يرسل أعذب أنغامه وأرق أغانيه وهو محروم من نعمة البصر وهناك « بنهوفن » يقدم سحر موسيقاه وهو محروم من نعمة السمع وهناك « كيتس » يبعث الى الصدور بدفء أشعاره وهو صاحب الصدر المحطم الذى لون قصائده بلون دمائه ، العبقريه ، قل أن نجد لها مثلا عند فنان سواه .. »

ولقد كان المعدادى تستهويه الشخصيات القلقة الحائرة فى عالم الأدب والفن . لهذا كان يضع هذه الشخصيات تحت مجهره النفسى فيعكف على دراسة بودلير وبلزاك ودوستويفسكى وأبى العلاء وعلى محمود طه وتوفيق الحكيم .

أنظر اليه وهو يحدثنا عن أبى العلاء المعرى فى كتاب (نماذج فنية) قائلا :

« ان شخصية أبى العلاء لتعد فى رأى أهم شخصية قلقة فى الفكر العربى كله .. ومن هنا يلذ لى أن أعود اليه .. أن الشخصيات القلقة تستهوينى دائما ، تستهوينى لأنها مصدر خصب من مصادر الدراسة النفسية .. ومن الخطأ - فى رأى - أن ينسب الباحثون أبا العلاء الى نزعة نفسية بعينها لينفرد بها وليقف عندها لا يكاد يتعداها الى غيرها من النزعات .. ذلك لأن أبا العلاء قد مال الى التفاؤل كما مال الى التشاؤم ، ونصح بالاقبال على الحياة كما نصح بالاعراض عن الحياة وآمن بالبعث كما أنكر إيمانه بهذا البعث وأوصى بالزهد فى نعيم الدنيا كما أوصى بالاغراق فى هذا النعيم .. أن الفراغ فى حياة أبى العلاء ولا شىء غير الفراغ .. وعلى هديه نلتمس العلة الأصلية لتلك الذبذبة النفسية ممثلة فى هذه الذبذبة الفكرية » .

ولنا بعد ذلك أن نسأل : أى لون من ألوان الفراغ كان يشكو أبو العلاء ؟ انها ثلاثة ألوان : فراغ النفس وفراغ القلب وفراغ الجسد .. ولك أن تردها جميعا الى الحرمان .. فنفس أبى العلاء كانت تشكو الحرمان من العطف وقلب أبى العلاء كان يشكو الحرمان من العاطفة وجسد أبى العلاء كان يشكو الحرمان من المرأة ..)

وأنظر اليه وهو يحدثنا عن قلق توفيق الحكيم صفحة ٨١ من نفس الكتاب :

« أول مزية من مزايا هذه الشخصية الفنية انها من الشخصيات النادرة التي تتمتع بحظ كبير من القلق النفسى وهو أول أداة من أدوات الكاتب . . القلق الدفين والشك الملح ، صفتان تجريان مجرى الدم فى طبيعة توفيق الحكيم النفسية . ومن هنا نجد شخصيته القلقة منعكسة بوضوح فى أكثر ما يكتب . . فشخصياته شخصيات حائرة قلقة مترددة ينذر أن ينتهى بها المطاف الى استقرار . . »

ومن الشخصيات القلقة التي تناولها المداوى بالدرس والتحليل شخصية الكاتب الفرنسى بلزاك فكان يقدره ايما تقدير بل كان يفضل على أى كاتب آخر حتى دستويفسكى وكثيرا ما كان يتبارى مع الكاتب الكبير عباس محمود العقاد فى هذا الصدد . . فقد كان العقاد يؤثر دوستويفسكى على بلزاك ويعتبره القمة الشامخة .

ولقد نالت شخصية الشاعر على محمود طه حظا كبيرا من الاهتمام عند كاتبنا القدير . . فانظر اليه وهو يحدثنا فى كتابه (على محمود طه) عن طبيعة هذا الشاعر :

« لقد كان الشعور الطبيعى عند محمود طه هو الشعور بالوحدة والشعور بالغربة والشعور بالحرمان ، ولهذا أكثر من الحديث عن نفسه وأسهب وأفاض فى شعر ينبعث من أبياته اللوعة ، ويتدفق الأسى وتنطلق مواكب الأحزان . . ولا غرابة اذن حين يصدق فى مثل هذا الشعر وحين يكثر منه لأنه ثمرة احساس مرهف بوجود نفسى عاش فيه ، أو بواقع نفسى غمر بظلاله القاتمة كل نفضة من نفضات العاطفة حتى حصرها فى نطاق معلوم هو نطاق الطواف بالتعبير حول محور الذات الانسانية ! » .

من هنا أجاد على طه فى كل مناسبة تتصل بنفسه .

وأنظر اليه وهو يقارنه بالشاعر الفرنسى بودلير فى نفس الكتاب صفحة ١٧ :

(لقد تعرض شاعرنا المصرى - فى بعض مراحل حياته لكثير من هزات القلق والاحساس بالضيق ولكنه - على النقيض من بودلير - كان واضحا فى قلقه كما كان واضحا فى ضياعه ، بالنسبة للدارسين - اما بودلير فهو شاعر مضيق يحرك يديه ليثير من حوله الزوابع والأعاصير رجل عاش ولكنه لم يستطع أن يفسر لنا تلك الحياة التي عاشها ولا أن يكيّف لنا هذا الوجود الذى خلق فيه . . . رجل كون مزاجه بنفسه واختار مصيره برضاه ثم

خائنه القدرة على أن يخرج من أخطائه وآثامه بمذهب يحدد ذاتيته في زحمة الوجود أو يبرر مكانه في طريق الحياة !! ٠٠ هذه الشخصية الغريبة المتقلبة تحتاج الى مفتاح يعالج أبوابها المغلقة ٠٠)

لقد استطاع المعدادوى أن يقدم إلينا كتابا قيما عن شاعرنا المصرى (على محمود طه) ٠٠ وهو دراسة مستفيضة عن أبعاد شخصية الشاعر وطبيعة الحياة التي كان يحياها وطبيعة الشعر الذى أبدعه .

ونحن نستطيع أن نلمس ، بين تنايا هذا الكتاب ، مدى التعاطف الذى كان قائما بين الشاعر على محمود طه والناقد أنور المعدادوى . والحق أن كاتبنا قد أشار فى أكثر من مناسبة الى الصداقة الوطيدة التى كانت تربطهما ٠٠ وحسبنا أن نذكر بعض الشذرات فى هذا الصدد لتوضح مدى العلاقة الوثيقة التى كانت بينهما .

ففى ذات يوم حدث بينهما لقاء على ضفاف النيل وقد جرى بينهما هذا الحوار :

على طه : انظر الى هذا البيت الجميل الذى يقام فى أحضان الزهر ٠٠ ذلك البيت الأنيق الذى يستحم فى مياه النهر ٠٠ هذه يا صديقى هي الأبيات ٠٠ الأبيات التى أقامها السعداء على دعائم الواقع ٠٠ أما أبياتنا نحن الشعراء فقد أقمناها على دعائم الخيال !

أنور المعدادوى : بالله حسبك ٠٠ انها أبيات من حجارة وطن ، سيعيش أصحابها نكرات ويموتون كذلك ٠٠ وستمتد إليها يوما يد البلى فلا يبقى منها حجر ولا أثر ! أما أبياتك وأبيات الموهوبين من أمثالك فهى من نفس وروح ٠٠ لن تبلى لأنها ستعيش فى الضمائر والقلوب وسيعيش أصحابها ما نطق لسان وما كتب قلم ٠٠ انك يا صديقى تعكس القضية ٠٠ أن أصحاب الفن هم أصحاب الواقع ٠٠ لأنهم أصحاب الخلود !

على طه : (ساخرا) أصحاب الفن هم أصحاب الخلود ؟!

أنور المعدادوى : يا أخى ما أكثر طمعك ! الا يكفيك انك ملء السمع والبصر فى كل مكان .

على طه : كلمات يسمعها الشاعر من الناقد ٠٠ ما دام على قيد الحياة ٠٠ فاذا مات قبض الناقد قلمه عن تقويم شعره واكتفى بكلمة رثاء !

أنور المعدادوى : (ضاحكا) اذا مت قبلى فلا تخف سأكتب عنك مقالا !

على طه : (غارقا فى الضحك) وأنت أيضا لا تخف ٠٠ سأرثيك ببيت من

الشعر ان مقالا واحدا من الكاتب لا يستحق غير بيت واحدا من الشاعر) !

ولقد كان المعداوى وفيما لصديقه فهو لم يكتف بالمقال الذى رثاه فيه على صفحة الرسالة وانما نجده يؤلف كتابا يضم أشعار على محمود طه متناولا هذه الأشعار بالبحث والدرس والتحليل ٠٠ ملقيا الضوء على طبيعة الشخصية التى ينتمى اليها الشاعر من الوجهة النفسية والاجتماعية والنقائية والانسانية ٠٠ وكيف نحتت هذه الشخصية من التصورات والأحاسيس التى كانت تسود عصره ٠٠ وكيف ان احساس الثقافة والتشاؤم انما هو الذى كان يغلب على شعر على محمود طه .

رسالة الأديب هي رسالة الحياة :

ومن هذا الحوار أيضا يمكن أن ندرك مدى الاعزاز الذى كان يحمله المعداوى لأصحاب الأقلام ٠٠ فقد كان يثق أن كلمات الأديب انما هى أقوى من الجاه والثراء ومتاع الدنيا ٠٠ وأن رسالة الأديب انما تتمثل فى اعطائه قوة معنوية هائلة تثرى الحياة وتعمقها وتجدهما .

ولهذا كان الأديب عنده أشبه بالمتصوف الذى يكتفى بذاته ولا يبتغى من أسباب الحياة سوى ما يحفظ كرامته فلا يريق ماء وجهه أمام الاحتياج ٠٠

والحق أن أنور المعداوى قد ضرب المثل فى ولائه لقلمه ٠٠ فكان أزهد ما يكون فى المناصب الحكومية وأزهى ما يكون فى السعى وراء التكاليف المادى فقد وهب حياته لخدمة الادب والقضايا الأدبية ، فكان صادقا حين عبر عن نفسه ٠٠ وحين عبر عن الآخرين .

فلا غرابة أن يطالب الفنان بأن يكون تلقائيا صادقا ٠٠ ولا غرابة أن يستهجن فى العمل الأدبى عناصر الزيف والاصطناع والافتعال ٠٠ فقد كان لا يبحث عن الزخرفة والمحسنات اللفظية بقدر ما كان يبحث عن اللغة الباطنة التى تنبع من أغوار النفس وصميم الوجدان .

ونحن حين نعود بالذاكرة الى ما قبل عشرين عاما ، ونلقى الضوء على صفحات مجلة (الرسالة) ٠٠ نجد ذلك السطور التى سجلها أنور المعداوى لتكشف النقاب عن موهبة الكاتب الكبير نجيب محفوظ ٠٠ فقد كان ، كاتباً يستعذب أدب نجيب محفوظ وكان أهم ما يجذبه اليه انما هو تلك السمة النفسية التى تتميز بها شخصيات محفوظ ٠٠ فقد استطاع هذا الكاتب أن يقدم الينا نماذج فريدة من الشخصيات لا يمكن أن تمنح من الذاكرة .

ولقد كان نجيب محفوظ يلقي اهمالا وجحودا من النقاد رغم أنه كان يقف على قدميه فقد أبدع ، حتى ذلك الحين ، كفاح طيبة ورادوبيس وخان الخليلي والقاهرة الجديدة وزقاق المدق والسراب .. ولقد كان يلام عليه اسرافه الشديد في حشد الجزئيات المادية التي تصيب العمل القصصى بالحرفية وعدم الشفافية .. لكن أنور المعداوى كان يتجاوز هذه الهنات جميعا فلا يقف عندها وانما كان يتخطاها واثقا بإمكانيات نجيب الفنية نجاحا وتقدما .. ذلك لانه فن لا يقف فى مكانه ثابتا جامدا وانما أهم ما يميزه انما هو ذلك المسار الديناميكي النامى .

لهذا رأيناه يستقبل « بداية ونهاية » بترحاب بالغ .. أنظر اليه وهو يحدثنا عنها فى كتاب نماذج فنية ..

« بداية ونهاية » .. دليل ماذى لا ينكر . على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فنى كامل .. لقد حقق نجيب فى هذا العمل القصصى، عنصر الالتزام لحدود الواقعية وعنصر التدنوق الشعورى الكامل للحياة وما يتبعه من ادراك عميق للتجربة النفسية وعنصر التلوين الخاص للأسلوب القصصى وما يعقبه من اثاره الشعور فى الموقف الانسانى .. كل هذه العناصر قد توفرت فى قصة « بداية ونهاية » .. فاذا بهذه القصة الممتازة تعد فى رأى النقد عملا فنيا كاملا لا مثيل له فى تاريخ القصة المصرية .. وبعد فقد كشف المعداوى بكتاباتة ، عن أمور شتى تتعلق بالفن والأدب والنقد .. فاثار فى هذا الصدد مشكلات عديدة .. لكن كان جهده فى ذلك لا يتخطى حدود اثاره هذه المشكلات فلم يستطع أن يضع لها حولا جذرية ... ولم يستطع أن يصوغ من خلال تفكيره الأدبى نظرية نقدية يمكن أن تحدد لنا الرؤية بوضوح ، فى مجال الظواهر الأدبية .. فكل ما قيل عن الأداء النفسى والصدق الشعورى والصدق الفنى ، كلام لا يمكن أن نخلق منه نسقا .. فكريا مكتمل البناء .. كل ما نستطيع أن نقوله أن موقفه كان أشبه بمن (يعكر ولا يصطاد) .. أو أشبه بمن يثير الشك فى تلك الثوابت المقدسة التى كانت تسود مناخنا الفكرى والأدبى فتعوقنا عن الحركة والنمو والتقدم .

ومهما يكن من أمر فنحن ندين للمعداوى بهذا الفضل فقد كان يمثل بصدق ، مرحلة التمهيد التى أعقبتها مرحلة التشييد .

أحمد شوقي الشاعر

عرفنا أحمد شوقي ، أميرا للشعراء فهو يكتب في كل موضوع وهو
يجود شعره ويحذقه حيث يتناول فيه مفاهيم أخلاقية وإنسانية واجتماعية
وسياسية . . مفاهيم شتى مختلفة مثل الحرية ، والوطن ، والأمة ،
والدستور ، والجندي المجهول وقناة السويس والأهرام . والشمس والموت
والحياة ، والشباب والحير والظلم والقلب والشمس والأمس واليوم والغد .

لكننا نعرفه هنا أديبا ناثرا ، فله نتاج من النشر الفصيح الرائق ،
المسلسل السياق وهنا نذكر كتابه أسواق الذهب الذي نشره عام ١٩٢٢
عن طريق دار الهلال وهو كتاب يضم مجموعة من المقالات لعدد من
موضوعات شتى ، لا أغالى ان قلت أنها نفس الموضوعات التي صاغها شعرا .

وواضح أن المقال هنا أشبه بالسطور النثرية تتواتر كأنها فيض الخاطر
أو اذا أردنا الدقة في التعبير ، فأحمد شوقي يكتب المقال كأنه نزوة عقلية
حيث تنثال في ثناياه الأفكار والصور الطريفة منتظمة واعية ، وبإدراك
منطقي واستبصار عقلاني، فلا يغيب عن المعنى المقصود ولا يحيد عن الغرض
والهدف الذي يسعى إليه .

وواضح أن (أحمد شوقي) قد تفقه في اللغة فاهم ما يمتاز به أمير
الشعراء انما هو سيطرته على الألفاظ العربية . . فهذه الثروة اللغوية
الهائلة التي تربي عليها جعلته قادرا على الابداع في شتى الأغراض . فهو
يدرك صلاحية هذه الألفاظ وحتمية ورودها في سياق القصيدة . وقد
نحمله على هذا التفقه الكبير في اللغة العربية ، لكن كنت أؤثر أن تتواضع
حساسية الشاعر بالألفاظ التي يغلب عليها الهجرة والاغراب . كنت أود
أن يكون شاعرنا أكثر تواضعا وأكثر بساطة ذلك لأن أسلوبه هنا شعرا
أو نثرا أسلوب عربي فصيح متحجر غريب عن الفهم والادراك ، كنت أتمنى
أن يقدر شاعرنا على مخاطبة كل العقول وأن يخاطبهم على قدر عقولهم .

والحق ان أحمد شوقي كان شاعرا فحلا فريدا فقد جرى على منوال ما ندعو اليه لكن في قصائده البسيطة التي هي أشبه (بالقطايق) التي يتغنى بها (محمد عبد الوهاب) في أغانيه الشجية يقول أحمد شوقي في مقدمة كتاب : (أسواق الذهب) .

وبعد فهذه فصول من النثر ، ما زعمت انها غرر (زياد) ٠٠ ولو توهمت حين انشائها الى صنعة (أطواق الذهب) للزمخشري (١) أو طبعة (أطباقا لذهب) للأصفهاني واني سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميهما ووسمته بما يقرب في الحسن من وسميهما وانما هي كلمات اشتملت على معان شتى الصور وأغراض مختلفة الخبر ، جليلة الخطر ، منها ما طال عليه القدم وما شاب على تناوله القلم ٠٠ ومنها ما كثر على ومنها ما كثر على الألسنة في هذه الأيام وأصبح يعرض في طرق الأقلام وتجري به الألفاظ في أعنة الكلام ، مثل الحرية والوطن والأمة والدستور والانسانية) .

الوطن ٠٠ يقول في هذا الصدد : (حب الوطن والتفاني في سبيله سجية كل نفس كبيرة ، وقد أوحى هذه العاطفة بأعظم ما حفظه لنا التاريخ من المآثر وجليل الأعمال وأبلغ ما جادت به القرائح من روائع الآيات والأقوال .

ولقد طالما أشاد المؤلف في شعره بذكرى الوطن وتغنى بوصف آثاره الخالدة بقصائد يضمن لها بلاغتها من الخلود ما لتلك الآثار ولطالما استخلص من بيانه سحرا أحيا مفاخر الآباء والأجداد فبعثها من لحد الأجيال الغابرة تتمثل عظمتها وروعها للأبناء والأحفاد .

لم يقف المؤلف من آثار وطنه وقوف العرب على الأطلال يبكيها ويرثيها بل مسحها بدموع قلبه ليحييها ويستوحيها ٠٠ فجعل من تغنيه بما كان من المفاخر للوطن في الغابر من الزمن ٠٠٠ وهذه القطعة من الشعر المنشور أنشودة عذبة للوطن جمع فيها كاتبتها جميع الأنعام التي يثيرها ضرب الوطنية الصادق على أوتار الوطن موضع البلاد ومجمع أوتار القواد ومضجع الآباء والأجداد ٠٠ والوطن مستودع المفاخر وصوان المآثر .

ينتقل أحمد شوقي نقلة أخرى هي الجندي المجهول ٠٠ أنظر اليه وهو يقول :

تكريم الجندي المجهول : فكرة أوحى بها الرغبة في تمجيد البطولة الصامته والبطولة التي تعمل في الخفاء ٠٠ ولعل هذه الفكرة أجمل ما ولدته

(١) وهما كتابان من كتب المقامات .

الحرب الكبرى من أفكار ٠٠ ثم نراه يواصل حديثه في هذا الشأن فيقول:
(من هو الجندي المجهول ؟ وما هي حكايته ؟ أسمع تلك الحكاية ففيها عبرة
وذكرى ٠٠ لقد أودت الحرب العالمية الكبرى بآلاف الآلاف من الجنود
البواسل ٠٠ وكل منهم يدافع عن قومه وبلاده فسجلت أسمائهم على ألواح
من البرونز وقطع المرمر تخليدا لذكورهم ولكن هناك من بينهم مئات الألوف
ما نوا كذلك ميتة الأبطال ولكن أسمائهم ضاعت لأن جثثهم الممزقة اختلطت
بجثث رفاقهم فلم يكن من سبيل الى تبين شخصهم أو تحقيق هويتهم ،
لذلك أرادت فرنسا وحذت سائر الدول حذوها - أن تتخير واحدا من
هؤلاء المجهولين الى ذروة المجد وتقيم له من معالم التكريم ما لم تقمه لأكثر
الغزاة الفاتحين فتكرم في شخصه المجهول مئات الألوف من الأبطال الذين
تنكرت بجثثهم على الناس ٠ هذا منشأ تلك الفكرة النبيلة ٠ فاسمع الآن
كيف كان تنفيذها في فرنسا : كانت موقعة : (فردان) أعظم موقعة دارت
رخاها بين أعظم جيوشين في العالم دامت شهورا طوالا وسالت فيها مهج
مئات الألوف على شظايا القنابل وطبى السيفوف حتى أصبحت أرجاؤها
جبانة مترامية الأطراف ومن القتل الراقدين في ثراها تقرر اختيار الجندي
المجهول فأخذوا من أنحاء ذلك الميدان العظيم ثمانى جثث لم تعرف لمن هي
٠٠ اختاروا ثمانية من بين خمسمائة ألف قتيل ووضعت كل جثة فى نعش
ونقلت النعوش الثمانية فى ليل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٠ الى حصن (فو)
حيث أوقدت حولها الشموع وقامت الجنود تحرسها ثم تقدم القائد وأشار
الى أحد الجنود ٠٠ جنود الفرقة ١٣٢ فخرج الجندي من الصف ودفع اليه
القائد باقة من القرنفل الأبيض والأحمر وقال له أن يدور دورتين حول
النعوش حتى عزفت الموسيقى بنشيد « المرسلين » ورفع الضباط سيوفهم
للتنحية ٠٠ ومن تلك الدقيقة أصبح الراقد فى ذلك النعش مثال التضحية
والتفانى وصار تكريمه تكريما للمليون ونصف المليون من الجنود الذين
قتلوا فى الحرب دقاعا عن فرنسا وطنهم ٠ ثم نقل ليلا الى باريس وفى
اليوم التالى أقيم احتفال ندر أن شهدت تلك العاصمة العظيمة ، ما
يضارعه فخامة وإبهة وتأثيرا فى النفوس مشى فى موكبه الوزراء والقواد
ورجال الدولة وعشرات الألوف من الناس تتقدمهم ٨٠٠ راية من رايات
فرق الجيش المختلفة ، حتى وصلوا به الى « قوس النصر » حيث قام ضريحه
وعلى أثر ذلك أصبح الآباء والأمهات والأزواج والأخوات يحجون الى هذا
الضريح وكل يعتقد أن فيه ابنا أو زوجا أو أخا وما زار باريس ملك أو
وزير أو كبير الأعداء من أول فروض المجاملة زيارة قبر الجندي المجهول
وتحيته ووضع الزهر عليه) ٠

وما كان للمؤلف أن يترك مثل هذا الموضوع بلا جولة لحياله فيه وقد
أراد أن يضع زهرة من زهراته الرائعات على ضريح الجندي المجهول فكتب

هذا الفصل الذى عرضنا له وفى صفحة ٣٧ يحددنا أحمد شوقي عن الذكرى ويعتبر هذه الكلمات بمثابة قصيدة من الشعر المنشور تغزل فيها بالحرية وأهداها الى صديقه مصطفى كامل بمناسبة ذكرى وفاته أنظر اليه وهو يقول :

(اذا أحرزت الأمم الحرية ، أنت السيادة من نفسها وسعت الامارة على رأسها . وبنيت الحضارة من أسها ، فهي الأمر الوازع ٠٠) ثم نراه يقول عن الشمس :

(سل الشمس من رفعها نارا ونصبها منارا وضربها دينارا ومن علقها فى الجو سائلة يدب عقرباها الى يوم الساعة ؟ ومن الذى آتاها معراجها وهداها ادراجها) ثم يقول عن الزمن : (الزمان هى سبب حصوله ولد على ظهرها (١) ولعب على حجرها وشاب فى طاعتها وبرها ، لولاها ما اتسقت أيامه ما انتظمت شهوره وأعوامه ، واختلف نوره وظلاله ، ذهب الأصيل من مناجمها والشفق يسيل من محاجمها تحطمت القرن على قرينها ، ولم يعمل تطاول السنين بسنها ولم يمح التقادم لمحة حسننها ، أتت دونها الأيام وهى كعاب (٢) فى عرب الشبابة ، تصبح ببرز من حجاب وتمسى تتوارى بحجاب ، طالما ردت الغربان حمائم ونسجت الثلاث عمائم (٣) وعزلت الأكفان لحي فان ، قامت على غير قدم ، حتى طال عليها القدم ، وقيل ما لهذه عدم ، كلا لتحزن عمادا (٤) ، ولتذهبن رمادا ، وليبعثن الله جمادا (٥) .

ثم نراه يحددنا عن الخير فيقول فى صفحة ٥١ من الكتاب :

(شجرة مرآها جميل ظلها مقبل وأعالها هديل وهى مذلة السبيل ، الطير على جوانبها تميل ، والناس فى ظلها الظليل ٠٠ وأما الطير فتنزل مجملات وترحل غير مجملات ، تسقط مشفقات وتلتقط مترفقات وتسدو بشكر الصنيع منطلقات ٠ وأما الناس فلا يتندن فى الثمرة ٠٠

يهزون أصولها بعنف وينفضون فروعها بغير لطف ٠٠ يساقطون الجنى بصرف العصا ويستنزون الثمر برمى الحجر ٠٠) وانظر اليه وهو يتحدث

(١) يعنى الشمس ص ٧٥ .

(٢) كعبت الجارية : شهد ثوبها وهى كعاب .

(٣) العمائم الثلاث : كناية عن شعر الشباب الأسود واختلاط السواد بالبياض ثم

البياض فى الشيوخ .

(٤) لتقطن .

(٥) رأى يبعث على أثرها من العظام أحياء .

عن الصبر (بعض الصبر تجلد ، وتم الحام والرضا وبعضه تبدد رهنا العجز والاستعداد ليس الصبر غلظة القلب وبلادة اللب أو الجول على الأقدار انما الصبر استرجاعك فى النفس الحزينة حتى تفى الى السكينة والطمأنينة) .

ثم يحدثنا عن الأهرام فيقول : (ما أنت يا أهرام ؟ أشواحق اجرام أو شواهد اجرام (١) وأوضاع معالم أو أشباح مظالم ؟ وجلائل أبنية وآثار أم دلائل أنانية واستثنائات وتمثال منصب من الجبرية أم مثال ضاح من العبقرية ؟ وتعلم فان الآثار مدارس ٠٠ هذه الحجارة حجور لعب عليها الأول وهذا الصفايح (٢) صفائح ممالك ودول) ويتحدث فى الكتاب عن ظاهرة النقد فيقول :

(علوم الأدب وفنونه توارثه الأواخر عن الأوائل فى قديم كريم والد من رأس مال الحضارة فى فأخذته حضارتهم) .

ثم يحدثنا عن الزهرة فيقول فى صفحة ١١١ : (صورة الرقة ورمز العاطفة وهيكل الخير والحب والجمال ٠٠ قديما أولح بها الناس وقديما ظلموها ٠٠ أما هى فطالما ملأت حداثتهم بهاء وحسنا وحجراتهم زينة وطيبا وجملت عرى نياهم وحسنت أغراسهم وولائمهم فكانت منصة للعروش واكليلا وشارة للمائدة ومنديلا ٠٠٠) ويقول عن الساقية :

(أصوات السواقى فى سماء الليل وعلى فضاء الريف أم تنعيم الملائكة فى الأراغيل أم خوار الثور خرج من الأرض وقد أخذه الضجر وناء قرناه بذنوب البشر ، نعم كالتفخ فى الغاب ، طبيعة قادرة ساخرة لها فى كل شئ موسيقى حتى فى الليف والخشب فيها قينة الأجيال ما هذه الدموع الفواجر التى لم تعرف من شئون ولم ترسلها محاجز ؟ وما هذه الضلوع الهاتفة بالشكوى ، الصارخة عن البلوى وما عرفت الهوى ولا باتت ليلة على الجوى ؟ حديثنا عن القرون الأولى ، قرون خوف ومينا) .

هذه كلمة موجزة عن كتاب الأسواق الذهب الذى كتبه الشاعر أحمد شوقي نثرا فأزجو أن يفيد القارىء من هذه الكلمة الموجزة .

(١) يشير الى ما ارتكب من جرائم فى عهدنا .

(٢) الصفايح - الحجارة .

ابراهيم عبد القادر المازنى وروح السخرية

أصحيح أننا - وفي زحمة الحياة ، وفي ضجيج مشكلاتها - قد غابت عنا صور الأديب الكبير ابراهيم عبد القادر المازنى ، فلم نعد نحفل به ، أو نهتم بآثاره فى دنيا الادب !!؟

أرجو أن أكون مخطئا فى هذا التصور . . ذلك لأن المازنى كان عملاقا فريدا ، وكان رائدا فذا ، وكان عظيما فى عزوفه عن الحياة ومباهجا ، الحياة ، المادية المحسوسة التى لا تعرف الا المصالح والمنافع والمآسى . لكن علينا أن نقف لحظة ولنتأمل بعمق مآسر تلك اللهجة الحزينة والنبرة المؤسسية الساخرة التى صاحبت كتابات المازنى منذ بدء طريقه فى عالم الأدب والحياة والناس ؟

لعل من أسباب تلك النبرة الحزينة المؤسسية ان المازنى قد ولد فى ١٩ أغسطس عام ١٨٩٠ ، أى فى أواخر القرن التاسع عشر فى أسرة متوسطة ، ومات أبوه وهو صبى ، وكانت الأسرة تسكن فى أطراف العاصمة بالقرب من المقابر ، وان المازنى عاش صباه وشبابه ومصر لا تعرف لها وجهة ، ولا تدرى أين يستقر بها الحال ، بين قوة الاستعمار ، وبقايا الأتراك ، وضبعة الشعب الفقير .

ولعل من أسباب تلك النبرة الحزينة المؤسسية الساخرة ، ان (المازنى) اطلع وهو فى مدرسة المعلمين العليا على تراث الرومانتيكيين الانجليز الحزين ، شيللى ، وكيثس ، وبيرون الذين قادوه الى منبع الحزن الأصيل فى أدب الغرب .

ولعل من أسباب تلك النبرة الحزينة الساخرة ان (المازنى) قاهرى ابن بلد من سكان المدينة الكبيرة الخالدة ، وابن البلد المصرى هو نموذج السخرية المريرة ومن ثم ، كان (المازنى) من أشد الأدباء تأثرا بفلسفة

العدم والتشاؤم ولعل أسماء كتبه التى اختارها تنم عن الون فلسفته
العدمية وهى (حصاد الهشيم) ، و (قبض الريح) ، و « خيوط
العنكبوت » .

أقول ولد (المازنى) فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٠ ، وتوفى فى
١٠ أغسطس سنة ١٩٤٩ ، وسجل فى مؤلفاته الشعرية والنثرية كل
ما أصابه فى حياته بين هذين التاريخين ، بحيث تعتبر مؤلفاته أصدق
مرجع لتاريخ حياته ، حتى يمكن القول ان حياة المازنى هى كل نتاجه
الأدبى . سواء كان شعرا أو نثرا سواء كان قصة أو مقالا . .

كان شاعرا ملهما فى صدر شبابه ، لكن سرعان ما تغيرت حياته ،
وبالتالى تغير منحى تفكيره ، فتمثل فى كل مقالاته وقصصه ورواياته . .
فهو هنا المازنى الساخر المتهمك على دنيا الناس وأحوال الحياة .

ولعل من أسباب سخريته وضرته الحزينة المؤسسية ، انه كان قصير
القامة ، ضئيل الجسم ، أعرج القدم وخيل اليه أنه قمى دميم ، فضلا
عن معاناته من زوجه وسوء الفهم المتبادل بينهما والآلام المريرة التى
تكبدها زهاء ثلاث سنوات ، انتهى به الأمر الى كتابة مسرحية عن حياته
الفاشلة مع هذه الزوجة الفاشلة وسمى هذه المسرحية : (بيت الطاعة) .

اذن ، لا غرابة أن يؤثر فى صدر شبابه ابداع الشعر . . ولا غرابة
أن يؤلف هو وعبد الرحمن شكرى والعقاد مدرسة سموها (مدرسة
التجديد) حيث كانوا يبدعون الشعر الحديث على أسس جديدة ثم
يتناولون انتاج الشعر التقليدى بالنقد الضعيف .

تخرج المازنى فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩٠٩ فى دفعة محمد
فريد أبو حديد ، ومحمود فهمى النقراشى ، وانتقل مدرسا للتاريخ
بالعبودية الثانوية ، ثم الحديوية الى أن نقله حكمت باشا وزير المعارف
آنذاك الى دار العلوم لتدريس الانجليزية للطلبة المبتدئين الذين لا يعرفون
من تلك اللغة شيئا الأمر الذى جعل المازنى يفضب ويتبرم بهذا النقل ،
وحسب أن نقده لشعر عبد الرحمن شكرى ثم شعر حافظ ابراهيم كان
سبب هذا النقل الانتقامى الذى زاده سخطا على الوظيفة الحكومية حتى
انتهى به الأمر الى الاستقالة عام ١٩١٣ .

راح المازنى يعمل بالتدريس بالمدارس الحرة كمدرسة وادى النيل ،
والمدرسة المصرية الثانوية التى أعلنت افلاسها عام ١٩١٧ ، وكان ذلك
إذنا يتوقفه عن وظيفة التدريس وانتقاله الى عالم الصحافة .

طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن شكرى والعقاد :

لقد راح يزامل طه حسين ومحمد حسين هيكل وعبد الرحمن شكرى وعباس محمود العقاد الذين كانوا يكتبون وقتذاك فى (الدستور) و (البيان) .

منذ تلك التاريخ راح المازنى يزاول تلك المهنة الشاقة .. وهى الصحافة التى تشبه ذلك البرميل المثقوب القاع الذى زعم الاغريق أن الآلهة قضت على بعض المغضوب عليهم أن يملأوه ، فأنفقوا حياتهم دون أن يصلوا الى هذا الهدف .

تزوج (المازنى) من سيدة عاش معها ست سنوات مليئة بحرارة الحياة وأنجب منها بنتا وماتت الزوجة ثم ماتت البنت ، لكنه تزوج مرة ثانية ، وأنجب ثلاث أولاد منها وبنتان كانت قد توفاهما الله .

الكتب التى ألفها :

كان حصاده من الكتب التى ألفها انما هو سلسلة المقالات التى جمعها فى بعض كتبه منها حصاد الهشيم عام ١٩٢٤ ، وقبض الريح عام ١٩٢٧ ، وصندوق الدنيا عام ١٩٢٩ ، وخيوط العنكبوت ١٩٣٥ ، كما صدر له بحث عن شعر حافظ عام ١٩٢١ ، ثم كتابه : أحاديث المازنى وكتابته : فى الطريق وروايته : ابراهيم الكاتب ، وبراين الثانى .. وكتابه : (على الماشى) ، و (من النافذة) وغيرها .

لقاؤه بأحمد شوقى : وكم وجه المازنى توصياته ، وارشاداته الى الشباب ، ففى كتاب : أحاديث المازنى نراه يوصى الشباب بتعلم اللغة العربية وأصولها وقواعدها يقول فى هذا الشأن : (ومن هنا أذكر أن شابا مصرياً جاءنى ذات يوم يشكو الى المرحوم أحمد شوقى الشاعر ويقول انه ذهب اليه يستشيريه فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية فأشار شوقى عليه بدرس كتابين ، وجدهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة فاعتقد انه أضاع المال هباء مننورا وأن شوقى أخطاه التوفيق ، فقلت له ان شوقى لم يخطئ التوفيق فان النحو والصرف لابد منه ولا غنى عنه، ولعل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها ولا معدى عن الاحاطة بذلك أن كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة والا فكيف تكتبها وأنت لا تعرف أحكامها وقواعدها ؟

فاعرف لغتك أولا وادرس أدبها ثم عالج ما شئت بعد ذلك من فنون الكتابة) .

انه يسأل نفسه فى قصة ابراهيم الكاتب : (ما الحسن والقبيح ، وما الحزن وما السرور ؟ وما الخير والشر وما الاحساس والعقل ؟ ، والخصب والجذب ، والصحة والسقم واليأس ؟ والأمل والبكاء والضحك ؟) .

وقال المازنى فى مقدمة (صندوق الدنيا) : (كنت أجلس الى الصندوق أيام طفولتى وأنظر الى مافيه ، فصرت أحمله على ظهري وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها ، يحسن ان يستوقفنى نفر من أطفال الحياة الكبار فاحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا بملايم قليلة ، يجودون بها على هذا الأسعت الأغبر ، الذى لا أزال أجمع له وآخذ وما فتئ السؤال الأبدى منذ حملت صندوقى) .

ولئن وجهنا آذاننا لنسمع صوت المازنى الناثر الساخر أو صوت المازنى الشاعر المتبرم الساخط الشاكى من الحياة ومن مجيئه اليها ، فأننا لن نخرج الا بنتيجة واحدة هى ضيقه بهذه الحياة وتبرمه من ذلك الجهد الدائم الذى لا يعرف رحمة ولا هودة ، مقابل مليمات قليلة . قد يجود أو لا يجود بها أولئك الأطفال الكبار الذين يلهون بالنظر من (صندوق الدنيا) الذى حمله المازنى على ظهره سنين طويلة الكى يرفه به عن الناس مقابل لقمة العيش التى يتناولها معجونة بعرق جبينه وبدم حياته .

فى كتاب : أحاديث المازنى وتحت عنوان من دروس الحياة نراه يسكن ويهدأ وتخمد ثورة الشباب فى نفسه فيقول : (أول ما علمتنيهِ الحياة أن نتلقى كل حال بالتسهل والرضى وأن آكون فى كل ساعة كما تشاء الساعة ، فأقصر همى على ما أنا فيه ، وما تأملت وجوه العيش وأحوال الدنيا الا تبسمت سخرًا من نفسى ، ومن الناس ، والا بدا لى أننا أطفال صغار أغرار وان ارتفعت السن وشاع الأبيض فى الأسود ، تعاملنا الحياة كما نعامل نحن صغارنا فتريحنا تارة ، وتؤدبنا طورى ، وتهزل معنا مرة وتجد أخرى . . . وتعلمت ألا أطلب أحدا بأن يذهب مذهبي أو يصدر عن رأيى ، فان هذا المطلب مطلب بعيد المنال وعندى أن الأدب فردى وقواده خصائص الفرد ومواهبه ومبلغ حريته فى التعبير عن نفسه ولا غنى عن شرط الحرية والا ذبل ومات . . . ولقد فرضت ألمانيا وإيطاليا فى هذا العصر فلسفة معينة على شعبيهما وجعلتا من البلدين تكتنين ومن الأمتين جنودا . . فكانت النتيجة أن صارتا دولتين حربيتين ، ولكنه لم ينبغ فيهما شاعر من الطبقة الأولى ولا كاتب عظيم ، ولا فيلسوف عبقرى . . من أمثال الذين نبغوا فى العصور السابقة أو فى الأمم الأخرى

التي ينعم فيها الفرد بحريته الشخصية ، ولا يحول فيها حائل منها دون التعبير الصادق عن النفس) .

ولم يفت المازني أن يعدد قيمة اللغة الأجنبية بالنسبة للناس . وعلى الخصوص الأدباء منهم ، فهي تفتح لهم نوافذ الثقافة العالمية على مصراعيها . . . تماما كما فعل العرب باللغة اليونانية ، التي عرفوا بها الفلسفة الاغريقية .

وبعد لقد صارت المرادة عنده أشبه بالمذاق العلقم . . فلم تبتسم له الحياة وإنما واجه الموت أربع مرات . . أبوه . . . وأمه . . . وإبنتاه . . . وأنه عانى في حياته كثيرا . . وما أصعب معاناته وهو يرى كتبه تباع أمامه كتابا كتابا . . يقول في هذا الشأن :

(لقد ظل احترامي لكتبي حتى احتجت في سنة أن أبيعها ، وشدق على ذلك في أول الأمر ، وكنت لا أكاد أطيق كلما نظرت الى الرفوف التي خلت مما كان عليها . . انى فقدت أقرب الناس الى وأعزهم على وأسعر انى مشرف على البكاء اذا لم أحول عيني عن هذه الرفوف الخالية ولم يكن ما أحسر عليه زينتها ، وما صنعتها فيها من مال خسرت بالبيع ، وإنما كانت الحسرة على فقدان أساتذتي وإخواني . . وبقيت بعد ذلك زمنا لا أمر بمكتبته الا وأشجحت بوجهي عنها من فرط الألم ، والا أحسست أن يدا تلوى أحشائي وتحاول أن تقتلها . .) .

هنا قلب انساني ، يطغى عليه ذلك الاحساس المرير المؤسف .

كان المازني يطمع في الخلود . . كان يتمنى لو بقيت له ذكرى في خلد الزمان وكان طموحا يريد أن يملأ دنياه بكتبه وأشعاره .

مهما يكن من شيء فسيبقى المازني رائد الثقافة – سلطان السخرية . . مبدع القصة النفسية في أدبنا العربي الحديث . . انه ذلك الأديب الشاعر . . صاحب المقال . . القاص ذو القلب الدافئ الذي كشف لنا عن تجربة حياته فيما سطره من كلمات .

رحمه الله رحمة واسعة . . .

الدكتور محمد حسين هيكل ماذا يبقى من : «زينب» وثورة الأدب

هو رائد من رواد الحركة الأدبية والفكرية والصحفية ، والسياسية . . قام بدور بارز في الحياة المصرية العامة خلال نصف قرن من الزمان . . ولكن آثاره الثقافية هي التي ستبقى . . . وستظل رواية « زينب » ، وكتاب « حياة محمد » ، و « مذكرات في السياسة المصرية » - من معالم الطريق الذي رسمه لنفسه خلال النصف الأول من القرن العشرين . .

كان الدكتور محمد حسين هيكل في شبابه من هواة المصارف الصحفية والأدبية والسياسية . ولكنه لم يكن من هواة السب، أو القذف أو تناول الأعراض كان رجلا عف اللسان ، متسامحا، كريما في خصوماته، وكثيرا ما قال كلمة الحق في أخرج المواقف ، ينصف بها الخصوم والأنصار على السواء .

كانت له موهبة استشعار بالحياة الصحفية ، فقد كان يعرف كيف يفتق ذهنه من أجل خلق أفكار جديدة تفيد الصحافة وتثريها ، وتجعلها صحيفة حية ، ديناميكية . والنبي بدأت بظهور جريدة « السياسة » . . فقد كان الدكتور هيكل : -

أول من جعل المقال الصحفي صغبرا مركزا دون تطويل ممل واعادة وتكرار وأول صحفي اقترح التخصص والتوسع في عملية التخصص . وما زال ذلك متبعا في جميع الصحف الكبرى وأول من أوجد «الريبورتاج»! التحقيق الصحفي في الصحافة المصرية ، اذ أوفد الى أوروبا وإلى جميع الجهات داخل وخارج مصر ، مندوبين بحثا عن الأخبار التي تهم الرأي العام في جميع أنحاء العالم- كما كان أول من أدخل النقد المسرحي والفني والقصصي ، وكان أول من خصص صفحات للأدب والعلوم والفنون في

الصحف - كذلك هو أول من نشر « حديثا صحفيا » لفتاة مصرية في عام ١٩٤٣ وأفسح صفحات الجريدة للمناقشة بين دعاة النهضة النسائية وأعدائها . ونذكر السيدة هدى شعراوي وندوتها الأدبية على سبيل المثال ، فكان يشجعهم في هذا الشأن - وأخيرا فهو أول من فضل الخبر على المقال . . .

ويمنا أن نذكر ما كانت تعاني منه جريدة السياسة ، من افلاس مادي رغم توضحيات الدكتور هيكل الذي كان يرأس تحريرها ، ورغم ما أنفقه عليها المغفور له محمد محمود باشا ، وهو يتجاوز ثلاثين ألفا من الجنيئات !

كان مرتب « الدكتور هيكل » ، المربوط في حسابات الجريدة يعد « حبرا على ورق » وهو يبلغ ألفا ومائتي جنيه سنويا . لكنه لم يقبض منه شهريا الا جنيئات معدودة لم تتعد مصارف المواصلات والسجائر ! فمعروف انه كان يساهم في التوضحية ويتحمل من مرتبه جزءا من الحسارة الدائمة المستمرة ، الأمر الذي جعله يعتمد على مؤلفاته وأبحاثه ومقالاته ليعيش ويواصل حياته .

ومما يذكر أنه قد وضع كتباً قيمة متعددة في القصة والرواية والتراجم . . نذكر منها كتابه الرائع الخالد : « حياة محمد » ، وروايته الرائدة : « زينب » وكتابته الأصيل : « ثورة الأدب » الذي أصدره عام ١٩٣٣ والذي أراد به أن يستعيد مجد مصر وتأكيد شخصيتها وعودة روحها الجديدة . . أما مذكراته فهي صفحة ناطقة من تاريخ مصر السياسي .

ولما مات ولده الأول وهو ولده البكر جزع عليه وأصدر كتابه المعروف : « ولدى » . . .

لكن الله عوضه عن ذلك فيما بعد ، بولدين هما : حسين وأحمد وخمس بنات هن : عطية الله ، وتحية ، وهديّة ، وبهيّة ، وفائزة . . . وقد أحسن تربية أولاده وتهذيبهم وأعطاهم جميعاً ثقافة عالية .

كان الدكتور محمد حسين هيكل ، محامياً وأستاذاً جامعياً ، وكان سياسياً وزعيماً لحزب ، وخليفة لعبد العزيز فهمي باشا ، ومحمد محمود باشا في رئاسة حزب الأحرار الدستوريين . . .

وكان وزيراً ثم رئيساً لمجلس الشيوخ ، ولا ننسى موقفه من اسنحواب الأسلحة الفاسدة في جلسة مجلس الشيوخ التي كان يرأسها ، الأمر الذي أغضب الملك فاروق الى درجة أنه أصدر مرسوماً بإخراجه . .

كان الدكتور هيكل انسانا وديعا وكان عفيفا لا يطمع فى جمع المال ، وأبى الاثراء عن طريق السياسة والزعامة ٠٠ كما رفض أن يعيش على المحاماة التى كانت فى عهده تدر ثروات طائلة ٠٠٠ وهجر وظيفة الأستاذية فى الجامعة وآثر أن يعيش على قلمه ، ومن صناعة الأدب والصحافة والفكر المصرى الاسلامى ٠

لم يلعن الدنيا ، كان يضحك لها دائما ٠٠٠ وثنا أحس بضعف بصره استعاض بأولاده عن قوة ابصاره فكانوا يقرأون له الكتب والصحف ٠٠ بل ويقودونه فى الشوارع من يده ٠

كان يضحك من الدنيا ، ومن ثم فلا نعجب اذا رأيناه يموت والابتسامة على شفتيه ٠

كان ذلك فى ٨ ديسمبر عام ١٩٥٦ ٠

نظرة تقييم :

رومانسية « زينب » ، حاول أستاذنا الرائد أن يقنعنا بأنه يهدف من روايته الى تصوير واقع الريف المصرى ، ويهدى الرواية صراحة الى مصر التى يمثل الريف أصالتها ووجهها الحقيقى ، هذه الطبيعة المتشابهة اللذيذة ٠٠٠ يقول عن « حامد » بطل روايته أنه كان معجبا بقاسم أمين ومدين لأستاذه ٠٠٠ ويقول : « اللذة التى تجعل للحياة قيمة هى أن يكون الانسان قوة عامة ذات أثر خالد فى العالم » ٠٠٠

ومعروف أن الدكتور هيكل هو المعجب بقاسم أمين وآرائه ٠٠٠ أما الطبيعة فى روايته فهى قصيدة غنائية ، تعرض صوراً بالغة الروعة ، ويسكب فيها كل حبه وحنينه لمصر ٠٠٠ وفى كل موقع فى الرواية تلتقى فيه بالطبيعة فان المؤلف ينشدك نشيدا من أناشيد الحب والتقديس ٠٠٠

قرية الدكتور هيكل ، قرية بلا مشاكل ، هادئة صبورة وادعة ، الفلاح فيها يعيش حياة العبيد التى اعتادها منذ الأزل ، لا يشكو ولا يتذمر ولا يقلق ، لا شوق له ، ولا حلم ، كتلة جامدة مشابهة من الكدح والصبر فى نفس الوقت ، لا حقد فيها ولا تطلع ، ولا تستطيع هذه الكلمة من البشر أن تقوم بشئ لنفسها ، انها قابضة فى السكون ٠٠٠

وساحب الأرض فى الرواية راض عن هذه الحالة ، يقدر القديم والماضى وعادات السلف ، ويأسف لكل اتجاه للتغيير ٠٠٠ ولا يمل الدكتور هيكل من ترديد هذه النغمات فى روايته كلما أراد أن يتحدث عن فلاح قريته ٠٠

ويبدو أن الدكتور هيكل لم يكن يشعر بأى أسى لحال الفلاح وواقعه - فى الرواية - بل انه يكاد يجسده على طراز حياته لانه يعيش فى أحضان الطبيعة ، طبيعة مصر الأم الحنون « فى هاته الليالى الساهرة ، عاته الليالى البديعة ، يموج فى جوها نسيم الصيف العليل وتتلاأ فى سماءها الكواكب اللامعة ، وفى جوف الظلمة الصامت الأمين يرسلون بآمالهم وأمانهم ، ويحمل هواؤها الحلو أغانيهم على جناحه ويملا بها بين السموات والأرض ... (١) »

واضح أن « زينب » ليست ابنة للقرية التى نشأت فيها ماديا ومعنويا انها ابنة « شرعية » للطبيعة الجميلة التى عرضها الدكتور هيكل فى المناظر الريفية ، وليست ابنة للأخلاق الريفية ، واذا كانت « زينب » « ابنة للطبيعة » فيمكنها أن تكون قمة الجمال والروعة !

وان كانت زينب « تفطر بحصوة ملح » (٢) وتعمل عاملة زراعية تكدح فى الشمس الحارقة طيلة يومها فانها لا تبدو الا كملكة متوجة أو كالعروس .

وقد أبدعت الطبيعة فى « زينب » وأعطتها بذلك تاجا معترفا به من كل « صويحباتها » و « زينب » فتاة عفيفة .. وتراها تصاب من جو الحب بالسل وتموت كفداة الكاميليا والدماء تنزف من فمها ..

ويبقى لرواية الدكتور هيكل بعد ذلك انها العمل الفنى الرائد الذى شق الطريق ومهد ..

ويبقى له أنه من أبناء جيله بين من شقوا الطريق لجعل الواقع مجالا للأدب بدلا من عالم البطولات الأسطورية ، وأنه فتح الطريق أمام أبطال من البشر العاديين بدلا من الملوك والأبطال الأسطوريين ، وأنه تنبه الى أن للأديب ذاتا ينبغى له أن يعبر عنها ، وأن للذات مشكلة مع المجتمع .. وأنه فتح الطريق فى أدبنا العربى الحديث للتأثر بالأدب الأخرى ..

كذلك كان للدكتور هيكل فضل نقل الرواية من « فكاهة » لا يقصد بها الا التسلية الى مرحلة العمل الفنى الهادف الجاد ...

كتابه : ثورة الأدب :

حين استبد حكم وزارة اسماعيل صدقى فى مصر ، لم يجد الدكتور

(١) فجر القصة المصرية : يحيى حقي .

(٢) الرواية ص ١٤ .

هيكل بدأ أن تصدر كتاب ثورة الأدب وذلك عام ١٩٣٢ ، كرد فعل للأحداث السياسية والخارجية ، وحالات القهر التي فرضتها تلك الوزارة على الشعب آنذاك ، وأيضا لأن الأدب العربي كان يضطرب بعوامل الثورة العربية في مصر

ويهمنا أن نؤكد أن الثورة السياسية تسير جنباً إلى جنب مع الثورة الأدبية

والدكتور هيكل يؤكد ضرورة أن يكون الأدب قومياً يستخدم الفصحى التي يفهمها كل عربي ويؤدي لجميع الأقطار العربية حاجتها كما يؤكد ضرورة العناية بدعامة الإيمان في بناء الأدب فيقول :

الأدب بوصفه مظهراً للحضارة - لا غنى له عن تجلية جانب الإيمان في النفس ، كما يجلو جانب العواطف المختلفة . ولا غنى له أن يحلّل هذا الجانب ويصف أثره في الحياة ، ومعروف أن جانب الإيمان في الشرق العربي قوى أيا كان الدين الذي يدين به هؤلاء الشرفيون .

فلا يمكن أن يؤدي الأدب رسالته إذا أهمل هذا الجانب القوي من جوانب حياة الشرق العربي ، وإذا لم يحاول أن يصل ماض هذا الشرق بمستقبله الصلة تستقيم مع التفكير الحديث .

ويختتم حديثه عن « ثورة الأدب » وضخامة مسئوليتها فيقول :

« وأكبر اعتقادي أن هذه الثورة ستظل متصلة زمناً طويلاً ... فنحن لا نزال بعد في بدايتها ، وحسن توجيهها . وفي حاجة إلى جهود شاقة جبارة ، وإلى أن تجود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الأدب بصورة تدعو إلى استقراره ... وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لم يوجد منهم في الشرق العربي إلا عدد قليل ..

وبناءً صرح الأدب على الصورة التي تدور في نفوسنا - ونرجو أن تراها أعيننا - في حاجة إلى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة ... »

ثم يقول في الختام في حماس صادق :

« ليقنحهم أدبنا اذن ماضيها ، وليقنحهم هذا الماضي بأدوات البحث الأدبي بأساليب الكتابة الحاضرة ... وليقنحهم هذه الميادين حراً طليقاً غير هياب ولا متردد ... وليقنحهمها بروح الثورة التي اقتنح بها الأدب الغربي تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما ، و بروح الثورة التي اقتنح بها الأدب العربي تراث فارس ومصر واليونان وليقلب في هذا

الماضى ما شاء له التقليب والتنقيب وبروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده ٠٠٠ » .

وفى حديث الدكتور هيكل عن ثورة الأدب المأمولة نجد نضاله المتصل الدائب ، وما تعرض له من هجمات واتهامات باطلة ، لكنه تحمل كل هذه الهجمات فى صبر ومثابرة ، ومع ذلك فقد ظل يدافع عن « التجديد » مستندا الى « القديم » ٠٠٠ يقول فى هذا الشأن :

« فاذا اتصل القديم والحديث وتضامنا . نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هي التي تقوم أساسا لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ويضطر أهلها الى استعارة حضارة غيرهم والعيش فى كنفها ٠٠٠ » .

ثم يواصل حديثه قائلا : « لهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة ، وأن أسلكها سبيل الأدب القومى ، وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت ٠٠٠ وقد بدا لى فى وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الاسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهوانى من هذه الصور ٠٠ لكنى وقفت يومئذ مترددا ٠٠٠ فأقدم للجمهور ثمرة بحثى فى صورة من صور الأدب القومى ، فاذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئنى من غير أن تزن بالقسط ما اليه قصدت ، متأثرة فى ذلك ٠٠٠ بخصومة سياسية أو غير سياسية من الخير اذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد ٠٠٠ وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذه مادة الأدب قومى شهى الثمرة خصب غاية الخصب ٠٠٠ وليكن هذا الميدان ميدان الفراعنة وآلهتهم . ولنطلق حرية الأدب غاية مداها فى تصوير حديث هؤلاء الآلهة مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازنين بينهم وبين الآلهة الاغريق الذين الهموا من فوق الأوليمب حضارة أوربا الحاضرة ٠٠٠

وقد بدأت مباحثى عن ابيس العجل الأله ونشرتها ، فلم أجد من أحد نفورا منها أو ازوارا عنها ، مما أثبت لى أن فى النفوس الى هذا الأدب القومى ظلما ، وانها شغوفة لورده اذا هى وجدت من يقدمه اليها ٠٠٠ »

ويواصل حديثه فى هذا الشأن قائلا :

«وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الادب المصرى القديم ، سيقدرّون ما كان للفراعنة الاقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة . ولعل منهم من يتابع هذا البحث ، ولعله يشعر حين يدون اثاره

بما شعرت به ، وهو أن تغبر طرائق البحث ليس معناه اهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين ٠٠٠ » .

ثم يقول : « ان ابتكار طرائق جديدة فى الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لى لأذهب أجيرا عند الذى ابتكر هذه الطرق الحديثة ، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها ٠٠٠ كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب فى بحث تاريخنا واقامة أدبنا ، وفى ابتكار علم يتصل بعلمنا ، وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا ٠٠٠ عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ولا نصبح عيالا على غيرنا ٠٠٠ » .

هكذا كان الدكتور محمد حسين هيكل ٠٠٠٠

هكذا تحدث عن البطولات العربية وخاصة فى فجر الاسلام وضحاها ، وفى الحروب الصليبية ، فهذه ومضات تكشف عن بعض الملامح والقسمات لأدبه القومى الثورى الكبير ٠٠٠

فلم يكن عجبا أن يرأس تحرير السياسية التى عرف من خلالها وعلى صفحاتها طه حسين ، وعبد القادر المازنى ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، ومحمود عزهى - كما عرف شوقى وحافظ وخليل مطران ٠٠٠

الدكتور هيكل روائيا ومفكرا سياسيا

لا جدال أن الدكتور هيكل يعتبر رائد في الرواية ، فقد أبدع رواية (زينب) في تشكيل روائي حديث ، مخالف لجميع الأساليب الأدبية التي كانت سائدة في عصره . كان ذلك في عام ١٩١٤ .

وقد أهدى روايته الى مصر التي يمثل الريف أصالتها . . . فهذه الطبيعة المتجانسة اللذيذة الرائعة . . . وذاك المكان الذي يعتبر مهبط الوحي الشعري ومصدر الأديان منذ الأزل . . . الطبيعة عنده قصيدة غنائية يسكب منها شوقه وحبه وحنينه لمصر . وواضح أن قرية هيكل قرية هادئة تخلو من المشاكل والمطالب ، صورة وادعة الفلاح يعيش فيها حياة العبد التي ألفها منذ آلاف السنين ، فهو لا يشكو ، ولا يقلق ، ولا يضجر - فعنده ان « اليس في الامكان أبدع مما كان » . . . انه كتلة جامدة صماء ، لا حقد فيها ولا تطلع ، فهي قابضة في السكون .

وصاحب الأرض يعيش حياته راضيا مرضيا مقدسا لتقديمه وزمن الأجداد ومقدسا لمعتقداته وتقاليده وتراثه الذي هو أشبه بالثوابت المقدسة التي يرثها جيلا عن جيل . ويردد أستاذنا الدكتور النغمات في ثنايا الرواية : (فالفلاحون يعملون دائما ومن غير ملال ويرقبون نتائج عملهم زاهرة ناضرة ، ثم يقطع ثمرتها (سيد مالك) كم فكر أن يبيع قطنه بأغلى ثمن ، ويؤجر أرضه بأرفع قيمة ، ويستغل الفلاح نظير قوته الحقير دون أن يحاول أن يمد له يد معونة أو يرفعه من درك الرق الذي يعيش فيه) (١) .

ومما يجدر ذكره أن الدكتور هيكل لم يكن يشعر بأى أسى نحو الفلاح وواقعه ، بل انه يكاد يحسده على طراز حياته لأنه يعيش في

(١) الرواية ص ٢٢ ، ٢٣ .

أحضان الطبيعة ، طبيعة مصر الأم الحنون • يقول فى روايته صفحة ١٨ :
» فى هاته الليالى الساهرة هاته الليالى البديعة يموج فى جوها نسيم
الصيف البليل وتتلاّ فى سماءها الكواكب اللامعة ، يقوم جماعة
الفلاحون ويرسلون بآمالهم وآمانهم ويحمل هواؤها الحلو أغانيهم على
جناحه ويملاّ بها بين السموات والأرض « (١) •

ومن المؤكد أننا ندين للمؤلف بفضل عرضه لموضوع جديد بالنسبة
للقرّاء العربى الذى كان قد اعتاد أن يرى الروايات الأسطورية التى كانت
تنطوى على التخارييف والخزعبلات فأول مرة يقدم لنا أسلوبا عربيا رائعا
يخلو من المحسنات البديعية ، والتزاويق المحشوة بالجناس لأول مرة
ينبه لى أن للأديب ذات ينبغي أن يعبر عنها ، وان للذات مشكلة مع المجتمع
ولاول مرة يفتح لنا الطريق فى أدبنا للتأثر بالآداب الأخرى وله فضل
آخر ، وهو نقل الرواية من (فكاهة وهزل) لا يقصد بهما الا التسلية
الى مرحلة العمل الفنى الهادف الجاد •

عودة الدكتور هيكل الى وطنه :

عاد الدكتور هيكل الى مصر ، فاشتغل فى بادئ الأمر — بالمحاماة
فى مدينة المنصورة ، ثم أخذ يلقي محاضرات فى الجامعة المصرية الأهلية
وذلك منذ عام ١٩١٧ م •• وجدّير بالذكر أن حزب الأمة الذى كان ينتهى
اليه أستاذه الطقى السيد قد أغلق أبوابه ، وحل محله حزب الأحرار
الدستوريين ، فانضم اليه الدكتور هيكل ، وبالتالى راح يشرف على تحرير
صحيفته وهى صحيفة (السياسة) وشاركه فى ذلك زميله الدكتور
طه حسين •

أخذ الدكتور هيكل يكتب — فى بادئ الأمر — سلسلة من المقالات
السياسية ، لكنه سرعان ما انجذب الى الأدب والنقد ، فنشر طائفة من
الدراسات فى التاريخ والأدب والسير الذاتية التى تنم عن ثقافته العربية
والأوربية الواسعة •

كتاب : (فى أوقات الفراغ) :

جمع (أستاذنا) طائفة من دراساته التى نشرها فى صحائف
(الجريدة) و (السياسة الأسبوعية) و (السفور) وطبعها فى كتاب
بعنوان : (فى أوقات الفراغ) •

(١) الرواية ص ١٨ •

والكتاب ينقسم الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : خاص بالنقد الفنى ، والأدبى ، والسير الذاتية أمثال
أناطول فرانس وقاسم أمين ومصطفى صادق الرافعى .

والقسم الثانى : يحوى دراسة توت – عنخ آمون .

أما **القسم الثالث :** فيضم خواطر فى التاريخ والأدب منها العرب
والحضارة الاسلامية والأدب القومى . . وسوف نعرض لبعض هذه
الدراسات فيما يلى : فحين يحدثنا الدكتور هيكل عن النقد الفنى والأدبى .
يتبين لنا أنه كان يمتاز بحاسة نقدية نافذة رهيبة . فهو يفرق هنا بين
النقد الذاتى ، والنقد الموضوعى . . فالأول يقوم على التقدير الخاص
والنزوة البعيدة عن التحليل والتركيب ، انه نقد غير جدير بالتقدير . .
فهما يكن الناقد من سمو الادراك ورهافة الذوق ، لا يستطيع أن يضع
تعميما شاملا لكل صور الجمال ومظاهره . ذلك لان الجمال يتميز
بالصور الفذة الفريدة وهو يضرب مثلا فى ذلك فيقول : (اذا زرت أحد
متاحف التماثيل ، وجدت بين التماثيل الكثيرة فروقا بينها . . فهذا يرى
جمال المرأة فى الخصر النحيل . . والساق الدقيق ، وذاك يراه فى
انسجام أجزاء الجسم فى شكل متسق) والدكتور هيكل يرى ان الناقد
الموضوعى يمتاز بسعة الأفق ، وعدم التمسك بالثوابت الجامدة – فهو
يعمل عمل الماضى السميع ، المنزه عن الغرض وكان الدكتور هيكل يؤيد
اختلاف المذاهب النقدية ، (فهى أمر ضرورى يتفق مع طبيعة الحياة ،
ويتمشى وطبيعة الفنون جميعا . . فعنده ان هذا الاختلاف يتمشى مع تنوع
الأشياء وتباينها ، كاختلاف أنواع ألوان الزهر والثمر ، والأشجار فاذا كانت
الثمار ذابلة والأوراق منكشمة ، فذلك يعزى الى أن التربة لا تكون خصبة
وبالتالى تصبح سيقان الأشجار ضعيفة والثمار ليست ناضجة مزدهرة . .
والعكس بالعكس . . هذا فيما يخص النقد التشكيلى الموضوعى أما النقد
الأدبى فهو يوصى باستخدام منهج (التحليل والتركيب) فى معالجة (العمل
الأدبى) و (كاتبنا الكبير) يعطينا مثلا فى ذلك بالأديب مصطفى صادق
الرافعى . . فهو عنده من الكتاب الذين يرون جمال الأسلوب العربى فى
احتذاء أساليب الأدباء الأقدمين ومن ثم ، كان أسلوب الرافعى مختلفا عن
أساليب أهل عصره . فكان ينتمى الى أسلوب تقليدى لا يخلو من الصنعة
والتكلف . . فمن الواضح أنه يستهوى أسلوب الأغاني ، وأسلوب ابن المقفع
فى كلفة ودمنة . . فاذا كان الرافعى كذلك فكيف يتأتى نقد كتاباته ؟

يقول الدكتور هيكل : (انه اذا أردت نقده نقدا موضوعيا ، ينبغى
أن تستجلى بادىء ذى بدء – ما له من فضل وفى الوقت نفسه ، عليك

بإبراز سوءات هذا الأسلوب الذى لم يعد يلاحق تطور العصر .. فهو
لا يسهل تحميله كل المعانى والأحاسيس والصور التى تجرى فى عصرنا
الحاضر) .

وينصح الدكتور هيكل كل من يتعرض لنقد كتابات الرافعى أو
غيره من الأدباء بأن يعمل على أن يوازن بين أدبه وأدب غيره من المذاهب
الأخرى .. فبهذه الموازنة يطمئن الأديب لنوايا الناقد فلا ينبغى أن يطعن
فى نزاهته وصدقه .

ونركز الضوء على مقال آخر فى ثنايا الكتاب وهو توت - عنخ -
آمون .. فقد زار الدكتور هيكل آثار وادى الملوك وخرج من هذه الزيارة
بمجموعة من الانطباعات سجلها فى هذا المقال : لقد تجلى أمامه الوادى
الصامت الذى يتحدث فى الوقت نفسه بأعجاء القدماء المصريين .. فهذا
الوادى عامر بكل معانى المجد والعظمة - وبكل آثار الموت والخلود ..
ولقد لاحظ موميات الفراعنة وهى محفورة فى جوف الجبل .. ان هؤلاء
الفراعنة ظلوا ملوكا أعزة ، ساكنى وديان طيبة) وهم أحياء يقول الدكتور
هيكل : (كان باب رمسيس التاسع عن شمالنا وباب رمسيس السادس
عن يميننا ، وبين البابين فجوة تؤدي الى باب القصر الجديد . أو قل القبر
الجديد .. القبر الذى شييد من ثلاثة آلاف سنة قبر توت - عنخ - آمون ،
فهبطنا الى بابه حتى كنا عند الغرفة - التى كشفت - عنها يد المنقبين
وهناك وقعت على ما يبهرها : غرفة ملأى بآثار فرعون ، بعرش الملك ،
وسروره ، وعصيه ، وعرباته .. لقد البثت هذه الآثار فى هذا القبر ثلاثين
قرنا أو يزيد) .

تلك آثار أجدادنا الفراعنة الذين عاشوا من أربعة آلاف سنة أو
يزيد .. أليس عجيبا أن تضاهى تماثيل الملك الفرعون تماثيل الاغريق
وتماثيل روما ، وتتفوق عليها .. ويقول أستاذنا (يعجب الناس بتمثال
آلهة الجمال ويعدونه نادر المثال ، ويعجب الناس بصور (ميكادنج وبنقوشه
ذلك لأنهم لم يروا تماثيل توت - عنخ - آمون) .

١٢

كتاب : حياة محمد :

ولا يفوتنا أن نركز الضوء على بعد آخر من الأبعاد الفكرية لمفكرنا
العظيم وهو الفكر الإسلامى فقد قدم (حياة محمد) وهو بحث شامل عن
سيرة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وقد عالج سيرته بمنهج تاريخى
تحليلي ، ارتقائى كاشفا عن مدى المعاناة التى عاناها فى سبيل دعوته ،
والدكتور هيكل يبرز هنا الخصائص الفريدة التى يختص بها محمد والنبي

تتمثل فيما وصل اليه من تحقيق تلك الوحدة المتكاملة بين المسلمين . .
فقد كان يحثهم على معنى (الاخاء الانساني) فلا يكمل المرء ايمانه الا
اذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه وينفرد محمد بذلك الى غاية البر والرحمة .

وينفرد محمد بذلك الدور الذي لم يسبقه اليه نبي أو رسول . .
فقد كان عيسى . . وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء ، يقفون عند
الدعوة الدينية يبلغونها للناس عن طريق الجدل وعن طريق المعجزة ،
ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة ،
أما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الاسلام وانتشار كلمة الحق على يديه ،
وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والقاتل . . كل ذلك في سبيل
الله . . وفي سبيل كلمة الحق التي بعث بها ، وهو قد كان في ذلك كله
عظيما ، وكان مثل الكمال الانساني على ما يجب أن يكون . تركت تعاليم
محمد ، ومنله ، وقدمته في النفوس ، أعمق الأثر ، حتى لقد أقبل كثيرون
على الاسلام . . . وزاد المسلمون بالمدينة شوكة وقوة . . حينئذ بدا
اليهود يفكرون في موقفهم من محمد وأصحابه .

أترى يتركون دعوته تنتشر مكتفين بالأمن الى جواره أمنا يزيد
تجارتهم ثروة وربحا لقد تذكروا تلك الوثيقة الخطيرة التي عقدها محمد
معهم والتي كانت تتضمن السلام والأمن بينه وبين اليهود . . وفي ثنايا
تلك الوثيقة السياسية التي وضعها محمد منذ ألف وثلاثمائة وخمسين
ما ينص (على حرية العقيدة ، وحرية الرأي ، وتحريم الجريمة وأن لليهود
دينهم ، وللمسلمين دينهم ، وأن اليهود بنى النجار ، وبنى الحارث ، وبنى
ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى ثعلبة ، وبنى الأوس مثلهم مثل بنى عوف فهم
جميعا سواء) .

كان اليهود يسيغون تلك الوثيقة السياسية الخطيرة التي عقدها
مع محمد ، لكنهم كانوا يخشون أن تمتد دعوة محمد اليهم ، وخصوصا
وانهم اكتشفوا أن عبدا لله بن سلام وهو علم من علمائهم وحكمائهم قد
أسلم وحث جميع أفراد أسرته على الدخول في الاسلام . . وكان اليهود
ينادونه بأنه سيدهم وحبرهم الأعظم . . لكنه حين تحول عنهم وأشهر
اسلامه ، راحوا يصبون عليه اللعنة والتكفر . . فان ذلك الحادث أحد
الأسباب التي جعلت اليهود يتمردون على الوثيقة (وينشقون عليها . .
فقد أخذوا يكيدون لمحمد وينكرون نبوته .

كتاب : الامبراطورية الاسلامية :

ويضيف الدكتور هيكل كتابا قيما الى المكتبة العربية الاسلامية
بعنوان الامبراطورية الاسلامية حيث يوضح فيه أسباب القوة التي دفعت

أمير المؤمنين يخطب الناس بأنه ظل الله في أرضه وبأن الله وضع مفاتيح خزائنه في يده ، فان شاء أن يفتحها فتحها ، وان شاء أن يغلقها غلقها وكانت نظرية الحق الالهي أو الحق المقدس للملوك نظرية معترفا بها منذ العهد العباسي ومن هنا ، كان من الواضح تفسير الفكرتين المتناقضتين في نظام الحكم . . فقد رأينا أبا بكر وعثمان كانوا أولياء قومهم وذلك باختيار قومهم ومبايعتهم إياهم ، أما الملوك الذين جلسوا على العرش فقد خالفوا العهد . . الأمر الذي أدى الى شيوع الفساد والفتنة والنناحر بين المسلمين وبالتالي ، أدى الى تداعي امبراطوريتهم .

قصصة : هكذا خلقت :

أخرج الدكتور هيكل قصة : (هكذا خلقت) وهي قصة طويلة . . البطلة فيها امرأة ظلت تصارع الواقع ولما كانت أضعف من أن تقاومه نراها تنقلب الى امرأة متمردة لا يعجبها أى شيء في حياتها . . امرأة تسعى الى تدمير حياتها وتدمير كل شيء حولها . . لقد فشلت في حياتها الزوجية وظلت تدور حول نفسها حتى أصابها الدوار . .

ان مأساة هذه المرأة انها تريد أن تخضع كل شيء لارادتها ومشيتها . . لقد رفض زوجها أن يخضع لها فظلت على كبريائها وصلفها حتى انتهت الى فراغ ويأس وقنوط . . لقد دمرت نفسها في النهاية بنفسها وكان المؤلف يقول لنا في ضوء عنوان القصة : هكذا خلقت هذه المرأة بذلك التكوين المدمر المهلك . كتاب : «السياسة المصرية والانقلاب الدستوري» .

ولئن كنا قد عرفنا الدكتور محمد حسين هيكل كرائد للرواية في مصر وكناقد أدبي وفني فذ وككاتب للسيرة المحمدية وكأديب يكتب الدراسة الأدبية ويكتب خواطر في التاريخ والأدب والحضارة المصرية القديمة فانه لا يفوتنا ما كان يمتاز به من بعد سياسي ثاقب ، فله في النواحي السياسية فكره النضالي ومواقفه الكبرى وقضايا العظيمة . .

ولنذكر على سبيل المثال كتابه السياسي الشهير بعنوان : السياسة المصرية والانقلاب الدستوري الذي صاحبه في تأليفه زميله ابراهيم عبد القادر المازني ومحمد عبد الله عنان وقد أصدره عام ١٩٣١ .

والكتاب يؤرخ لتاريخ مصر في هذه الفترة منذ حدث الانقلاب الدستوري فيها في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ . على أن يكون هذا التاريخ تاريخا يقصد فيه الى سرد الوقائع بالرجوع الى مساندها والتعليق عليه تعليقا أساسه الفكرة القومية السامية . . لكن من المفاجآت المؤسفة أن يصطدموا حتى في تأليف هذا الكتاب بقوى البطش والارهاب وهي

تطاردهم أينما ذهبوا ٠٠ يقول الدكتور هيكمل فى هذا الشأن فى مقدمة الكتاب : (لقد اتصل بنا ونحن نعد عملنا الذى نقدمه للقارىء ان وزارة الداخلية أحيطت علما وان وزير الداخلية اسماعيل صدقى باشا معتمزم مصادرتة متى هو تم ٠٠ ولقد أثار هذا النبأ منا دهشة ساخرة وليس مرجع دهشتنا الى أن شرائع مصر كلها ليس فيها قانون يبيح مصادرة كتاب من الكتب الا بواسطة النيابة العمومية اذا هى رأت فيه جريمة من الجرائم ، على أن تكون مصادرة تحفظية الى حين صدور القضاء وانما كان مرجع الدهشة عندنا ما لهذا النبأ من معنى عجيب - فهو اما أن يكون معناه ان صدقى باشا يفزع من قول الحق فى أية صورة من الصور وينصب الاداة الحكومية خصما مسلحا لكل من يرى انه يقول هذا الحق ٠٠ وانما أن يكون معناه أن صدقى باشا قد نصب نفسه خصما لأشخاصنا أو لشخص معين منا ٠٠ ولئن كان مما يعز دولته انه لا يحجم فى سبيل النجاح عن أمر من الأمور لأى اعتبار فان مخالفة القانون مخالفة صارخة بمصادرة كتاب من الكتب لأحد هذين المعنيين ليس مما يسهل على انسان من الناس فضلا عن رئيس حكومة أن ينزل اليه ٠٠ فان هو فعل فالقضاء حكم بيننا وبينه ٠٠ وأيا كانت النتيجة فان ما صودر من الكتب فى مختلف العصور ظهر للناس بعد ذلك بزمان قليل وكانت مصادرتة أقوى حجة لتحرى أصحابه الحق ولفزع محاربيهم منهم وفرارهم من مواجهتهم ٠ ونحسب القارىء أيا كان رأى الذى يدين به سيتفق فى رأى وايانا ٠٠ فهو سبرى ان شيئا من الضغن لم يمل سطرًا من سطور هذا الكتاب ٠

واذا كانت سياسة الغاء الدستور واصدار دستور جديد يجعل سلطة الأمة خيالا ووهما مما اعتزمته وزارة صدقى باشا القيام منذ يوم أول تأليفها وان هى أخفت ذلك عن أشد الناس اتصالا بها - نقول اذا كانت هذه السياسة قد أدت بالوزارة الى مخاصمة الأمة والى الاعتماد على التأييد الأجنبى وكان ذلك بعض طبائع الانقلاب الدستورى فى أمة ليس فى يدها جيشها ٠٠ اذن هى وزارة المصالح الأجنبية ٠٠ لقد توهم الذين نقلوا بينا نبأ مراقبة وزارة الداخلية اياه ٠٠ كتاب دعاية ضد صدقى باشا لكن الحق يقال انه كتاب تاريخ فترة من أدق فترات حياة مصر ليست تقوم الدعاية فى الحكم على القوة المسلحة وترى لضمان بقائها أن تحطم الأعلام التى تجرى بما لا يعجبها ، فان تنشر فى الناس الارهاب كيما ينكمشوا فى فزع منها وأن تنفى عن سعة فى استرضاء الانجليز ليظل لها تأييدهم وأن تضع من مرافق البلاد كل ما استطاعت تحت تصرف رؤوس الأموال الأجنبية لتنال عطفها ٠ فما حاجتنا بالدعوة ضدها وسرد الحوادث وحده كفىل بأن يظهر الحقيقة ٠

بعد ذلك يضم الكتاب أحد عشر فصلا وهم كالاتى :

الفصل الأول بين مصر ولندن ، الفصل الثانى المسألة الدستورية والحريات العامة ، والفصل الثالث أساليب الحكم المتبعة ، الفصل الرابع الشئون الاقتصادية ، الفصل الخامس أثر الانقلاب الدستورى فى الموقف الحاضر ، الفصل السادس مسألة الحدود الغربية ، الفصل السابع مسألة التحكيم بين مصر وأمريكا ، الفصل الثامن من مناصب القضاء المختلط ، الفصل التاسع علائق مصر والحجاز ، الفصل العاشر النفوذ الأجنبى فى نواحى التعليم والثقافة ، الفصل الحادى عشر خاتمة ونتائج .

وكم كنا نتمنى أن نعرض كل فصل بالتحليل والتقييم لولا ضيق المقام وحسبنا أن ندرك كيف كان الدكتور محمد حسين هيكل رائدا أيضا فى السياسة بمعنى أنه كان يفكر بعقله وبقلبه تفكيرا سياسيا من الدرجة الأولى فلا يضمن على السياسة بمجرد القلم سواء كان صحفيا يكتب المقال الصحفى أو كاتباً يؤلف الكتاب السياسى أو محاميا يدافع عن قضايا الوطن فى محيط نضالنا الوطنى الذى كان يكافح الاستبداد . . استبداد السرايا أو الانجليز . .

ماوراء أدب يحيى حقى

أديب كبير ، وناقد نابه يمتاز ببصيرته النافذة ، وهو أحد رواد فن القصة المصرية ، له أكثر من ستة عشر كتابا ، بين قصة ورواية ، ودراسة أدبية ، وله حاسة فنية رهيبة ، جعلته يميل الى تلوق الفن بأشكاله المختلفة ، من تصوير ، ونحت ، وموسيقى . كان أول أديب يحدثنا عن نظرية (الفن للفن ، والفن للحياة) وذلك من خلال دراسته الشيقة لعودة الروح لتوفيق الحكيم ، ترجم عسدا من القصص والمسرحيات ، لكنه ظل يخص القصة القصيرة باهتمامه الأكبر ، وكان أول من نادى بضرورة دراسة الأغنية للكشف عن الشخصيات الوجدانية التي يستهويها الشعب المصري ، كان أحد الداعين بضرورة ابتكار أسلوب أدبي جديد يضاهي روح العصر ، ويعبر عن حاجاته وتصورات ، وله في هذا العسدد نظرات نقدية ثاقبة . يمتاز عالم قصصه بمفاهيم دراسية عديدة ، فيها مفارقات الحياة ، ومنها ان الانسان حبيس نفسه فهو ذرة مغلقة غامضة لا يفرج عنه الا بكشف النقاب عن مصائبه المكبوتة ، المكبوتة ، ومنها الصراع من أجل البقاء ، والتسلح بالارادة الفولاذية لمواجهة معركة الحياة التي لا تقبل الرجل الطيب الضعيف فهي تجزره جزرا .

هو أديب مصر المبدع (يحيى حقى) الذي ولد في ٧ يناير عام ١٩٠٥ ، بحارة (المبيضة وراء مقام السيدة زينب) ، في بيت متواضع من بيوت وزارة الأوقاف . فكان هذا المكان الموحي بالأحاسيس الشعبية أثر في تكوينه النفسي والفني ، رغم أن أسرته قد غادرت هذا الحى منذ كان طفلا صغيرا . يقول فى هذا : (ما زلت الى اليوم أعيش مع بائعة الطعمية ، والأسطى حسن الحلاق ، وبائع الدقة ، ومع جموع الشحاذين وال دراويش الملتفين حول مقام (الست) . كانت والدته شديدة التدين ، مولعة بقراءة القرآن الكريم ، وكتب الحديث والسيرة النبوية . أما والده الموظف باحدى دور الحكومة ، فكان مغرما بشعر (المتنبى ، يحفظ

قصائده . ويلقيها عليهم فى جلساتهم المسائية كان لشقيقه الأكبر (ابراهيم) مكتبة عربية انجليزية راح ينهل منها مددا رائعا ، أعانه على تنمية مداركه ، وانضاج مواهبه ٠٠ أما (عمه) محمود طاهر فقد لعب فى حياته الثقافية والأدبية ، دورا كبيرا ، فهو الذى أخرجه من حالة الانطواء والقوقعة التى كان عليها ، فجعله يرتاد الأندية الأدبية ليتعرف على عمالقة الأدب ، وليستمع الى مجالاتهم ، ومناظراتهم ، وكان يصحبه فى رحلاته للقاء صديقه الشاعر أحمد شوقي ، فكان يحظى بالجلوس معه عدة مرات ، سواء فى محل (صوالت) الحلوانى ، أو فى بيته ، وأبدى الشاعر إعجابه بهذا الشاب الموهوب الطموح ، فأطلعه ذات مرة ، على قصيدته : (أميرة الأندلس) ، مشجعا إياه أن يبدي رأيه فى صدق ٠٠ فما كان من هذا الشاب الا أن اندفع ناقدًا « هذا العمل » فى عنف شديد، الأمر الذى جعله – فيما بعد – يشعر بالندم والحياء .

والتحق يحيى حقى ، فى أول عهده بالتعليم ، بكتاب السيدة زينب، ثم بمدرسة (والده عباس) الابتدائية ، كان المدرسون يوسعونه ضربا بعصاهم الغليظة ، وكان يتمزق ألما من عملية حشد دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ، ولا لماذا يتعلمها ، وكانت النتيجة هى رسوبه فى السنة الأولى الابتدائية وذلك بسبب خوفه ، وعدم فهمه ، فقضى فى تلك المدرسة خمس سنوات غاية فى التعاسة ٠٠ ومن تلك اللحظة التى رسب فيها ، رأيناه يبذل جهده الجهد لكى يفر من هذا الجحيم ويجتاز سنوات تعليمه فى سرع سريع ، حتى لا يغضب والدته التى كانت بمثابة عماد الأسرة ٠٠ فهى تخطط ملابسهم ، وتطبخ ، وتطعمهم متكلفة فى ذلك أشد العناء ، متحيلة للوصول بهم مستورين لآخر الشهر ٠٠ حصل على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية عام ١٩١٧ ، فالتحق بالمدرسة (الالهامية الثانوية – بنباقدن الآن) ، ومنها حصل على شهادة الكفاءة ، ثم انتقل الى المدرسة السعيدية فالخديوية ، ومنها حاز على البكالوريا عام ١٩٢١ ، وكان فى صباه يتمنى أن يصبح طبيبا حتى يشبع فضوله فى اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الانسان ورأسه ، لكنه أشفق على أسرته التى تتحمل أعباء أشقائه الكثيرة ، فأثر أن يدرج بالقسم الأدبى الذى أهله للدراسات النظرية ، واختار مدرسة الحقوق العليا ٠٠ كان من زملائه فى تلك المدرسة توفيق الحكيم ، والمرحوم حلمى بهجت بدوى ، والدكتور عبد الحكيم الرفاعى .

فى تلك الفترة قرأ كتابات عبد الله النديم ، مصطفى كامل ، وكل ما نشر عن حادثة دنشواى ، ومؤلفات المنفلوطى ، وجبران خليل جبران ، وقرأ من الأدب الانجليزى روايات ديكنز ، وروبرت لويس ، وستيفون

أديسون ، ومن الأدب الأمريكي ادجار آلن بو ٠٠ وفي أول يناير ١٩٢٧ تسلم عمله الجديد معاونا للإدارة بمركز منفلووط ٠٠ وهناك استطاع أن يطلع على ملامح أهالي الريف الذين يمثلون غالبية سكان مصر : الطبيعة السمحة ، والفطرة البسيطة ، والسجية الحلوة التي تخلو من الزيف ، والدهان المصطنع ، فقد خالط الأهالي وخالط الفلاحين وعاش حياة هادئة لا يشوبها ترنيق أو تنغيص ، لكنه فوجيء بعد مرور سنتين ، بذلك اليوم الذي أعلنت فيه وزارة الخارجية عن مسابقة لأمناء المحفوظات في القنصليات والمفاوضيات ، ونجح يحيى حقى في تلك المسابقة فعين كأمين لمحفوظات القنصلية المصرية في (جدة) وذلك في عام ١٩٢٩ ، ثم نقل من جدة الى استامبول عام ١٩٣٠ ، وهناك تعلم اللغة التركية ، وقرأ عن مصطفى كمال أتاتورك والتقى به أكثر من مرة ، وحاول الاتصال بأدباء تركيا ، فالتقى بالشاعر عبد الحق حامد - شكسبير تركيا - والشاعر يحيى كمال ، أما الشاعر محمد عاكف فقد فر من تركيا بعد حركة أتاتورك فأقام في مصر ١٠ وبعد أربع سنوات قضاه في تركيا نقل الى (روما) ٠ وفي تلك الأثناء ، بدأ اتصاله المباشر بالحضارة الأوروبية ، فقد تعلم الإيطالية وأخذ يغرف من الأدب الإيطالي ، وسرعان ما وجد نفسه غارقا في عصر النهضة الذي نقل أوروبا من الظلام الى النور ٠٠ ويعترف يحيى حقى بأثر تلك الفترة الذهبية على تكوينه الثقافي بقوله : (ان بضاعتى فى الموسيقى والتصوير وبقية فنون الأدب العالمى ، الفضل أردته الى السنوات الخمس التى قضيتها فى روما) ٠

تجربة الكتابة :

بدأ يحيى الكتابة فى سن مبكرة فى حوالى السادسة عشرة من عمره ، فأخذ يشق طريقه فى دنيا الأدب مستويا ذلك القالب الأدبى الجديد الممثل فى القصة القصيرة ، وإذا كان فطاحل الأدب فى عصره قد جذبهم تيار الشعر فصاروا فى رؤيته مبدعين ، ودارسين ، ومجددين ، فان يحيى حقى قد استهوته القصة القصيرة ، ذلك القالب الذى يشبه القصيدة من حيث التركيز ، والوحدة العضوية ، والشحنة الشعورية ٠٠ فقد نزع الى أن يكون أحد الداعين لحركة التجديد فى النشر ، لقد اكتشف مواهبه فى ابداع القصة والرواية ، فراح يجند كل طاقاته فى خدمة النشر ، تصفيته من سوائب الماضى العالقة به ، حتى يكون أداة ملائمة للتعبير عن حاجة العصر ٠ لقد لاحظ ان (الحركة) بدأت تدب فى أوصال المجتمع ، فلم تعد حركة متجمدة فى الأشياء ، وفطن الى ذلك التصور الجديد فى الأدب الذى أخذ يبرز ، ويلقى رعاية واهتمام الشبان ، فيواكب هذا الواقع المتحرك ، المتغير ، المتطور الذى صار يتشكل فى صور ،

وأحداث ، ووقائع ، الأمر الذى جعل « الواقع المصرى » معقداً فى تكوينه ، متشابكاً فى ظواهره ، متصارعاً فى علاقاته المضطربة ، المتناقضة .. فهو الآن يحتاج الى أداة جديدة تعمل على تحليل جزئياته ، وكشف ما يحمله فى جوفه من خفايا وأسرار وألغاز ، فكانت القصة القصيرة عند يحيى حقى أنسب وسيلة للتعبير عن تيار عصره . يعتبر (كاتبنا الموهوب) من أبناء الجيل التالى للقصة القصيرة ، الجيل الذى حاول تجديد اللغة وسلخها من حالة الثبات والجمود التى تصيبها ، واضفاء روح المرونة ، والسهولة عليها ، حتى تلتين وتطوع وفقاً لحاجاته الشعورية والخيالية والصورية . كان جيله يمتاز بشغفه الشديد للقراءة ، والاطلاع على التراث القصصى العالمى : من روسيا الى انجلترا ، ومن فرنسا الى ألمانيا وإيطاليا . أما الأدب الأمريكى فكان لا يسترعى الانتباه فى ذلك الوقت ، اللهم الا بعض أعمال ادجار آلن بو . لقد تولد نتاج القصة المصرية - بادية ذى بدء - بفضل نخبة من الشبان ، وهم من الموظفين والمهندسين والأطباء .. انهم يتشابهون جميعاً فى ثقافتهم ، لكنهم يختلفون فى أمزجتهم وتجاربهم وخبراتهم ، وهم يكتبون كهواة ، دون أن يعتمدوا على حرفة الأدب التى كانت لا تكفى لسد حاجاتهم ، وكان بريق الصحافة خافتاً آنئذ ، لا يكاد يبين .. التفت هذه المجموعة من أدباء القصة فى بادية الأمر ، حول الأستاذ « أحمد خيرى سعيد » الذى كان يصدر صحيفة (الفجر) ، فقد كانت هذه « الصحيفة » بمثابة منفذهم الوحيد لعالم النشر .

كانت القصة القصيرة على يد هؤلاء لا تعدو أن تكون تكتيفاً للقطعة سريعة لبعض المراثيات ، أو الأشخاص ، فحسبك أن تصف شخصاً غريب الأطوار ، أو مكاناً غير مألوف حتى تنجز عملاً قصصياً ، ولعل انتاج « محمود تيمور » فى مراحل الأولى - أصدق دليل على ذلك ، فقد توارثت عائلته جيلاً بعد جيل - تلك العادة الغريبة التى أفاد منها ، وهى أن تحيط نفسها بطائفة من شواذ الناس الذين يبعثون على الضحك منهم ، أو الرثاء لهم ..

كان قصاصو هذا الجيل ، لا تتخطى (حاستهم الفنية) حدود السطح وما يجرى فوق هذا السطح من صور وأحداث .. فهم لم ينزعوا جهداً من أجل الغوص الى الأعماق واستبطان الواقع ، وتأمله ، ولم يثابروا على استيعاب القيم الفنية من عمليات ، ضغط الواقع واختزاله وتركيزه ، وتحليل عناصره ثم تركيبها فى صياغة جديدة .. كان الجيل الذى ينتمى اليه (يحيى حقى) يحكم على الماضى بعقلية الحاضر آنذاك ، لم يجد فى ماضيه ما يلهمه من رصيد القصة والدراما مثلما يحدث .

بالنسبة للأدباء الأوربيين ، ومن ثم كان من الضروري على هذا الجيل -
فى بداية حياته الفنية أن يقفوا اثر زملائه السابقين عليه ، وأن يعانى
كثيرا من أجل ترسيخ القصة فى حقل الأدب وانتزاع اعجاب الناس بها
وتقديرهم لها .

ويحاول يحيى حقى أن يضع تصنيفا موضوعيا لتفسير تلك المرحلة
من تاريخ فن القصة المصرية ، فهى عنده تنقسم الى قسمين : فئة العقلين ،
وفئة القلبين . . يقول فى هذا الشأن : (ان فئة العقلين قد تزعمها
الدكتور محمد حسين هيكل بقصة (زينب) . . انتاجها وليد تقرير
ذهنى منطقى ، أما زعيم القلبين - ويا للغرابة - فهو محمود تيمور ،
هذا الفتى المنعم . . يكتب مثلنا نحن الفقراء ، من وحى قلبه ، بدافع
من احساسه ، ان انتاجه متألق كابتسامة الطفل ، وراء محمود تيمور
يجىء محمود طاهر لاشين ، مهندس المباني ، فلا عجب ، ان كان من واضعى
أسس القصة المصرية ، وأحب أن أشهد ان توفيق الحكيم قد امتاز وحده
بجمعه بين العقل والقلب ، فمسرحياته الكبرى انما هى ذهنه ، ومسرحياته
الشعبية قلبه النابض ، وتعتبر (عودة الروح) قلبه ، ومن ثم ، تأمل
أن يجمع بين الاثنين فى قصة يكتب لها الخلود ، لا فى مصر وحدها بل
فى الأدب العالمى) .

وقف يحيى حقى - فى بادئ عهده ، بتجربة كتابة القصة موقف
المتحدى لكل العقبات التقنية التى تحول دون ابداع هذا الشكل
الأدبى ، فقد ثار فى نفسه هذا السؤال : لم لا يكون لنا مثل الغرب أدب
قصصى ؟

كان جيله يخطو خطوات بطيئة ، متعثرة فى سبيل ابداع هذا اللون
من الأدب . . لقد أرادوا أن يجعلوا من أنفسهم جيل تمهيد وتشبيد معا . .
تشهد تلك البنائات القصصية الأولى فى أدبنا العربى ، لهذا ، رأينا
(أديبنا الكبير) يأخذ على عاتقه تلك المهمة الصعبة ، فيبذل جهده من أجل
تصفية كل العقبات الخاصة باللغة ، خصوصا الأسلوب الملىء بالالفاظ
الطنانة الجوفاء . . كان كالمحموم الذى يهذى باحثا عن ضالته الضائعة
. . فهو لا يريد أن يغترب عن بلده فينقل عن الغرب نقلا حرفيا ، أو
يقوم بعملية تمصير لأعمال أدبائه . . كل ما يريده ، هو تفتيت بنية واقعه
المصرى ، ليكشف عن طبيعتها ، وليسقط عليها من أحاسيسه وخيالاته
ما يجعلها تنطق ، وتعبر عن أفراحها ، وأتراحها . . ومن هنا ، أراد يحيى
حقى فى أول خطوة يخطوها فى هذا المضمار أن يخلق قصة مصرية ، لحما ،
ودما ، تنبع من صميم خصائصنا وتدل علينا . . لكن سرعان ما يصطدم

فى هذا الصدد - بأسلوب المقامات الذى كان سائدا فى تلك الفترة ،
واللى (بالتوايل والبهارات اللفظية) - أقصد تلك الزخارف والتزاويق
والمحسنات ، تلك التى عاقت اللغة العربية فى عصور الاضمحلال .
وإدراك ان التقصير يجب الا يوجه الى لغتنا ، وانما الى الظروف المؤلة التى
أحاطت بنا فاللغة فى رأيه ، مثل « الكائن الحى » الذى يتأثر بظروف
الامة ، ويؤثر فيها ، بدليل أن هذه اللغة استطاعت فى عصر النهضة أن
تعبّر عن حضارة ، وتترجم التراث الفلسفى عن الأمم الأخرى . وأثبتت
مقدرتها على المرونة ، والانطلاق . فلم تقصر فى استيعاب ألفاظ لغات
أخرى ، وعلت عن القواعد الجامدة للنحو والصرف ، ثم دب الانحلال فى
الامة العربية ، وكفت عن الجهاد ، واستسلمت للكسل ، ولقد اقترن هذا
الانحلال بانحلال لغتنا فأصبحت لغة جامدة . وأصبح كلامها خاليا من
الابتكار . يقول « أديبنا المبدع » فى كتابه (خطوات فى النقد) : (نحن
ورثة أجيال متعددة تعاقبت فى عصور الانحلال على أمتنا بالسجع اللفظى ،
لا أداء للمعنى . بل لمجرد الحذر بالرتيب . ان الميوعة فى الفكر
تؤدى الى ميوعة الأسلوب . وان ميوعة الأسلوب هى بدورها ترجمة
لميوعة الفكر . تعبيرات كثيرة متداولة هى بمثابة السجن المقروض على
مجموعة من الألفاظ ، ففقدت معناها وكرامتها مثل قولهم : (فى سهولة
ويسر ، فى خفة ورشاقة ، فى دعة واطمئنان ، فى خفر وحياء) وهكذا
كان الكاتب يجز خيطا فتجرى المجموعة كاملة) .

البحث عن أسلوب جديد :

يرى (أديبنا الفنان) ان كل تطور يطرأ على المجتمع ، لابد وأن
يعقبه تطور فى الأسلوب . ومن أجل هذا ، أخذ يركز (حاسته النقدية)
على الألفاظ المكررة المستهلكة التى هى أشبه بالحشو الذى لا جدوى منه
. . ألفاظ فارغة من المعنى . مجردة من الحس ، فهى لا تشير الى مدركات
ذهنية ، أو مدركات حسية ، فلا غرابة ، اذا رأيناها ينادى بمبدأ البحث
عن اللفظ المفيد ، وتحديدده تحديدا منطقيا صارما من أجل الايضاح ،
والفهم . . ان حتمية اللفظ فى الجملة المفيدة وفى النسق اللفظى ، أمر
ضرورى . . ولا تحسبن أنه بذلك ينشئ أسلوبا علميا ، مجردا ، أو انه
يطالبنا بالاعتداء بالأسلوب التلغرافى الذى نادى به (سلامه موسى)
كلا . . فهو يتحدث هنا عن « الأسلوب الأدبى » الجمال من شروطه
الأساسية التى لا غنى عنها . . انه لا ينكر موسيقية الأسلوب ، بل على
العكس يتمسك بها كل ما يريد أن تنبع موسيقى الأسلوب من أعماق
الكاتب . . من صميم نفسه ، ومزاجه ، وشعوره . كذلك يلاحظ ذلك
العيب الفنى المتفشى فى كتاباتنا ألا وهو : النظر الى الأشياء من زاوية

واحدة ٠٠ فنحن لا نفسر الأشياء الا فى ضوء ذلك المبدأ المنطقى : (أما ٠٠
أو) ٠٠ اما اسود أو أبيض أما الأرجحة بين السواد والبياض وهى -
الظلال - فلا نعرفها ٠٠ فهذا الرجل اما خير أو شرير أما الصراع بين
الخير والشر وهما طرفا النقيض الذى يولد الحركة الدرامية فى العمل
الفنى - فهو يكاد أن يكون معدوما فى أدبنا .

ومن القيم الفنية التى يستمسك بها يحيى حقى ، ضرورة تحقيق
الصدق فى « العمل الأدبى » بمعنى أن الكاتب مطالب باقناع قارئه أو
متلقيه ، بما يقدمه اليه ٠٠ وليس الاقناع هنا هو المطابقة بين الواقع وبين
الفن ، وانما هو اقناع فنى وليس اقناعا واقعيا ، ذلك لأن طبيعة الفن
تختلف تماما عن طبيعة الواقع ٠٠ ومن قيمة الفنية : ضرورة تحقيق
الحرية للفنان ٠٠ ذلك لأن جو الارغام ، والاملاء انما يجعل الفنان فى
حال من الضيق والكبت والاختناق ٠٠ ان الانتاج الفنى لا يزدهر الا فى
ظل الحرية والتلقائية ، فلا ينبغي أن تفرض عليه القيود ، والأوامر ، ولا
ينبغي أن يوجه منه من أجل الدعاية ، أو يهدف ويوظف فى خدمة أغراض
معينة . فمثل هذا الأدب محكوم عليه بالعدم ، والموت .

الفكر السياسى والاجتماعى يحرك الواقع :

قلنا فيما أسلفنا ، ان « الواقع المصرى » ، ظل فى حال من الجمود
والثبات الى أن بدأت تدفعه تلك التصورات الجديدة التى طرأت عليه ،
فقد دفعته الى التغير والتحول والتطور ٠٠ ومن المؤكد أن مجيء الثورة
العقلية التى أشعلها (الأفغانى) وتلاميذه ، قد تركت آثارها فى ابناء
الجيل الذين كانوا يتبارون فيما بينهم محاولا كل منهم اقناع الآخر لوجهة
نظره . مستخدمين فى ذلك الحجاج المنطقى ٠٠ لقد ساعد هذا الجدل
السياسى على تلين اللغة ، ونحت أسلوب بسيط غير مقعر يصلح للتعبير
عن الآراء المتعارضة المتضاربة ٠٠ انه أسلوب حر تلقائى أمنهم أن
يستلهموه من لغتهم حتى يسعفهم فى ابراز معتقداتهم وأفكارهم ٠٠
أسلوب يخلو من كل الاصفاذ التى تكبله ، يخلو من التزويق ، والتكلف.
والاصطناع ٠٠ ونستطيع أن نستجلى ذلك من كتابات محمد فريد ، وخطب
مصطفى كامل ، ومقالات على يوسف ، ولطفى السيد .

كل ذلك . قد مهد الى رجوع (اللغة) الى مرونتها ، وسهولتها
وحيويتها . فقد صارت لغة طبيعة هيثة لا تعصى للكاتب أمرا ٠٠ فهى
مجندة فى خدمة (الكاتب) حين يريد أن يسرد . أو يعبر ، أو يبدع
ومن ثم . فقد تهيأت الظروف لظهور يحيى حقى كرائد من رواد الفصحة ،
آنذاك وككاتب حصيف للدراسة الأدبية . وكناقد بصير .

فكانت أول قصة ينشرها في جريدة (السياسة) باسم قهوة ديمترى (وهى قصة غير معصومة من العيوب ، فقد وصف الكاتب عالم المراثيات وصفا حرفيا ، ميكانيكيا ، فكانت زلة قلمه فى هذه القصة ، مدعاة الى كفه عن أن يعود ثانية الى مثل هذا الخطأ الفنى . كذلك من أوائل قصصه التى نشرها فى صحيفة « الفجر » قصة بعنوان : (فلة ، مشمش لولا) كل أبطالها من الحيوانات .

وبعد غيابه الطويل عن مصر ، وعودته من أوروبا عام ١٩٣٩ . شعر بالحنين الشديد الى وطنه والى طبيعة الحياة المصرية الأمر الذى جعله يبت أحاسيسه المتأججة فى روايته المعروفة باسم (قنديل أم هاشم) . لقد كتبها فى حجرة صغيرة كان قد استأجرها فى (حى عابدين) ، وكان يعانى حينئذ تجربة عاطفية مثيرة .

ان بطل القصة شاب تعلم الطب فى الجامعات الأوروبية ، وشرب من معين حضارتها ، ولما عاد الى مصر صدم من حالة الركود ، والتخلف والجهل التى عليها ، فأراد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا .

ويهمنا أن نقرر ، أن انتاج حقى الأدبى ثرى . متعدد الألوان . . . ففى مجال القصة له : « قنديل أم هاشم » وصح النوم ودماء وطن ، وعنتر وجوليت ، وأم العواجز ، وخليها على الله ، ودمعة وابتسامة ، وعطر الأحباب ، ويا ليل ياعين . . . ومن أدب الرحلات ، أبدع كتابه : حقيبة فى يد مسافر . . . اما فى مجال النقد الأدبى فله : فجر القصة المصرية ، وخطوات فى النقد .

وسوف نتناول الآن بالدرس والتحليل نموذجين من قصصه ، اثريين عنده . . . وهما : قنديل أم هاشم وصح النوم .

فى امكاننا أن نستجلى المفهوم ائدرامى الذى ينسج (المؤلف) منه كل خيوطه الفنية فى قصة (قنديل أم هاشم) ذلك المفهوم الذى نستطيع أن نلمسه فى تلك المفارقة بين الحياة الأوربية الواعية وبين روح الشرق وقيمته ومعنوياته . . . وهذا ما يؤكد يحيى حقى حين يقول : (اسم اسماعيل — بطل (قنديل أم هاشم) أخذته من اسم صديق لى يدعى اسماعيل كامل ، فقد كان يمثل فى نظرى محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب) . وأعزوا اختيارى بهذين النموذجين ، الى الشهرة التى حققتها القصة الأولى للمؤلف ، أما الثانية فهى حبيبة الى قلبه . يهمنى أن نشير الآن الى مدى رواج هذه القصة التى يرتبط اسم المؤلف بها دائما وأبدا — وكأنه لم يؤلف غيرها من القصص الأخرى . . . وهو يعدل السبب فى

ذلك بقوله : (انها خرجت من قلبي مباشرة كالرصاصة ، وربما لهذا السبب استقرت في قلوب القراء بنفس الطريقة) .

ان القصة تركز أساسا على ثلاث شخصيات هم : اسماعيل ، وفاطمة ، ومارى . فاسماعيل ينال من رعاية أسرته ، واهتمامها بتربيته وتعليمه ما لم يحظ أى شقيق من أشقائه . . فاذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب عن تلاوة أوراده ، حتى فاطمة - بنت عمه - يتيمة الأب والأم تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها ، ساهرة معه كأن الدرس درسها . . وهى تتطلع اليه بين حين وآخر ، بعينيها المحمرتين الأجفان . . وكلما كبر فى نظرها ، انكمشت أمامه وتضاءلت . . ان كل حياتها وقف على توفير راحته . . واستطاع اسماعيل أن يحصل على الابتدائية بتفوق ، لكنه لم ينجح فى شهادة البكالوريا بدرجات تؤهله للالتحاق بمدرسة الطب التى كان يرغب فيها ، مما جعله يتجه الى السفر الى أوروبا لدراسة الطب على نفقة أبيه ، الذى أخذ يدبر الانفاق على تعليمه بشق الأنفس . . وذهب اسماعيل الى أوروبا التى أهلتها الكى يتخرج طبيبا متخصصا فى طب العيون . . وهناك تعرف على زميلته فى الدراسة (مارى) التى أخرجت حياتها من الوحى والخمول ، الى النشاط والوئوق . . لقد فتحت له آفاق يجهلها من الجمال ، والفن والموسيقى ، بل وفى الروح الانسانية أيضا . . علمته كيف يستقل بنفسه ، وكيف يحميها من الحرافة والأوهام والعادات المستهجنة . . وعاد اسماعيل الى مصر ، بعد أن قضى فى الخارج سبع سنوات . . رأى فاطمة بعد عودته : فتاة فى شرح الصبا ، مظهرها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف ، رآها معصوبة العينين ، فهى ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه ، فلم تبرأ مما أصابها من رمد فى عينيها ، بل ساء حالها يوما بعد يوم . . رأى اسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة تسكب منها فى عينيها سائلا تناؤه منه فاطمة وتنالم . . وما أن سأل أمه عن هذا السائل وأخبرته انه زيت قنديل أم هاشم ، حتى قفز من مكانه كالملسوع صارخا فى وجهها . . فقد ذعر من مشاهدته هذا المنظر فى أول ليلة من عودته كطبيب عيون ، وذهل من طريقة مداولة الرمد فى بلده . . الأمر الذى جعله يلقي فى غضب زجاجة الزيت الى الشارع . حاول أن يعالج عيني فاطمة علاجا طبيا . . لكن النتيجة هى تفاقم حالة فاطمة . . ان هناك حالة نفسية تنتابها . . فهى لا تؤمن بالطبيب . . وكم راعها أن يدوس الطبيب بأقدامه الغليظة انسانيته وكرامتها كمريضة . . ويتشكك اسماعيل فى نفسه وفيما حصله من العلم فى أوروبا ، هل عاد خائبا من أوروبا ؟ وسرعان ما يجيئه الجواب : (لقد حاولت أن تنفصل وأنت لا تملك الا الاتصال ، المصريون شعب يربطه رباط واحد ، هو نوع من الايمان ، شعب حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحاكمين . .

ويهل رمضان فيتصالح اسماعيل مع روحه وبالتالي يتصالح مع الايمان، فهو يدخل مقام « السيدة زينب » مطاطا ، ويتقبل زيت القنديل هدية من الشيخ « درديري » ثم يخرج الى الميدان والرغبة تدفعه الى أن يحتضن الناس جميعا قال فى نفسه : (تعالوا الى جميعا ، فانى قد قبلتكم بكل قدارتكم وجهلكم وما تنزلون اليه من ذرك أسفل ، فأنتم منى وأنا منكم) ثم عاد الى الدار ، وراح يعكف على علاج فاطمة وشفافها ثم تزوجها وأنسلها خمسة من البنين ، وستا من البنات . وصار طبيب عيون مشهورا . فهو يداوى الفقراء بعلم أوربا ووسائل خاصة من صنعه .

تلك هى « الحكاية » التى سردها علينا يحيى حقى فى قنديل أم هاشم . وهى تحوى مدى المعاناة ، والعذاب الروحى الذى تعرض له جيل من المثقفين المصريين ، نال قسطا من الثقافة الأوربية ، ثم عاد ، وفجع بحالة التأخر والجهل التى تستغرق شعبه .

ومن المهم أن نقرر ، أن قنديل أم هاشم انما هى تركيب رمزى قذ . فواضح ان اسماعيل رمز يفصح عن روح مصر الناهضة المتوثبة . . و « المؤلف » يرمز بشخصية فاطمة الى مصر التقليدية التى تقدم على أساس صلب من تاريخ وتراث كبيرين ، أما شخصية (مارى) فهى أوربا الحديثة التى تزهو بوعيتها وعلمها ، ومقام (الست) هو مضمون الايمان ، أما شكله فيتجسد فى القنديل . . وخلاصة هذه الحكاية يمكن أن تتضح فى الجملة الآتية (ان مصر ترفض الروح الجديدة اذا أريد بها أن تفرض عليها فرضا ميكانيكيا من الخارج وهى تقبلها اذا جاءت طواعية ، تحترم كل ما يتصل بمصر من تاريخ ، وتراث .

ان كل عمل أدبى أنتجه يحيى حقى انما هو بعض من شخصيته ، وصورة حية من كمية ما لديه من خبرات وذكريات ، وبالتالي ، فهو قبس من روحه ، ونفخة من وجدانه ، فلا غرابه ، اذا نظر الى هذه الأعمال نظرة (الأب) الى (أبنائه) . لكن يحيى حقى ينحاز الى أحد أبنائه ، ويتعاطف معه وهو الذى يمثل روايته : (صبح النوم) ، التى يمنحها حبه ، واعزازه على وجه الخصوص . . يقول فى هذا المعنى : (رواية « صبح النوم » أحب أعمال القصصية الى نفسى ، لأنها تطبق صارم للمبدأ الذى أنادى به فى ضرورة التزام الدقة والعمق فى أسلوب الكتابة ، فليس فيها لفظ واحد لم يكن موضع حسن ، ووزن ، وفيها صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد . . والمسألة ليست صنعة بقدر ما هى ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لا تتكرر) .

ان رواية (صبح النوم) ليست الا نخبة من اللوحات الفنية ،

رسمتها يد قنان حاذق ، قادر على احالة الكلمات الى نسق من الانغام . .
فالكلمة نغمة لونية تنسجم مع بقية النغمات . . وهى أيضا « لبنة » فى
بناء جميل ، اذا سقطت ، ظهر البناء مثقوبا ، شائها ، ولعل هذه (الرواية)
أصدق تعبير عن دعوته الى (حتمية اللفظ) بمعنى أن (اللفظ) ينبغي .
أن يندرج فى مكانه الصحيح من حيث الدلالة والاحساس . . لا ينبغي .
أن يكون فائضا عن الحاجة أى (عمالة زائدة) . . ومن ثم ، فهذه اللوحات
الفنية تترابط فيما بينها بخيوط من العلاقات الدرامية ، وهى تتوحد
فى نسيج متماسك داخل (وحدة مكانية) تتجسد فى (الحان) التى
يرتادها أهالى القرية . . حيث يجمعهم السهر ، والسمر ، فيتجاذبون
أطراف الحديث ، ويفرغون كل ما فى جعبتهم من أشجان وأحزان وتعاسة
. . وكان كل كرسى فى (الحان) بمثابة كرسى اعتراف . . فينفس كل
منهم عن مأساته التى لا يجد منها مخلصا . . فهذا (القصاب) الثرى ،
طبيب القلب يرعى احدى قريباته التى فقدت عائلها التاجر المفلس فيفتح
لها بيته - عن طبيب خاطر - هى وابنتها الفتاة الجميلة السمراء التى
يقع فى حبها ، لكن قلب الفتاة لم يحقق له . . لقد مالت الى (مهرج
السيرك) الذى يلعب أدواره فى القرية . . لقد هربت معه ، وتم زواجهما
فى قرية مجاورة . . وبعد سنوات عادت الى القرية ، بعد أن مات
المهرج ، الذى أنسلها ولدين ، وماتت أمها ، فلم تجد مفرا من الذهاب
الى ابن عمها القصاب ، فغفر لها ، ورضيت أن تتزوجه أخيرا . . لكن
هذا الزواج لم يدم طويلا . . فقد طار قلبها الى ذلك الشاب النحيل البائس
(عامل الطحين) الذى كانت نلقاه عند الفجر ليطحن لها الغلة ، فيتبادلان
الحب ثم عزموا على الهرب معا . . وللمرة الثانية ، يطعن (القصاب)
فى مشاعره . . لكنه يلوذ بالصمت ، رغم ان فضيحتة كانت على لسان
كل فرد فى القرية . . فقد التمس لنفسه العزاء فى الصلاة والصوم
والعبادة . . أما (صاحب الحان) فهو يعيش راضيا فخورا بعلمه . .
فهو يضم عنده أهل القرية كأسرة واحدة . . ان مهنته تجعله يرى الناس
على حقيقتهم : عراة كما ولدتهم أمهاتهم . . انهم يتنفسون أمامه وهو
يعمل على الترويح عنهم . . فلا يمارسون معه كذبا ، ولا نقا ، ولا رياء ،
ولا خداعا . . تلك الآفاق التى تفسخ البشر ، والتى يضطرون اليها فى
حياتهم العامة .

وهناك شخصية الشاب القصير القزم العاقل ، الذى يبتز أموال
زوجته الثرية الاقطاعية . . وهو يبذل أموالها فى السكر والعريضة وقضاء
الليالى مع بنات الهوى . . ولم تجد (الزوجة حيلة الا أن تنفق أموالها
على الفقراء والمرضى من أهالى القرية . . لهذا ، راح يشكو منها لرواد الحان ،
وكيف انها مخبولة تبعثر نقودها على الغرباء . . كذلك تضم الرواية

شخصية المرأة العرجاء التي تظل تبحث عن زوجها في (الحان) وعندما لا نعثر عليه ، يشتد تأزمها ، فتصب جام غضبها في الزوار الجالسين . . . تصيح فيهم محتجة : (ما معنى هجركم لنسائكم . . . يعيش الرجال في ناحية ، والنساء معا في ناحية . . . ما أبشعها عيشة ، حتى الحيوان لا يفعل هذا . . . ان العرجاء من بنات العاصمة ، نشأت في أسرة فقيرة ، وعاشت في كنف أحد الأغنياء الذي عطف عليها وتبناها لعاهتها . . . فأدخلها المدارس الراقية . . . وتعلمت لغة أجنبية ودربت على شغل الابرّة ، والحيّاكة . . . وما أن مات الرجل النرى حتى طردها ورثته . . . وعادت الى أهلها فزادتهم فقرا . . . أما زوجها الشاب ، فهو من أهالى الريف . . . تزوجته من أثر الصدمة التي حدثت لها بفراق بيت الأغنياء . . . انه طالب يلتحق باحدى مدارس الصنائع ، ويجاورها فى سكنه بالقاهرة . . . وذات يوم ، قبض عليه فى المظاهرات التى يكثر نشوبها فى العاصمة ، فكان لا يعرف الانتظام فى دراسته المضطربة وتعثر فى تعليمه ، فراح والده يكتب اليه : (يابنى اذا كنت لا تنفع فى المدارس ، فعد الى بلدك نفتح لك دكانا ، فأنت على قولك ، تعلمت أصول النجارة والبرادة والسباكة) . . . لقد تأثر بموت زميل له فى احدى المظاهرات . . . كان يحس بأنه السبب فى موته . . . ذلك لانه حرضه على الخروج من مخبئه . . . فأطاعه وخرجا يعدوان معا فى جرف المظاهرات ، وكان من سوء حظهما أن قبض عليهما الجنود ، الذين أخذوا يضربون زميله حتى لفظ أنفاسه ، وافقت (العرجاء) على مصاحبته الى قريته . . . فتح دكان للنجارة . . . لكنه لم يفلح ، عمل بالسباكة فلم يوفق أيضا . . . انه يهيم على وجهه فى المزارع والحقول . . . ويقف أمام الترع بالخص ليصطاد فهو مشتت الذهن . . . لا يعرف ماذا عساه أن يعمل . . . عمل بالبرادة لكن الحظ خانته . . . ان مأساته تتركز فى شعوره بالذنب ، فقد كان السبب فى قتل زميله الطالب . . . فلو كان قد تركه مختبئا فى مكمنه ، لنجا بحياته . . . وتضطر الزوجة — ازاء ظروفها التعسة أن تحيك ثياب الموسرات من أهالى القرية . . . مقابل أجر زهيد لمصرف منه على بيتها وروجها . . . أما شخصية الشاب النرى الفنان الذى يهوى الموسيقى ويهوى العزف على الكمان لزوار (الحان) ، بدافع من حبه لمجلسهم ، وحبه لجو (الحان) فقد احتار والده فى أمره . . . انه يريد أن يرعى تجارته فى دكانه ، فهو من أغنى تجار الحبوب فى القرية ، لكن هذا الشاب الرهيف يرفض أن يمتهن هذه المهنة ، ويأبى الا أن يكون موسيقيا مشهورا . . . انه يرفض أن يبتز الفلاحين . . . ويضيق بمسائل الجمع والطرح ، والزائد ، والناقص . . . وأخيرا ، تأتى شخصية (الأستاذ) الى القرية ، فيسنبشر بمجيئه الأهالى جميعا . . . جاء وكأنه مقدم على عمل جاد خطير ، فيجمع كل الأعيان

والعمدة ، وكبار الفلاحين الاقطاعيين ويحدثهم عن رغبته فى الاصلاح، والقضاء على الفقر والبطالة والمرض فى القرية ٠٠ فأمر باغلاق الحان مما جعل صاحبه يعمل تريبا فيما بعد . وسعى الى مرور شريط السكة الحديدية بالقرية ٠٠ لقد دبت الحياة فى أوصال القرية ، وزحف العمار اليها ، وسعى الناس فيها الى أرزاقهم فقد آن لهم أن يستيقظوا بعد نومهم العميق . كل ذلك بفضل أحد أبنائها الذى كان غائبا عنها ٠٠ لقد قال لهم فى لقائه بهم : (أنا ابن هذه القرية واحد من عشيرتكم ٠٠ ليس بينكم رجل الا وتربطنى به القرابة ، أو النسب ، أو الصداقة ٠٠ ان الضرر الذى يصيبكم يلحقنى ، والخير الذى يعمكم يشملنى ٠٠) .

وبعد ، عرضنا لرواية (صبح النوم) وتناولناها بالدرس والتحليل ، لنسجلى ما تحمله فى جوفها من صور وأحاسيس ودلالات ٠٠ ومن الملاحظ ، أن (الحان) تمثل هنا « وحدة المكان » ، وأيضا « الوحدة الشعورية » لرجال القرية ٠٠ فكل منهم يسعى اليها ليفرج عن مكبوتاته ٠٠ ان نفوسهم تنفرج جميعا . فتتنال مآسيهم فى سرد وأحاديث ٠٠ شخصية الفنان الذى يهوى الموسيقى والغناء فلا يجد أحدا يسمعه النهم الا رواد الحان وشخصية القزم الذى يشكو من زوجته الشرية ، أما شخصية القصاب فقد ظلت أشبه بالذرة المغلقة ٠٠ لا تنفتح حتى ولو بالخمر .

قصة نفس

للدكتور زكى نجيب محمود

(قصة نفس) لمؤلفه الدكتور زكى نجيب محمود ، كتاب يتميز موضوعه بطابع خاص يجعله منفردا عن بقية كتبه السابقة فهو هنا يحدثنا عن الفلسفة كما هو مألوف عنه ، ولا يحدثنا عن نظراته النقدية فى الأدب أو الفن ، حديثه هنا حديث يتصل بالنفس وطبيعة هذه النفس وما تنطوى عليه من أسرار .

كانت حياة الدكتور زكى نجيب محمود سلسلة من المعاناة والجهاد والمثابرة لكن « لم يفت هذا كله فى عضده وانما كان بمثابة القوة التى تدفعه الى الامام دائما . . ولم يكن النجاح - فى بدء حياته - سهل المنال ومن ثم ، كان اذا حاز شيئا من هذا النجاح يظل ذهنه يقظا فلا تغمره موجة من هذا النجاح وانما نجده يحاول أن يسترجع صور الفشل السابقة التى أعجزته عن الحصول على مثل هذا النجاح . . هذه النظرة المزدوجة للأشياء جعلته لا يبصر شيئا الا من خلال شكليه (المختلفين المتناقضين) . . فوضح النهار يذكره بموج الليل الاسود . . والفرح الذى يملأ جوانحه لا يحول دون أن تطفر من عينيه دمعتان حزينتان . واذا كانت هناك نشوة ما تهزه طربا فما أكثر كثوس الألم التى تجرع مرارتها . . وقد نستطيع أن نرى ابتسامة مشرفة تعلو وجهه لكن طبيعة هذا الوجه المكدود لا تعرف الا الجهامة فى أغلب الأحيان . . وقد ينبض قلبه بشدة فينهمر سيلا جارفا من الأحاسيس والانفعالات لكن ذهنه المتقذ يتوثب فيلجمه بالمنطق الصارم ويكبح تلقائية الفنان فى أعماقه ويأسره ويحصره فى اطار مغلق محكم لا يجد منه مخلصا وهكذا تتمزق وتتوزع بين قوى الدوافع والرغبات المتنافرة .

وقد انعكست طبيعة هذا التكوين النفسى أى الذى يتميز به أستاذنا

على ادراكه للأشياء فهو لا يكون فيلسوفا الا اذا تعقل مجرى الأشياء الذى ينهمر تحت حواسه فيدركه ادراكا حسيا (وضيعا) بحيث يستحيل هذا الادراك فى ذهنه الى نسق من الكلمات . . كل كلمة ما هى الا اشارة تشير الى شىء محسوس . . أما الكلمة التى تفقد الاشارة الى شىء بعينه فيجب أن ينحيا جانبا لأنها كلمة فارغة ليست جديدة بالتعامل أو اتخاذها لبنة تشارك فى بناء التفاهم العلمى بين الناس .

وهو من ناحية أخرى لا يكون أدبيا فنانا الا اذا تحسس الأشياء بوجوده وذاق طعمها بقلبه . . وهنا تنبض الأشياء وتلمع بألوان الشعور . . هنا يجوز التناقض الذى يفجر الأحاسيس المصطرة التى تشف عن طبيعة الحياة الداخلية للانسان .

شخصية المؤلف :

بين هابن النظرتين المتناقضتين تقف شخصية المؤلف حائرة . . تبذل جهدها الجهد من أجل ترضية كل نظرة على حدة . . فهى حينما تشبع نظرة الفيلسوف عن طريق نتائجها الوفير فى الفلسفة ، وهى حينما آخر ، تحن الى نظرة الفنان فتستلهم ابداعا أصيلا لكنها تعجز بالرغم من كل هذا فى تحقيق التوازن والتعادل بين هاتين النظرتين المتنافرتين . . ومن هنا يفجر صراعا الذى يمزقها تمزيقا . وبالتالى يكون هذا الصراع مدعاة الى الاخصاب والانتاج فى عالمى الفلسفة والأدب .

وكانت الركائز التى يقوم عليها هذا البناء تتمثل فى لحظات بارزات يذكرها دائما فهى لا تنطفىء على مر الأيام .

يذكر يوم ضربه والده بكتاب ضخم على رأسه عقابا لعجزه عن الاجابة الصحيحة فى علم الحساب وقد دفع الغضب والده فرفعه بين يديه الى أعلى ثم ألقي به الى الأرض صارخا فى وجهه (لا يعيش ابني خائبا) وقد أوغرت تلك الحادثة صدر ذلك الصبى وقد زاد تأزمه حين رأى أحد الضيوف يقهقه قائلا : « لقد ضربته بالدنيا على رأسه » .

منذ ذلك ، والطفل ينمو دون أن يتخلى عن هذا المعنى المحفور فى أعماقه وهو أنه طفل خائب لا يحقق عليه أمل . . وكان من أثر ذلك حدوث رد فعل خطير يتمثل فى تلك الطبيعة النفسية التى تنتمى اليها شخصية الدكتور زكى نجيب محمود فقد استطاع أن يستwald من الاحساس بالفشل القوة التى تدفعه دائما الى النجاح وقد كانت كل لبنة يضمها فى بناء نجاحه بمنابة نوع من التحدى لمعنى الفشل الذى يثور فى أعماقه وكأنه يريد أن يقول لوالديه : (انظرا . . ها أنا أسير على

الدرب حتى أصل الى أقصى الغايات التى لم تتخيلها لى من قبل لقد كان يريد أن ينجح لانه أراد أن يقنع الآخرين بانه غير فاشل ٠٠ ومن ثم ظل دائما مشغولا بالرغبة ، فى الوصول من ناحية ، وبشعور قوى يصرخ فى أعماقه بانه لن يصل من ناحية أخرى ، ولأنه يستطيع أن يدرك أعماقه جيدا ، وبمعنى آخر لانه يستطيع أن يلمس ما يدور من أحداث وما كان يجرى فى زمن طفولته نراه يهتدى الى سر هذا الشعور الذى يمزقه تمزيقا ٠٠ ففى ليلة مظلمة ، كان يعبر جسرا فى صحبة والده وكانت الأرض التى يسير عليها غير معبدة فهى مليئة بالطوب والحصى وكان والده ممسكا به بيده اليمنى وقد حمل فى يده اليسرى حصانا من الحلوى كان قد اشتراه له بمناسبة مولد النبى وحين ترامى الى مسمعه صوت والده وهو يقول له انه يريد ان يكون رجلا عظيما تعثر فى سيره وسقط فجأة على الأرض وسقط معه الحصان متهشما .

ومنذ ذلك الحين ، ظل يربط بين الاحساس بالرجاء والرغبة فى تحقيق ما كان يرجوه اله والده من ناحية ، والاحساس بعيب القدر وسخريته من تحقيق هذا الرجاء من ناحية أخرى ٠٠ من خلال هاتين النزعتين المتناقضتين يتولد الصراع الذى يثير فى نفسه القلق والخوف والتوجس .

ومع ان الدكتور زكى نجيب محمود قد شكل نفسه الى ثلاث شخصيات ٠٠ كل شخصية تمثل جانبا من جوانب هذه النفس المعذبة الا انه ظل مشغولا فى أغلب صفحات كتابه بشخصية واحدة كانت موضع اهتمامه دائما . انها شخصية الأحذب وهى التى تمثل الحد الأكبر من الطبيعة التى تخص الاستاذ المؤلف . فالأحذب هنا واسمه (رياض) انما يمثل الجانب الانفعالى والحسى وهو الذى يقول عنه النشاط الأدبى والفنى عن الشخصية الرئيسية ٠٠ أما (حسام) فهو يمثل الجانب الاخلاقى والتقاليد فهو بمثابة (الحد الاوسط) الذى يربط بين الشخصيات الثلاث ٠٠ فاذا اطلعنا على كتاب فى النقد الاجتماعى والاخلاقي فعلىنا أن ندرك أن الاستاذ المؤلف قد استوحاه من شخصيه (حسام) التى تعيش فى أعماقه ٠٠ وأخيرا نجد (مصطفى) ينضاف بشخصيته الفلسفيه والمنطقيه الى هاتين الشخصيتين .

واهم ما يميز شخصيه (الأحذب) أنما هو طابع التشاؤم الذى يلزمه كما يلزم الظل صاحبه فهو ينظر الى الحياة على أنها صفقة خاسرة ، مهما اختلفت المقدمات ومهما تعددت الأسباب فاعتقاده لا يتزعزع بأن الحياة انما هى عملية معقدة من جمع وطرح وضرب وقسمة وأن الناتج

النهائي لابد وأن يكون صفرا . فما الحياة الا عبء ثقيل ثقيل على من يصيبه الخذلان .

فلم يلق الا الصدود وقد حاول الزواج من سميره التي كشفت له عن العالم المسحور - عالم الجنس - حين كان طفلا . . . وقد رأى الفرصة سانحة بعد وفاة زوجها مختار لكن راحت تصده بعد أن أنجبت مصطفى. وصارت جدة . . . وهكذا كانت الحياة عبئا ثقيلا على من أصابه فى الدنيا خذلان . . . لقد انزوى الأحب بعيدا . . . انزوى عن حسام وانزوى عن سميرة وعفاف . . . لقد علم . . . ان سميرة أنجبت مصطفى وان مصطفى يشبهه ، من وجوه عديدة وانه مسافر الى انجلترا لتحصيل العلم ويلتقى الأحب بمصطفى ويتفقان على أن يتراسلا طول غيابه . . . وراحت رسائله تترى على الأحب كانت هذه الرسائل بمثابة تعريف اتجاه مصطفى الفلسفى هذا الاتجاه الذى يأخذ به الأستاذ المؤلف . . . وكذا كان مصطفى يمثل جانب العقل والمنطق فى شخصية الدكتور زكى نجيب محمود .

فاذا كانت شخصية الأحب تمثل الحد الأكبر من صيغة النفس التى ينتمى اليها الأستاذ المؤلف صاحب كتاب « قصة نفس » فان شخصية حسام الأخلاقى انما تمثل الحد الأوسط الذى يربط بين (رياض) الأحب الفنان وبين مصطفى الفيلسوف المنطقى . . . على أن الشخصوص الثلاثة حين تتداخل وتندمج فى وحدة واحدة يمكن أن نطلق عليها الشخصية التى تمثل أبعادا .

وبعد ، فقد أراد المؤلف أن يصوغ نفسه صياغة جديدة وهو فى هذه الصياغة يستعين بالرمز فيشكل نفسه ثلاث تشكيلات رمزية أطلق عليها أسماء ثلاث شخصيات هم رياض الفنان وحسام الأخلاقى ومصطفى الفيلسوف .

وتبدو الصياغة طريفة هنا انها تقوم على أساس البناء والتشكيل وهى طريقة جديدة فى كتابة التراجم الذاتية ومن ثم ، يمكن القول بان استخدام الرمز للتعبير عن مكنون الذات انما يعد طريقة فذة فريدة فى أدبنا العربى .

ومن ثم ، فهو يحمل عبء حياته قتباً بارزا على ظهره . . . لكن هذا القتب الثقيل لا يثنيه عن جهاد الحياة فلا غرابة أن يجاهد من أجل حياة لا يدرك لها معنى ولا يذوق لها طعما . . . فهو يرغب فى هذه الحياة ولا يعجب من راغب فى ازدياد .

طفولة الأحدب :

والأحدب نراه دائما جاهما مشغولا بما يعتمل في صدره من أهداف يريد أن يصل إليها ومن ثم ، فهو يجاهد دائما من أجل الوصول . . لكنه يشعر دائما بعبث هذا الشعور الذى يدفعه دائما الى الامام .

والأحدب يغلب عليه الانطواء . . فهو اذا سكن فى دار لابد أن يسكن وحده . . واذا سار فى الطريق خشى أن تلتقى بعينه عينان وهو لا يسير تحت المصباح اذا وجد الظلام . . وهو لا يندمج مع الناس فى عجيبة واحدة . ولا ينطمس مع غيره فى سديم . . انه قطعة بشرية منثورة تدور فى فلك وحدها . وحين كان الأحدب طفلا يذكر ذلك الموقف العصيب الذى أدرك فيه حقيقة رهيبة لم تكن تخطر على باله من قبل . لقد أدرك أن لكل شئ نهاية وانه ما كان يظن ان المسافة بين الحياة والموت قريبة جدا ففى يوم لم يبق فى البيت الا اما وهو وكان لابد للام أن تنظر فى شئون البيت فأجلسته متربعا على السرير ووضعت شقيقه الطفل على ركبته وغابت عنه ساعة أو أكثر وكان الطفل يعبث بحشرجة فى صدره وهو يحتضر ثم ما هو الا أن مال برأسه وسكت الحشرجة ولم يعد الصدر يعلو ويهبط كما كان يفعل لقد مات راقدا على ركبته فصرخ ضارعا وقد كان ذلك أول موت شهده على قربة .

وقد اكتشف الأحدب منذ الصغر انه يميل الى التطورات النظرية وبقدر ما جهد يتمتع به من قدرة على التجريد والجدل النظرى بقدر عجزه واخفاقه فى ادراك منطق الحياة الجارية الذى يأخذ به سواد الناس . . فهو ثقيل فى خطوه . . فقد بداخله شعور الارتباك حين يلاحظ حركة يديه فلا يقوى على علاج شئ بهما ان الأحدب ينظر الى الحياة نظرة يائسة ذلك لانها ليست أكثر من ثلاث لحظات : اللحظة الميلاد ولحظة الزواج ويعنون به النسل الذى يحفظ البقاء ثم لحظة الموت أما عن لحظة الميلاد فهو لا يعيها لانها لحظة لا يمكن ادراكها الا بالخبرة ثم تجيء لحظة الزواج والنسل التى لم يعرفها لانه لم يعيشها اذن فماذا بقى له من حياته ؟؟ ان اللحظة الثالثة هى لحظة الموت . . لن يكون له علم بها لأنها تجيء بذهابه فلا لقاء بينه وبينها . وقد اشتغل الأحدب بالتدريس فأثار بقرابته انتباه الناس جميعا وما يزال بعضهم يذكره حتى اليوم حين كان يلقي دروسه على التلاميذ وهى دروس لا ينطق فيها الا كلمات اللغة الانجليزية وحملها بلسان غير عربى يحاول به أن يقلد أصحاب اللغة التى يعلمها فزاد هذا من غرابته . . لكن سرعان ما استقال من التدريس ليكتب فى المجلات الأدبية وقد كان وراء اعتزاله التدريس موقف اثاره بالغة . فقد أحس يوما بميل نحو فتاة تدعى عفاف فأراد أن يخطبها وكم كانت دهشته حين

رفضته العائلة . . وكان السبب انما هو مهنة التدريس التى كان ينتمى اليها ، رغم ان عفاف كانت تحمل له حبا مؤكدا . لقد كان لمثل هذا الموقف رد فعل فى تشكيل الناحية النفسية والمزاجية لدى الأستاذ المؤلف . . وقد يبرز هذا الجانب المتشائم المتئوى المائل فى شخصية الأحذب فينادى بأن الناس يخلطون بين فكرتين . . فكأنهم يحسبون ان لا حب حيث يكون احتمال الزواج . . وحين يسأل الأحذب عما اذا كان حبه قد برز اليوم بالنسبة لما كان عليه بالأمس يجيب بأنه قد تغير نوعه ، كان هيجانا على السطح فأصبح تغلغلا فى الأعماق . . كان كالشلال يقفز ماؤه فوق الصخور قفزا أرعن لا يبالى أى أحجار يفتت وأيها يزحزح فأصبح كماء المحيط العميق . . عندما يتبدى للعين ساكن الموج وفى جوفه تيارات جوارف . . فلا اندفاع ولا جراه مغامرة ولكن تآكل فى الجوع وانهيار فى الروح . . وقد حاول الأحذب أن يندمج فى طائفة من المشتغلة بالأدب والمفكرين بعد أن رفضته أسرة عفاف لينعم بشعور الانتماء الروحى على نحو ما ينعم الاتباع فى الطرق الصوفية .

العصافير (١)

تأليف : ياسين رفاعة

الحقيقة التي يعلنها عصرنا هي أن كل تطور ، لابد أن يعقبه تطور في الأساليب الفنية ، والأدبية ، وذلك ما حدث بالنسبة للأديب العربي المعاصر فقد اتسعت خبراته ، وتشعبت تجاربه ، فلم يعد يكفيه قالب القصيدة لكي يعبر عن كمية ما لديه من معطيات شعورية ، وإنما رأيناه ينسج رؤيته المركبة في ضوء أشكال فنية جديدة منها : القصة القصيرة ، والرواية ، والمسرحية ، فلا غرابة ، أن نجد الآن حصيلة وفيرة من هذا الانتاج عند أدبائنا العرب .

ولعل الأديب السوري (ياسين رفاعة) بمجموعته القصصية : (العصافير) ، أصدق دليل على ذلك . فهو يقدم إلينا في ثنايا هذا الكتاب ، أغلب الأساليب الفنية الشائعة في دنيا الأدب . ولسوف نلمس - في ضوء هذه الدراسة - كيف يجيد « أديبنا » كتابة القصة السيرالية ، والقصة الرومانسية ، والقصة الواقعية . . وهذا ينم عن ثراء موهبته وخصوبة حياته بحق . . ومن المؤكد ، أننا لا نستطيع أن الضرورية التي يستلهم منها « أديبنا » ، صوره ، وشخصه . وطاقتة تفصل حياته المليئة عن أعماله الأدبية ، ذلك لأنها تمثل « الخلفية » الدرامية . ومن هنا ، رأيناه يعرض لحياته في صورة مجردة من أي زخرف ، أو رتوش . . انه طراز فريد من الكتاب . . فهو يعيش وحيدا ، مكدودا ، فقد أضناه السعي وراء لقمة العيش . . كان اصراره دائما يمنعه من أن يستسلم ، أو تخور قواه ازاء العوائق . . فرأيناه يقاوم قوى الاحباط ، والتقاوس ، والتشبيط ، حتى استطاع في النهاية أن ينتصر ،

(١) مجلة الكاتب عدد ١٦٧ عام ١٩٧٥ .

ويؤكد شخصيته في عالم الأدب .. اضطرت الظروف القاسية الى قطع دراسته والتخلف عن المدرسة .. لكن ذلك ، كان مدعاة الى اصراره على مواصلة الطريق ، فأخذ يعلم نفسه بنفسه حتى أمكنه أن يقرأ ويستوعب أمهات الكتب في شتى « فروع » المعرفة . وتنقل (ياسين رفاعه) بين حرف منواضة عديدة .. عمل - في بدء حياته - عند صانع أحذية ثم اشتغل خبازا ، وعاملا في مصنع نسيج ..

ان ياسين رفاعه هنا ، يذكرني بالروائي الأمريكي « وليم فوكنر » فهو أيضا كان يعاني كثيرا ، فكان يعمل باحدى محطات البنزين ، واشتغل بالنجارة ، وكان ساعيا للبريد ، ولما ضاق ذرعا بهذه المهنة ، رأيناه يكتب استقالته في سطر واحد قائلا : « لن أكون - بعد اليوم - رهن إشارة كل شخص يدفع اثنين من البنسات ثمنا لطابع بريد » . كذلك تحضرني الآن صور من حياة « مكسيم جورجي » . فقد كان صبيا لطباخ على احدى المراكب ، وكان خادما في قصر أحد الأثرياء ، وذات ليلة سهر مستغرقا في قراءته على ضوء (الشمعدان) حتى احترق . مما عرضه للعقاب غليظ من سيده . فقد أوسعه ضربا بجذع شجرة . حتى أصاب ساقه بالكسر ..

وجدير أن نذكر ، ان ياسين رفاعه ، انما يعكس تجاربه المؤسسية على أغلب شخصوه في قصصه .. تلك الشخصوص التي فجعت في آمالها ورغباتها ، فلم يسعها الا أن تنفس عن كظمها وكتبها عن طريق الأحلام .. وبذلك ، تستعيد توازنها ، وتؤكد انسانيته . ومن ثم ، فهو يبدأ كتاب «العصافر» بقصة رجل يحلم .. فنجد البطل» يستلقى ممدودا تحت ظل شجرة ، وما أن يغمض عينيه حتى يرى في منامه كل ما كان يشتهي في يقظته .. فقد أراد أن يعبر عن فرحته بوليدته الرضيع ، فيشتري له حذاء جديدا ويهدي لزوجته حلة تقيها البرد .. كان يحلم أن تكون له بناية ، أو يضع أشجارا من الزيتون ، تأمنه من الفاقة والعوز ، لكن الحياة لم نمهله رويدا . فقد دهمته عربة نقل ضخمة ، فسحقته سحقا وهو في نشوة أحلامه .. لقد نام (البطل) نوما أبديا ، وتسربت منه الحياة بما فيها من حرمان وأحلام . وفي قصة (المولد) نجد « أدينا » يستخدم في كتابته أسلوبا سرياليا ، فهو يحطم منطق الأشياء ، ويخلط بين الواقع والوهم ، ويعمل على تشكيل المرئيات في تركيبات غير مألوفة ، لا تنتظم في سياق معقول .. انه يركز هنا على ايهام « المثلقى » بأن « الزوجة » قد أنجبت « وليدا » ، فهي الآن تغمره بحنانها . والوليد يلامس بأنامله سفتيها ، فتخرج له نديها ، الذي أخذ يتحلبه في نهم .. تقول لزوجها : (أنظر انه يشبهك ، كل ملامحك في وجهه .. عيناه عينيك ، شعره شعرك جبينه جبينك ، حتى غمازة خده مثل التي في

خذك) ٠٠ ويواصل « الكاتب » تعقيل هذا الوهم حتى يدخل فى روع (القارئ) بأن « الوهم » « حقيقة » ثم يشد انتباهه بعد ذلك ، الى صورة سيريلية أخرى - كان الزوج قد وعد زوجته بأنهما فى الصباح سيذهبان معا الى « جبل الثلج » ٠ « ان الزوج هنا يداعب ابنه ٠٠ يقذفه بكرات الثلج ، صنع له رجلا من الثلج ٠ ووضع فى فمه غليونه كان الولد غزالا ، وكان طيرا أبيض ٠ وكان غيمة ٠ وكان شجرة ، وكان مدينة من الألعاب » ٠ وسرعان ما تتبخر تلك الصورة بمجرد أن استيقظا من نومهما ٠٠ راحت المرأة تبحث عن رضيعها فلم تجده ، وأخذ الرجل يبحث عن ابنه الذى يلاعبه ، فلم يعثر على أثر له ٠٠ وتذكرا أنهما كانا يحلمان ٠٠ لكن « الكاتب » لم تكتمل رؤيته بهاتين الصورتين السالفتين وانما أراد أن يجسد حلم الزوج والزوجة فى صورة واقعية محسوسة ثالثة ٠٠ ففي الصباح خرجا معا فى رحلة الى جبل الثلج ٠٠ وهناك رأيا أطفالا من مختلف الأعمار يلعبون فوق الثلج ، ولحذا رجلا يصنع تمثالا من الثلج ، وقد تحوطه أطفاله وزوجته ، ووضع الرجل قبعته على رأس التمثال ، وأخرج غليونه وأدخله فى فمه ٠٠ وعند ذاك ، احس الزوج الذى ينشد ابنا له ، بصقيع قاس يلف عظام جسده ٠

فى ضوء ما سبق ، نستطيع أن نستجلى ثلاث صور ٠٠ صورة حلم الزوجة ، وصورة حلم الزوج وهما يمتازان بطابع سيرىالى محض ٠ ثم صورة ثالثة واقعية جاءت لتؤكد دلالة الحلم فى الخارج ولكى تفجر الشحنة الانفعالية التى تحتويها القصة أما قصة : « نجمة الصباح » فهى تصور حالة طفل يصدم بفقدان أبيه ٠٠ ان « الكاتب » يرتقى بمدارك الطفل درجة ، درجة حتى يجعله يستنبط فى النهاية ، فجميعته فى أبيه ٠٠ وكان « أديبنا » هنا على وعى بأن ليس لدى المرء من الشجاعة ما يجعله يقوى على مواجهة الحقيقة وجهها الوجه ، متحملا وطأتها المصدمة ٠

ماذا عسى الطفل أن يفعل لو أحس بفقدان أبيه فجأة ؟

ان « حسان » الطفل يجلس الآن فى حجرة « الصالون » مسددا عينيه الصغيرتين الى صورة والده المعلقة على الجدار ٠٠ لقد تزاحمت فى صدره المشاعر التى راح يسقطها على الصورة الخرساء ، فجعلها تنطق وتجرى معه الحوار التالى :

- غبت طويلا يا أبى ٠٠ لن تفارقنا بعد اليوم ؟

- أبدا ٠٠ لن أفارقكم ٠

- هل ستشتري الى دراجة مثل دراجة صديقى خالد ٠

— سأشتري لك أجمل دراجة •

وهنا نجد « الكاتب » يحطم السياج الصلب الذى يفصل بين
الخيال والحقيقة •• فيجسد لنا صورة حسان وهو يركب دراجة فريدة
من نوعها ، فهي تحمله كأنها طائفة ، يمتطيها دون أى عناء •• وهو يشق
بها الريح •• كان فرحه عظيما ، لكن سرعان ما يتلاشى هذا الفرح ،
بمجرد دخول أمه عليه ، فانتبه اليها ، وأخذ يمطرها بأسئلته الغريبة :

— ماما متى يعود أبى من السفر ؟ وتجييب الأم — عندما تكبر
يا حسان • — لماذا عندما أكبر ؟

— وعدنى أن يعود عندما تصير شابا ، انه مسافر الى مكان بعيد •

أخذت (الأم) تحنه على المذاكرة ، فأخرج بعض الأقلام الملونة ،
ورسم شكل طائفة تطير فى الليل •• وطلبت منه أن يرسم لها قطارا ••
الكن (حسان) رفض ذلك •• انه يكره السفر بالقطار ، فقد تذكر قول
أمه بأن أباه حمله القطار الى مكان بعيد •• انه السبب فى حرمانه من
أبيه •• ولما سألتها بماذا يحب السفر •• أجابها : بالطائرة •• فهي
تذهب وتعود فى نفس اليوم •• ويستدرج الطفل أمه مرة ثانية ،
فيسألها : ألم تعرفى الى أين سافر ؟ فتجييبه قائلة : سافر الى نجمة
مضيئة فى السماء •• وتلوح الدهشة على وجه الطفل ، فيسألها : — هل
هناك قطارات تسافر الى النجوم ؟ !! •

— ثمة قطارات • — وهل يسافر الناس الى النجوم ؟ — يسافرون
عندما يملون الدنيا •

— وكيف أعرف النجمة التى سافر اليها أبى ؟ — عندما يجىء
منتصف الليل ، سيكون هناك فى السماء نجمة مضيئة أكبر من كل
النجوم ، اليها سافر أبوك •

ونام « حسان » طويلا ، وقد أصر على رؤية النجمة المضيئة •• وفى
تلك الليلة تسلل وخرج الى الشرفة وراح يبحث بين النجوم عن نجمة
مضيئة أكثر من غيرها ، وكم كانت فرحته حين عثر عليها ، وصمم على أنه
سيركب الطائرة ويسافر اليها ، ويعود بأبيه الى البيت لكى تفرح أمه ••
كرر رؤيته لتلك النجمة فى كل ليلة ، وخيل اليه أنه يلمح فيها وجه
أبيه ، وكيف يلوح له بيديه •• لكن ذات ليلة ، أبصر نجمته تشتعل
فجأة وتهوى •• وهنا يتم ادراك الطفل لحقيقة مأساته •

لقد جزأ « الكاتب الفنان » (حقيقة الموت) الى أجزاء صغيرة ، ثم

صاغها جميعا فى صور شيقة يمكن أن ترقى اليها مدارك الطفل .. فى البدء ، كان القطار ، ثم الطائرة ، ثم النجمة المتلألئة فى كبد السماء ، وحين احترقت النجمة وهوت .. صرخ الطفل فى تلك اللحظة فقد اكتمل ادراكه لتلك الحقيقة : وهى أن أباه قد فقده الى الأبد .. واضح أن هذه القصة ، لا تخلو من الصبغة السريالية التى يمكن أن نلمسها من طبيعة تشكيلها وتركيبها .. فصورة الوالد الصماء المعلقة على الجدار، تنطلق مفصحة عن رغبات الطفل ، فتمنحه دراجة غريبة يخترق بها أدراج الرياح ، وتصوير الأم لنجمة الصباح على أنها مسكن والده ، وإيهامه بذلك ، وتخيله للمامح أبيه ، وتلويحه بيديه ، كل هذه الصور تعلو على الواقع ، ولا يستقيم ومنطقه المؤلف . ويضم الكتاب قصة سريالية أخرى بعنوان (زهرة البنفسج) وبطلة هذه القصة فتاة عانس تبلغ الثلاثين من عمرها دون زواج .. انها تنسج من أحلام اليقظة عالما مشرقا مضبئا بالجمال والخير والحب . ذلك العالم الذى استمدت تكويناته من صميم تلك الجملة التى نطقت بها أمها ذات يوم : (يا منى أنت فتاة جميلة) فقد أخذت تلون كل الأشياء التى تحيط بها بأثر تلك الجملة التى كان لها مفعول السحر على نفسها .. الطبيعة ، والزهور ، والطيور ، صارت تتغنى بجمالها .. يقول (الكاتب) : (رفعت رأسها نحو العصفور بعينين دامعتين .. زقزق العصفور وقال لها : - انت جميلة يا منى .. جميلة كصفاء نجمة يغسلها الدمع باستمرار .. ابتسمت بحرارة ، وهمست : (آه لو يقول لى هذا الكلام رجل ما ..) .. وتمضى الأيام وتتأرجح (منى) بين الوهم ، والحقيقة .. ان عالمها الحقيقى ينكر جمالها .. أما عالم الأحلام ، فيعطيها كل ما يروى ظمأها وحرمانها .. فلتفضل العيش فى دنيا الخيال ، طالما أحسست فيها بالسلوان والسكينة والراحة .. انها تخرج الى الطريق وتنغمس فى جوف المدينة ، ثم تعود وقد استبد بها اليأس .. لا أحد يغازلها بكلمة حلوة تشعرها بأنوثتها ، وتقنعها بأنها موضع استحسان الرجل . يقول المؤلف : (وأحسست أن المدينة وحش لا يرحم ، وأن أرصفتها جلاد قاس ، لا يلين الا تحت أقدام الحسناوات ، فقبعت فى بيتها) وتظل الفتاة فى حالة ارتداد عن الواقع الجاف الذى يضمن عليها بفتى أحلامها ، فتظل تنسحب منه شيئا فشيئا حتى تنتهى برفضه تماما .. وبذلك تغوص فى أعماق عالم خيالى محض .. وذات يوم ، فتحت النافذة ، فترأى لها فتى . أحلامها .. وهو يمتطى حصانه الأشهب ، ملوحا لها بمنديله ، فنسرع الى المرأة لتتزين ، وترتدى ثياب العرس البيضاء وتهرع اليه .. وقال لها : - أهلا جميلتى .. كم ستسعدينى . وأمسك بيدها وهو يقول : - تعالى يا زوجتى .. وفى اليوم التالى ، اكتشف الناس جنة الفتاة طافية

على سطح النهر . وزهرة البنفسج معلقة فى طرف شعرها . وفى ضوء ذلك ، يتبين لنا أن القصة ذات تكوين سيريالى ، فنلاحظ أن « البطلة » هنا تعمل على هدم سياق الأشياء ، فتعامل الواقع معاملة الوهم بحيث لا تفرق بينهما ، ويبرز الكاتب الدلالة المساوية فى هذه القصة بزهرة البنفسج . . . وهى زهرة حزينة تعبر بها البطلة عن مآتمها .

وإذا كانت القصص التى عرضناها سلفا ، يغلب عليها الطابع السيريالى ، فإن (أدينا) لا يثبت عند حدود هذه الرؤية ، فى عالمه الفنى وإنما كان قادرا على تلوين رؤيته وفقا لطبيعة المادة التى يتناولها فنعلمنا نمس فى قصصه التالية كيف يمتاز أيضا بنزعة رومانسية ، ونزعة واقعية . وفى قصة « الحديقة » يحكى لنا (ياسين رفاعه) عن تجربة حب قديمة ، كانت تجمع بين رجل وامرأة تحت سقف مدرستهما . . . لقد وقع فى حبها . فبادلته شعورا بشعور . . . لكنهما افترقا ، ولم يتزوج حبهما بالزواج ، وتاه كل منهما عن الآخر فى متاهات الحياة . . . والآن يتقابلان من غير ميعاد . . . فبمحض الصدفة ، يتعرف ابنه الطفل على أبنيتها الطفلة ، ويحس الطفل أنه مشدود الى الطفلة ، وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد . وراح يداعبها ويمرح معها . . . عرفت منه أن أباه يعمل مدرسا وعرف منها أن أمها تقوم بالتدريس أيضا . . . وما أن أرادت أمها أن تنصرف . وكذا والده ، حتى يتفق الطفلان على التلاقى مرة ثانية ، فى نفس المكان . . . وفجأة تلمح المرأة ، الرجل ، فيتجمدان فى مكانهما ويتبادلان نظرات صامته ، وكأنهما ينصتان الى صوت الماضى البعيد ، وما ينوثر فيه من صور ، ووقائع وأحاسيس . . . وفجأة تنبها الى ضجر الطفلين فواصل كل منهما السير فى طريقه . . . ولعل أدينا يفصح بهذه القصة عن أن تجربة الحب ، تجربة عميقة عمق المحيط ، فلها من التأثير ما يجعلها تنفذ فى وجداننا ، وتنخر نخاعنا ، فتظل آثارها غائضة مترسبة فى عالم اللاشعور . . . وقد تطهو هذه التجربة الى السطح ، متجسدة فى هذين الطفلين ، حيث يتجاذبان ، ويلعبان نفس التجربة ، وقد يحصدان منها أكثر من الذكريات . . . لقد أمكن لياسين رفاعه أن يمنحنا فى ضوء هذه القصة ، كل المعطيات الرومانسية . وفى قصة : « حوار مع الورد الأبيض » يخرج « الطفل » من بيته حزينا متأسيا بسبب الخلاف الذى نشب بين أمه وأبيه والذى أدى الى صدام وعراك بينهما ، فوالده دائم الغياب عن بيته ، مما جعل الأم تشك فى مسلكه فقد ساورتها الظنون بأنه يقضى وقته عند إحدى فتيات الليل ، فجن جنونها ويشكو الطفل الى صديقته « الوردة البيضاء » ما حدث فى بيته ، عليه أن يقطفها ليقدمها هدية لوالدته وبعد الحاج شديد ، يرضخ الطفل ، ويفعل ذلك ، الأمر الذى جعل أمه تبتسم ، وتذهب بدورها لتهدى زوجها

هذه الوردة ، فتقبلها هاشا ، ومن ثم ، ذابت سحابة الصيف وعادا الى صفائهما من جديد . . ان هذه القصة ينطبق عليها قول «اسحق نيوتن» : (ان الطبيعة لا تفعل شيئا باطلا) ، ان أبهج ما فى الطبيعة ابتسامتها الناضرة المائلة فى الزهور ، والورود تلك التى تمنحنا احساسا بالنسق ولانسجام والجمال . . ذلك الاحساس الذى يذيب كل ما يرتق صفونا من قبج ، ونشاز وكدر . . فلا غرابة اذا رأينا الصفاء والوثام يعودان الى الزوجة والزوج ، بمجرد احساسها بالجمال .

ولعل ذلك ، ما يجعل قصة : حوار مع الورد الأبيض رومانسية قلبا وقالبا . أما قصة الله . . والسمكة ، فهى تحكى عن مجموعة من الصبية ، خرجت من أكواخها المتلاصقة متجهة الى البحر غير عابثة بتحذيرات الأهالى من الاقتراب من البحر . . كان الجوع ينهش فيهم نهشا ، الأمر الذى جعلهم يدعون الله بأن يأمر البحر بالقاء سمكة الى الشاطئ. يسدون بها رمقهم وكم كانت فرحتهم حين دفع الموج العاتى بسمكة كبيرة ملقيا اياها على رمال الشاطئ . . وبينما هم يندفعون ليلتفوا حولها مهللين بغنمهم ، اذا بلصين ينقضان على السمكة . ويهددان بذبح كل من يقترب منها . . وهنا تتحول غنيمتهم التى كانت فى قبضة أيديهم الى سراب ، ومن ثم ، نرى الشئ ونقيضه يحدثان فى لحظة واحدة . . فلحظة العطاء والمنح تتمدد وتتراخى حتى تصير هى أيضا لحظة الخطف والحرمان فى آن واحد انها لحظة مزدوجة تحمل البشر والتفأول الذى ينقلب فجأة الى حسرة ويأس . ولعل الصدام الحاد بين هذين النقيضين ، ما جعل تلك اللحظة تبلغ أقصى درجة من التوتر . . أن ياسين رفاعة هنا يريد أن يؤكد أن الأقوى انما هو الذى يفرض ارادته ولو بالقهر والارغام . . فليس المهم أن يكون الشئ فى حوزتك ، وانما المهم أن تكون قادرا على الاستئثار به وانتزاعه من أنياب المعتدين . انها قصة واقعية من ناحية المضمون ، لكنها تنتمى الى شكل رومانسى . أما قصة (أشجار الزيتون) فتدور حول رجل كهل أشرف على أن يفارق حياته وهو الآن يضطجع على سريره محصيا ما قدمت يداه فى دنياه وبدخله شعور الارتياح فقد أعطى للحياة قدر ما أعطت له ، أعطاهما ثمرا ، وأبناء ، وأحفادا . . ونزل عن سريره وخطا خطوات ثقيلة الى شجر الزيتون وأخذ يبارك هذا الغرس ويعانى كل جذوع الشجر ثم رجع الى بيته واستلقى على سريره وقد أغمض عينيه وكأنه يغط فى النوم . . وكم كانت دهشة أبنائه حين لاحظوا الأرض مبتلة فى الصباح ، وهرعوا الى جدهم ليخبرهم عن سبب ذلك ، نادوا عليه . لكنه لم يجب . . وكأن السماء كانت تبكى حزنا على فراق الرجل . . ان مدلول هذه القصة يتمثل فى أن كل شخص رهين ما بذله من جهد وما كسب فى الحياة .

اما قصة (المارد) فتصور أسرة فقيرة تعاني الفاقة والعوز ، فالأب مبتور القدم لايقوى على العمل والام مريضة ، تحتضر على فراش الموت . . أما ابنها خالد فيتوقع أبوه أنه سيصبح شحاذا . . ان «خالد» يدفعه ألم الجوع الى الذهاب الى آكوام القمامة المكدسة عند الشاطئ لعله يعثر على كسرة خبز هناك . . وفي أثناء بحثه تصطدم قدمه بجسم صلب . . لقد كان فانوس علاء الدين السحري . . ان « خالد » يستطيع ان يمتلك كنوز الدنيا بهذا الفانوس لكنه الآن يرتجف ويرتبك ويتلعثم فلا يعرف ماذا يريد . . كل ما طلبه رغيغف من الخبز يسد به رمقه . . واحس المارد العملاق بأن « خالد » يستخر منه فانسحب الى الفانوس غاضبا وسرعان ما احترق الفانوس وصار رمادا . . لم يغتنم خالد فرصة الشراء التي جاءت من حيث لا يدري . . لقد ضاعت منه . . وكان الكاتب يوعز الينا من خلال هذه القصة ، بأن الحياة فرص وحظوظ ، وان مصير الانسان وقدره قد يكون محكوما بنلك الفرص والحظوظ ، فمن يغفل عن اغتنام فرصته فقد يتخلف عن ركب الناجحين الفائزين فى الحياة . . وفى قصة « فى المصعد » ، يرمز « الكاتب » بالمصعد الى الحياة التى ينمو فيها الكائن ويرتفع شيئا فشيئا - تماما مثل حركة المصعد ، ثم يهبط تدريجيا الى اسفل الدرك ، اما ركاب المصعد فهم رموز لمراحل تطور الانسان وارتقائه مثل هبوطه وذبوله وتلاشيهِ . . فالحياة جميلة جمال تلك المرأة الناضرة التى ركبت فى المصعد . . والحياة جذابة جاذبية الشباب الانيق الموجود معهم اما الرجل المتعب المكدود المثقل باحمال زوجته السمينه ، وأولاده ، فقد وقف كسييرا متحسرا على شبابه الذى ولى ، مبتسما لتلك المرأة الجميلة التى تذكره بأيامه الحلوة ، حين كانت تضحك له الدنيا وتقبل عليه .

وتأتى قصة لعبة الزمن لتصور فتاة تعاني من القلق والضيق ، فاخوف ما تخاف الا تصل الى حبيبها فى الموعد المحدد ومن ثم ، تحاول ان تسبق الزمن فتركب احد التاكسيات ليصل بها سريعا الى بيت فتى أحلامها لكنه يتعثر فى الطريق لكثرة العربات وتوقفه فى الاشعارات ، واخيرا تصل فى نفس الميعاد فقد اكتشفت تأخير ساعتها نصف ساعة .

وتصور رقصة الموت ، رجلا يحتضر على فراش الموت . . انه يحاول جاهدا أن يقاوم الموت ، ليمهله رويدا حتى يقول كلمته الأخيرة ، لكن عبثا يحاول ، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة دون ان يقول كلمته الأخيرة . أما قصة العصافير ، فهى أشبه بالسيمفونية المؤلفة من سبع حركات ، أمكن للكاتب أن يصوغها فى ضوء فكرتين متعارضتين تتأججان فى صدر الانسان فكرة الطبع ، وفكرة التطبع . . أى فكرة الطبيعة والفطرة

والشجيرة التلقائية من ناحية ، وفكرة التطبيع والاكتساب والتنشئة الاجتماعية من ناحية أخرى . هل يهوى الانسان حياة الفطرة والبراءة والحرية ، والانطلاق ؟ أم تراه يميل الى النمدين والتحضر والنظام ؟ يقول روسو : (ان الانسان ابن الطبيعة) أى انه يجد فى رحابها الأمن والسكينة والسعادة ، وعلى العكس من ذلك نراه يشقى ويتألم ويتأسى كلما اقترب من كل ماهو صناعى . وزائف ، ومفتعل . ان ياسين رفاعه ، يومئذ فى هذه القصة الى البراءة والعفة والنقاء برهزين محوريين هما : الطفل والعصفور . ان كلا منهما يتمنى أن يحيا حياة الآخر . ان الطفل يتمنى أن يطير عصفوره الصديق ، فيحلم فى منامه أنه قد انطلق وعصفوره الى البحر ، وأن كثرة من العصافير قد لحقت بهما ، الأمر الذى جعل الطفل يتوه عن صديقه العصفور وحين يشعر بأن جناحيه لاتقويان على حمله يسقط فى هوة سحيقة ، فيصرخ مفزوعا ، ويستيقظ فى الصباح فيرى عصفوره . فينادى لكى يأتى اليه ، فلم يأبه به وعند ذاك يقف الطفل عند طرف النافذة ويحرك يديه فيقفز الى الأرض مهتسما ، ذلك ما يمثل الحركة الاولى من السيمفونية ، أما الحركة الثانية فتصور ذكاء الانسان وتحايله على أسر عصفور داخل قفص خشبى لكن حريقا ينشب فى البيت ويأتى على كل شئ . لقد أطلقت النار سراح العصفور الحبيب فأمكنه أن ينطلق وكأنه يتحدى الجميع ، فرغم حبسه ، استطاع أن يطير . وفى الحركة الثالثة ينجذب العصفور الى بكاء طفل يرقد على السرير وحين يقترب منه ليغنى له ، يلتهمه قط أسود ، وتصور الحركة الرابعة من السيمفونية ، ذلك الشر الذى يلحقه الانسان بالكائنات الضعيفة ، فبينما تحتفل العصافير بعرس عصفورين ، يدوى طلق نارى فى الغابة ، فتهب العصافير هاربة الى السماء وتأتى الحركة الخامسة لتكشف عن مخاوف العصفور الصغير ومن ثم يسأل جده الكهل : لماذا خلقنا الله ؟ فيجيبه لكى نطرب الناس ، ونوقظهم الى العمل ، وتذكر العصفور الصغير العلاقة المأساوية بينه وبين الانسان ، ومنذ ذلك الحين كف عن الغناء . وتصور الحركة السادسة ، هذا العصفور الذى سئم حياة الغابة فهاجر الى المدينة ، وما أن لمح رجلا يخرج سكينه ليذبح بها رجلا آخر ، حتى فر هاربا صوب الغابة ، وتصور الحركة السابعة

من هذه السيمفونية ما يعانیه العصفور من عجز وضعف ، حين تهطل
الأمطار ولا يقوى على الطيران ، ولا يجد له حتى المأوى ، فنجد عصفورا
شاردا يرفرف بأجنحته المبتلة وكأنه يستجدي هذا الرجل داخل غرفته
الذى جلس وهو وزوجته أمام المدفأة يستجديه لكي يسكن اليه بشرط
ألا يؤذيه .

وهكذا ينحقق فى النهاية بعد معاشة هذه المجموعة القصصية
الشاعرية ما قلناه فى البداية من أنها أصدق دليل على ثراء موهبة صاحبها
وخصوبة حياته ومدى طاقاته الدرامية التى أنضجتها تجارب الحياة
والتي زودته برؤيا صادقة للأشياء تتميز بلغة شاعرية شفيفة لا تقارن
طوال معاشة لعصافير أدينا السورى ياسين رفاعة .



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

المصيدة

زهير الشايب

حين أتناول بالدرس ، والبحث كتاب (المصيدة) للأديب الشاب (زهير الشايب) ، وألاحظ كيف جعل من (الاتوبيس) «وحدة المكان» لعالمه الدرامي المتصل بقصص هذه المجموعة ، يتداعى فى ذهنى هذا التشبيه الذى طالما راودنى ، وألح على الحاحا شديدا ، فعندى أن زحمة أدباء القصة أشبه بزحمة الاتوبيس المكس بالركاب ، تكديسا جعلهم فى صورة كتلة بشرية مطبوسة الملامح ، عvisية على التمييز والنباين بين أفرادها ، حتى أكاد أقول أن أغلب الكتاب الشبان فى هذا الصدد ، سواسية كأسنان المشط ، فأقل من القليل ، هو الذى يتفرد فى إنتاجه، وفى خصائصه ، وهو الذى يشرب بعنقه محاولا أن يبرز ، ويرتفع فوق مستوى السطح ، معطما فى ذلك ، مبدأ : (استواء الأطراف) ، الذى يندرج تحته هذا (الكم) الضخم من كتاب القصة ، الذين يقاسمون بالعدد ، وائس بالكيف .

ولعل قد خبرت طبيعة انتاجهم ، من خلال قراءتى ، واستبصارى لهذا الانتاج ، طوال سنوات عديدة ، الأمر الذى يجعلنى ألقى هذا القول الذى يأخذ صفة التعميم ، وليس التخصص ، متجاوزا فى ذلك ، مجموعة الأمر الذى يجعلنى ألقى هذا القول الذى يأخذ صفة التعميم ، وليس التخصص . متجاوزا فى ذلك ، مجموعة (المصيدة) للكاتب زهير الشايب التى لا تخلو من قيم فنية ، سأعرض لها فى ثنايا هذه الدراسة . ويهمنى أن أذكر أن أغلب قصص هذه المجموعة ، انما تقوم على المفارقة الدرامية ، بمعنى أن ما كان متوقعا لم يتحقق . ولم يصبح واقعا ، وكان «الكاتب» يريد أن يقتنعنا هنا ، بأنه من حسن الحظ أن ننعم بهذا الجناح من الخيال الذى يجعلنا نظير الى آفاق بعيدة ، حيث يكون

فى مقدورنا أن نحلم ، ونتوهم أننا قد تغلبنا على كل صمود الواقع ، وما نصادفه فيه من عوائق واحباط ، فهذا الشاب ، والفتاة يتحدثان فى قصة (على هامش الطريق) عن مستقبلهما الباسم « هو يحدثها عن الدرجة التى سيحصل عليها بعد عام ، وعن المبلغ الذى سيحيثه من مشروع مضمون ، وهى تحدثه عن اقتناء شقة فى تلك العمارات الشاهقة فهذه عندها أمنية العمر . أما الزوجة التى تجلس على مقعد آخر مع زوجها ، فهى تذكره بالتعجيل لانهاء عملية بناء الفيلا قبل مجيء ابنها المهندس من ألمانيا ، بينما يقف ذلك الفلاح يحكى مع زميل له عن القطن الذى سيحيثه بعد شهرين . ان الد أعدائه تلك الدودة التى ينظر اليها على أنها قادرة على أكل بنى آدم . فى حين يجلس طالب الهندسة متحسرا على ضياع عام من عمره بسبب تخلفه فى « مادة المجتمع » . ان أبطال القصة ، يتشوفون جميعا للمستقبل ، فيركزون كل حواسهم على ما قد يكسبون من حصاد . لكن فجأة ، يتنبهون الى ذلك الحدث المفزع . الاتوبيس يحترق ، وتشتعل به النار . ومن ثم ، راح الجميع يصرخ مستغيثا بالنجدة . لقد صدمهم الواقع بذلك الخطر . وتأتى قصة : (وذات مساء) لتحكى عن لحظة استجمام يعيشها محمد كامل فى بيته . فهو ينعم باغفاءة هادئة وقت الظهيرة ، وينعم بمداعبة طفلة الصغيرة «هالة» ، وبصوت عبد الوهاب فى أغنية الكرنك . لقد أخذ يرشف من كوب الشاي وينظر الى زوجته (نعيمة) على أنها أجمل امرأة فى العالم ، وفكر فى «فسحة» على كورنيش النيل . وبينما هو فى «الحمام» سمع دقات على الباب ، وما أن اتجه ابنه « أيمن » ليفتحه حتى ذعر لرؤية ذلك العسكرى الذى يطلب والده فى القسم . ورغم أن العسكرى يطلب الأستاذ يحيى بدوى الذى ترك الشقة منذ سبعة أشهر ، الا أنه أصر على أن يأخذ رقم بطاقة محمد كامل ، ومحل عمله واسمه بالكامل ، وسرعان ما تنقلب الصورة المنسجمة الى صورة تنضج بالنشاز ، فرغاوى الصابون لا تزال فى عينيه ، ويشتد حنقه لأن زوجته قدمت له ملابس داخلية غير نظيفة ، ويبلغ غضبه حد الانفجار حين يصفع ابنه « أيمن » لأنه حطم عروسة شقيقته « هالة » ، فيسرع الى ارتداء ملابسه ، ويصفق الباب خلفه . وعلى هذا ، يرتكز الاحساس الدرامى فى هذه القصة ، على معنى العبت . فقد يكون الشخص فى حالة انسجام مع عالمه ، وفجأة يظهر ما يقلب حياته رأسا على عقب ، وكأن الشئ ونقيضه ، يترابطان ترابطا عضويا فالنهار يعقبه الليل ، والفرح حتم أن ينتهى بهم وغم . وكان العلاقات الانسانية تقوم على أساس تلك الحقيقة المأساوية ، فلا شئ عند « كاتبنا » يشبت على حال ، وانما هو قابل للتغير والتبدل دائما وأبدا . واضح أن هذا المفهوم الدرامى انما هو بمثابة المدد الذى ينسج

منه (الكاتب) خيوطه الفنية فى أغلب قصصه . كذلك يمكن أن تنسحب هذه النزعة العبثية على قصة (الطريق) ، فالبطل هنا يشتري هذا التليفزيون الذى يضطره الى ركوب التاكسى لأول مرة فى حياته ، متوجها الى بيته بالهرم . وما أن يقترب من (الحارة) التى يقطن بها حتى يتوقف السائق ، رافضا السير فى تلك الأزقة المليئة بالحفر ، والحجارة ، مما يضطر (محمد) الى حمل تليفزيونه بين يديه لتكملة المشوار . فهو الآن فى حال من الارتباك والخوف ، انه لابد أن يتفادى لعب الكرة فى الطريق . وبرك مياه المجارى ، وقشر الموز الذى يعرضه للزلل ، ويسخط ، ويلعن - طوال سيره المكثود - هؤلاء الجيران الذين يحقدون عليه ، لأنه استطاع أن يشتري تليفزيونا ، ويتداعى مع مونولوجه الباطنى من هنا ، وهناك ، وما أن يصل الى عتبة بيته ويصعد السلم متوجا بفرح أولاده وزوجته ، حتى يرتطم بالدرج فيسقط التليفزيون من بين يديه ، مهشما . . فما أشبه سقوطه بسقطة البطل التراجيدى . فبسرعة البرق يتحول الموقف الذى يجيش بالفرح وبالبهجة ، الى حزن ومناحة ، وألم . وينتقل (زهير الشايب) نقلة أخرى ليسجل فى قصة : (انتظار) معنى الزمن السيكلوجى ، فقد انتصف الليل والناس وقوف فى محطة (الأتوبيس) ينتظرونه على أحر من الجمر . وتعلو صيحات الاحتجاج والتبرم لطول الانتظار لم يجدوا الا « ناظر المحطة » الذى تحمل سخطهم فى صبر وجلد ، وأعدا اياهم بهذا الأتوبيس المنتظر . . هذه امرأة حامل تثن من شدة الألم ، وهؤلاء الأطفال يجهشون بالبكاء الزمهرير الشتاء . . وهذا عجوز يتحامل على نفسه ، ويوصى بالصبر ، وأن فرج الله قريب . . وبدأت الحركة تخفت فى الميدان شيئا فشيئا ، لكن الناس ظلوا فى أماكنهم ممتشبين بالأمل . . ان الزمن يمر بطيئا ، وثيدا ، متراخيا . . انه زمن الانتظار الذى تطول فيه الدقيقة وتمتد حتى تصبح فى الشعور ، وكأنها دهر . . انه زمن التوجس ، والقلق ، والتشبث بالسراب . انه انتظار أشبه بانتظار جودو ، الصامويل بكيت . ويحاول (أدينا) أن يحشد معنى المعاناة فى قصة الثابت وراء المتغير فاتخذ من « الأتوبيس » رمزا يوعز بتلك الدلالة . . معاناة (المحصل) فى تحصيله أجرة التذكرة من كل راكب ، ومعاناة الركاب حين تعطل بهم الأتوبيس ، فاضطروا الى النزول ، « ليزقوه » ويدفعوه الى الامام حتى يتحرك من جديد . . معلنا السائق الذى هبط الى أسفل (العربى) منهمكا فى اصلاحها . . ان كل شخص فى هذا الموقف يعانى ويدفع ثمن وجوده بالمعاناة . . وكأنه مثل « سيزيف » فى الاسطورة اليونانية الذى عصى أمر الآلهة فحكمت عليه بالعذاب بأن يحمل الصخرة الى قمة الجبل ، وما أن يبلغها حتى تنحدر الى أسفل سيزيف فيعاود حملها من جديد ، وهكذا دواليك .

وتحكي قصة : (الأساس) عن الأرملة الفقيرة (نظيرة) التي تضطر الى بيع أرض زوجها المرحوم ، الى « الحاج حسين » الذي حرر عقد البيع فى منزل الشيخ سالم ، وهو رجل غير موثوق به . أن الحاج حسين يشك فى ذمة الشيخ سالم ، فقد حانت له الفرصة للتلاعب والخداع « خصوصا » وأن المشتري قد غفل عن تسجيل العقد فى الشهر العقارى أنه فى نظر القانون لا يملك بيته . . . لقد دفعته وسأوسه الى أن يوقف بناء الدور الثانى فقد كان ينوى إقامة شقة لابنه (شبل) الذى أوشك على الزواج . . أخوف ما يخاف أن يكون قد وقع فى مؤامرة دبرتها له (نظيرة) والشيخ سالم المخادع . . ماذا عساه أن يفعل الآن ؟ لن يطمئن الا اذا صحبها الى الموثق بشبين الكوم ، ويسألها الموثق : انت بعث بيتك للحاج حسين . . فيكون ردها بالايجاب . . ويسألها : باعوا معك أولادك ؟ فتجيب بنعم . . - أين هم ؟ . . انهم مشستون هنا ، وهنا . . ووقف الحاج حسين يتميز غيظا . . لقد خدعته هذه المرأة . . فاندفع نحوها يهددها بالذبح ، شاهرا سكينه فى وجهها . . مما جعلها تفرع ، وتهرع فى هلع وسط زحام العربات ، فتصدمها احدى العربات ، وتلفظ أنفاسها .

وكما ان الكاتب يعانى فى كتابه ، ليعبر عن تجاربه ، فكذلك نجد زهير الشايب يحثنا على أن نبذل جهدا فى قراءته من أجل استجلاء الحقيقة فنحن الآن نقف حائرين ازاء تلك الحالة . . ياترى (نظيرة) مذنبة أم بريئة ؟ قد نتأرجح هنا بين الصدق والكذب . . لكن أرى انه فى الامكان ازالة الشك فى سوء نيته . . فقد تكون نظيرة هنا بريئة من أى ذنب ، وضحية سذاجتها ، وجهلها بالامور التى ينبغى مراعاتها فى مثل هذه المشاكل . . بدليل انها أطاعت أمر الحاج حسين ، وذهبت معه تلقائيا ، الى الموثق ، لكن وسأوس (الحاج) وشكوكه وغياب أولادها من غير قصد ، وخوفه من الأعيب الشيخ سالم هى التى دفعته لترجيح سوء الظن بها .

وتأتى قصة (المصيدة) لينطبق عنوانها على المضمون تماما . . فالبطل اسمه (طلبة) وهو موظف بإدارة المحفوظات باحدى المصالح الحكومية . . يقع فجأة فى مأزق ، قد يعرضه للطرد ، أو السجن . . فقد ضاع منه ذلك المستند الخطير ، وقيمته ٢٥ ألف جنيه « انه يبحث عنه فى كل مكان » فى أدراج مكتبه ، وفى الدوسيهات ، ودوايب المحفوظات ، فلا يجد له أثرا « فص ملح وذاب » ويعتصر ذهنه محاولا أن يتذكر مرة واثنتين ، وثلاثا ، لكن دون جدوى . . انه الآن يدور حول نفسه ، حتى أصابه الدوار . وتتسلط عليه صورة المستند الضائع فى كل لحظة . . فى يقظته ومنامه . . فى مكتبه وفى الاتوبيس وفى بيته . . وأصبح ضياع

هذا المستند ضياعا لحياته ، ومستقبله ، لقد راح يفكر فى زوجته التى سنطلب الطلاق بمجرد دخوله السجن ، وأخذ يشغل نفسه بشكوك زملائه ، وما يقدفونه من ريبة ، واتهام فى ذمته وأخلاقه فربما أخذ رشوة مقابل تسليمه هذا المستند الى من يعنيه الأمر .. لقد أخذ الشك ينهش فيه نهشا وتسرب هذا الشك الى الادارة التى يعمل بها .. فربما أراد أحد زملائه أن يكيد له كيذا ، فاستغل غفلته وسرق هذا المستند ، وأخفاه عنه .. لكن الكل يستنكر هذا المسلك الشائن .. ولما أعيتته الحيلة ، لم يجد مفر من اذاعة هذا النبأ على المدير . وأمر المدير باجتماع زملائه فى مكنته ليواجههم وجها لوجه ، فأذكروا جميعا أن يرتكبوا فى حقه مثل هذا الفعل الشنيع .. وأخيرا يلتقى (صاحبنا) بذلك المحامى الذى ينتمى الى بلده ، اليغضى له بمشاكلته .. لكنه لم يلهمه الدواء الناجع لأزمته الطاحنة . وكلما مرت الأيام ، أحس باستحكام حلقات الاتهام حول عنقه ، ويزداد توتره ، ويستبد به اليأس .. انه الآن ينتظر مصيره المحتوم .. ويحس بالآلم والخسارة .. خسارة السنين الطويلة التى أضاعها فى الخدمة .. كل شئ قد ضاع منه فى لمح البصر .. سيخرج من الحكومة ملوثا موصوما ، ان لحظة انتظار العقاب ، أشد عذابا من العقاب ذاته .

وهكذا ، يسوق (أدينا) صورة أخرى من صور العيب ، والسخر بالانسان .. واذا كانت الحسنات تذهبن السيئات ، فان صفحة دوسيه هذا الموظف ، طوال خدمته ، نقية ، من سوء .. لكن منطق الحياة لا يقبل ذلك ، فيكفى أن يرتكب خطأ واحدا ، حتى يشطب اسمه من قائمة الشرفاء .

وكان (الكاتب) فى هذه القصة قد أراد أن يقول : (حذار ثم حذار ، أن تضع مفهوما لمعنى الحياة فالحياة عvisية على الفهم ، مستغلقة على الأذهان) .. ولعل ذلك أصدق تعبير عن مدرك العيب الذى يبعثه هذا الأديب ، فى ثنايا قصصية بشكل ملحوظ .

فى قصة (الدائرة) يصور زهير الشايب ، المناخ الداخلى لأتوبيس مزدحم بالركاب « وتبدو مهارة » الكاتب فى قدرته على تكثيف ما يجرى داخل الأتوبيس من جدل . وصخب ومشاحنات ، ومضايقات ، وأشياء مزعجة .. فهذا طالب جامعى يقصد لجنة الامتحان ويخشى التأخير ، لكن من حسن حظه أن الأتوبيس ينطلق دون توقف فى احدى محطاته ، وهذا شخص يدخن سيجارة فيخنق الركاب برائحة الدخان ، وذلك الرجل المزكوم ، يبتعد عنه الناس ، خوفا من العدوى ، فيصبح أحدهم بفتح النوافذ حتى لا يخنق ، ويتحاشى الركاب هذه المرأة النى جاءت بسببتها وطبيخها حنى لا تمزق ثيابهم أو تجعلها تتسخ .. وهناك بين الركاب ،

ذلك اللص المشغول يخطف حافظة ذلك الموظف الذى تحوى راتبه ، والذى يلاحظه ذلك الشاب الذى يرضخ لنصيحة زميله ، فلم ينبس بكلمة ، أما السائق ، فهو لا يزال ينطلق فى طريقه دون توقف ، وأخيرا يسقط ذلك الشخص الذى تعلق بمؤخرة العربة ٠٠ ويتحول (الأتوبيس) الى القسم لاجراء التحقيق ، ويسمع السائق صوت المحقق وقد أخذ يعنفه لاهماله فى الحفظ على الأرواح ٠٠ ثم يصيح الموظف مستغيثا ، فقد سرقت محفظته لكنه يعثر عليها ملقاة على الأرض ، فقد خاف اللص أن يفتضح أمره .

واضح أن « حاسة الفنان » تجرى هنا بسرعة لتلقف تلك الجزئيات المادية التى توحى بالمغزى المقصود ، ثم تعمل على صبها داخل ذلك المفهوم الكلى الذى تدور حوله قصة (الدائرة) الا وهو : لحظات الانهاك الشديد التى نتعرض لها ، الكى نصل الى الهدف المقصود .

واضح ان قصة (الدائرة) انما هى تكثيف لطبيعة مسار الانسان فى الحياة ٠٠ فهذه الدوامة التى تتجسد فى (الاتوبيس) ، والتى تحمل فى جوفها كل صنوف الضيق ، والضجر ، والعنف ، انما هى قدر محتم على كل انسان يسعى الى مقصده ٠٠

ولعل (أدينا) قد اختار لقصته اسم الدائرة ، ليرمز بذلك الى ما تصادفه من معاناة فى تلك الدوامة التى تدور فيها ، صباح غداة ، ومساء كل يوم ، وكأنها لا بداية بها - ولا نهاية ، أو قل هى لا تنتهى الا بالموت .

وبعد ، فلا يفوتنا أن نشير الى أن هذه المجموعة من القصص ، تمتاز بقدرة مؤلفها على التعبير عن أحاسيسه وخبراته وتجاربته ٠٠ فقد رأينا كيف يستقطر (الحقيقة) قطرة ، قطرة ، حتى اذا تكامل البناء ، أمكننا أن نستنبط فى النهاية (الدلالة الكلية) التى تدور حولها القصة .

وقد أمكن أن نلاحظ تلك المفاهيم الدرامية التى تجرى فى عالمه الفنى ٠٠ من هذه المفاهيم : العبث والزمن السيكلوجى ، والمعاناة الشديدة ، والمفارقات ، وعدم معقولية الحياة .

ومع هذا ، فينبغى أن نذكر ، بعض الهنات التى جاءت فى ثنايا هذه القصص ٠٠ فواضح أن الكاتب لا يخلو أسلوبه من نزعات التقرير ، والاخبار ، والسرد ٠٠ وكنت أتمنى أن يلتزم الكاتب فى تعبيره بالأسلوب الفنى الصحيح ، الذى يقوم على التلميح دون التصريح ، مستخدما فى ذلك الايماء والرمز ، والاشارة ، دون أن يخبرنا بطريقة مباشرة ، عن المغزى المقصود . ومن المآخذ التى أخذها على هذه القصص ، الميل الى

حشد الجزئيات المادية بطريقة تبعث على الملل ، وكان الكاتب هنا ، ينقل
الينا عن الواقع نقلا حرفيا ٠٠ وبدافع من رغبته القوية فى الاستطراء
نراه يشجن قصصه بالتفاصيل ، والتخريجات التى هى أشبه بالعبء
الثقيل الذى لا يفيد فى شيء ، اللهم الا الرغبة فى الاسهاب ، والاطالة
مثل قصة الطريق ، والدائرة ، والمصيدة ، ولأن الكاتب قد اختار
(الأتوبيس) كوحدة مكان يضم شخوص أغلب قصصه ٠٠ فقد جاءت
بعض هذه القصص ، شبه متجانسة فى شكلها ٠ ومضمونها ، مثال ذلك
قصص (على هامش الطريق ، والدائرة ، والثابت وراء المتغير) فلا
أغالى ان قلت أن الشكل والمضمون فى هذه القصص يكادان يتشابهان ٠

الأسوار العالية بين المقاومة والاستسلام

بقلم : عباس الأسواني

من يخسر نفسه فقد يخسر الدنيا بأسرها .. وماذا يجدى لو حظى الانسان بكنوز الدنيا ، فى مقابل أن يبيع نفسه للشيطان .. كانت غايته نبيلة فهو يسعى جاهدا لكي يصبح مؤلفا مسرحيا ذائع الصيت لكن كان يتوسل لبلوغ ذلك ، بوسيلة غير شريفة .. فهل الغاية تبرر الوسيلة ! وهل كل مسعاه فى هذا الصدد بالفوز والنجاح ؟ لقد انتهى الى نهاية مؤسفة ، وكأنه مثل « شمشون » الذى هدم على نفسه البناء قائلا : (على وعلى أعدائى) .. أجل ! لقد كان يدمر نفسه بنفسه ، ودفعه هذا ، الى تدمير كل شئ .. فلم يجد خلاصه الا فى الثأر .. الثأر لنفسه ، المعذبة ، والثأر ممن كان يلعب دور البطولة فى محنته وأزمته .

ان « سامى » وهو بطل رواية : « الأسوار العالية » للأسستاذ عباس الأسواني ، انما هو بطل تراجيدى من الطراز الأول .. كان يناضل من أجل تأكيد وجوده ، كمؤلف مسرحى .. ففى سبيل هذه الغاية ، كانت تهون عنده كل قيمه من قيم الحياة .. صحيح أنه كان يقاوم الاعوجاج والانحراف .. لكن كانت مقاومته ضعيفة أمام صدود الواقع ، وأسواره العالية ، فسرعان ما أنهارت ارادته ، وتداعت عزيمته أمام مغريات الخطيئة ، فاستسلم لها صاغرا ذليلا .. ومن ثم ، سعى الى مصيره المحتوم بطلقه ، فقد انتهى الى عصاف مأكول ، وهشيم تذروه الرياح .

تبدأ رواية « الأسوار العالية » من حيث تنتهى ، تبدأ بالنتيجة الحتمية التى استتقرها (المؤلف) من ثنايا مقدماته المنطقية .. أن هذه النتيجة تحوى « المعنى الكلى » الذى يرمى اليه « الكاتب » الا وهو الدمار

(للغالب والمغلوب) ، فقد انتهت المأساة بطاعن وطعين ٠٠ قاتل ومقتول ، فدان « سامى » هو القاتل الذى قتل « زهران » فى عقر داره ٠٠ وهو الآن رهن التحقيق ، ينتظر العقاب والقصاص .

وتندفع فى ذهنه صور الماضى وكأنها شريط لا يكاد يلاحقه ٠٠ انه ينتمى الى أسرة فقيرة ٠٠ والد يشغل وظيفة متواضعة فى وزارة المعارف ، وأم متهالكة ، متدينة لا يفوتها فرض من الصلاة ٠٠ ويحصل الابن على شهادة الثانوية العامة ، فيلتحق بكلية الحقوق ٠٠ وما أن يقضى عامين بالجامعة حتى يرغب على قطع هذه الدراسة لوفاة والده فجأة ويضطر أن يعمل موظفا بقسم الفهارس بدار الكتب ، حيث تمكن من قراءة آثار الأدب العربى والأوربى لكن سرعان ما يتسرب اليه الملل والضجر ٠٠ ترى هل سيبطل رهين هذا المكان طول حياته ٠٠ هاله أن يرى زميله عبد المجيد رضوان يقبع خلف مكتبه ثلاثين عاما ٠٠ وزادت كآبته حين فجع فى وفاة أمه ، فكان يواجه الحياة وحيدا لم يجد وسيلة يحطم بها رتابة الحياة وسأمها فى مشاهدة المسرح الذى أحبه حبا ملك عليه حواسه ومشاعره ٠ كل مبهور بالموسيقى ، والستائر ، والأنوار ، والممثلين ، وانكفا على فهرس المسرحيات العالمية وأخذ يلتهم حوارها ، متخيلا الممثلين وكيف يتحركون على الخشبة ٠٠ وذات يوم تعرف على زميله الجديد « زهران محمود » وأحس أنه يناقضه تماما فى طباعه ، فهو جرىء ، يثق بنفسه ، يتحدث لبق ، يعلو صوته حين يجادل أحدا ٠٠ انجذب الى هذا الزميل الفريد فى نوعه ٠٠ ومن خلال الاحاديث الشائقة عن المسرح ، يكتشف « سامى » أن زهران له خبرة واسعة بهذا الفن .

فقد قال له : (أن المسرح هو حياتى ، وسوف أعود اليه ولكن دون أن أعمل لحساب أحد) ٠ لقد دفعه الفضول الى أن يعرف مزيدا من الحقائق عن شخصية زهران ، فأخبر عبد المجيد رضوان بأن والده من أغنياء الصعيد وقد غضب من ابنه لاتصاله بجمعية سرية تدعى : « الخبز أولا » وهى تنادى بتجريد أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء ٠ اعتاد زهران أن يصحب زميله « سامى » فى سهراته مع أصدقائه الفنانين بمقهى « لازاريس » وقد شجعه ذلك ، على الكتابة ، فأنجز مسرحيته الأولى التى قدمها لزهران ، فطار بها فرحا وعمل على تنفيذها فى المسرح ، فقد كان يجيد التمثيل والاخراج ٠٠ وكان من أثر نجاح المسرحية أن توطدت العلاقة بينهما وزادت رسوخا ٠٠ لكن فجأة يتغيب زهران عن عمله بدار الكتب وعن المقهى ، الأمر الذى دفع صديقه لزيارته فى بيته ٠ وفوجئ بأنه قد تزوج من فتاة كانت تبحث عن معين

لها فى الفن ٠٠ فهى تتمنى أن تصبح ممثلة مشهورة ٠٠ لم يدم زواجه من (سهام) أكثر من ستة أشهر ٠٠ ويجيئه نبأ وفاة والده الغنى الذى كان يحرمه من مساعدته فيرثه ، ويصبح بين يوم وليلة من أثرياء البلد . ويخبر زهران أن صديقه « سامى » بأن عليه أن ينتهى من تأليف مسرحيته الجديدة حتى اذا عاد من أوروبا ، أقبل على تنفيذها فوراً ٠٠ وتتهلل أسارير (سامى) وتزول عنه حساسيته نحو زهران ٠٠ فقد كان يخشى أن تنغير معاملته مع تغير ظروفه ٠٠ لقد استوثق الآن من أنه فنان أصيل بحق وحقيق ٠٠ كان أفراد فرقته القدامى ينتظرون عودته بفارغ الصبر ، فقد اذاع عليهم (سامى) رغبة زهران فى تكوين فرقة وشراء مسرح ٠٠ وأخذ يقرأ عليهم مسرحيته الجديدة : « اللؤلؤة » فأعجبوا بها وراحوا يفرقون أدوارها على كل منهم فى حماس شديد . وهى تدور حول فتاة تزوجت من شاب فقير ، وقد تعطل عن العمل ، مما جعلها تعمل - دون أن يدري - لدى إحدى العائلات ، لتنفق عليه ، وحين ساورته الظنون قرر أن يطلقها ، لكنه اكتشف فى النهاية نبلها ٠٠ علم « سامى » بعودة صديقه من أوروبا عن طريق الصحف ، فاتجه الى بيته لتهنئته بسلامة العودة ٠٠ وسرعان ما أحس بفتور لقائه ٠٠ لقد أدرك أن زهران قد تغير واقام سورا بينه وبين اصدقائه ، فهو يزهّد فى مقابلتهم أو التعامل معهم وكأنهم كانوا يمثلون مرحلة قد انقضت من حياته يقول : (كنا نحتاجهم فى الماضى ٠٠ الآن نغير الوضع ٠٠ أريد أبطالاً حقيقيين) .

تلقى (سامى) تلك الصدمة فى صمت وهدوء ٠٠ فقد ارتطم بصلافة السور الذى أقامه « زهران » ليفصل بينه وبين أصدقائه وكل من يعتقد عليه أملاً ٠٠ الأمر الذى جعل صديقه يحبط وينسحب الى الخارج مولياً وجهه الى « الحان » ليعب من كثوس الحمر ما يجعله يغيب عن وعيه وواقعه المجدب الكريه ٠٠ راح يدمر نفسه بالسهر وارتياح المقاهى والحانات ، فأدمن الخمر وأدمن التدخين ٠٠ كان يرفض كل شىء حتى مقهى « لازاريس » رأيناه يعرض عنه حتى لا يثر فى نفسه ذكريات الليالى التى قضاها مع زهران فقد انتقل الى حانة « ركس » وأخذ يتردد عليها كلما داهمته أزمة من الازمات ٠٠ اصفر وجهه وصار كعود هشى يكاد ينقصف ٠٠ لقد انقلبت حساباته رأساً على عقب ٠٠ ووجد نفسه فجأة أمام زميله عبد المجيد رضوان يقترح عليه بأن يتزوج ، فذلك علاج لكل مشاكله ٠٠ فيلتفت اليه سائلاً اياه عما اذا كانت لديه عروسة مناسبة ٠٠ فيختار له ابنة ابراهيم عارف ويطلعه على صورتها ٠٠ انها فتاة جميلة فى الثانية عشرة من عمرها ، انقطعت عن تكمله تعليمها بسبب الحمى التى أصابتها فى الصغر . ويرتاع « سامى » حين يسترجع الظروف التى يعيش فيها ، فهو شخص مفلس ، لا يملك شروى نقير ،

ويظن عبد المجيد الى ما يدور فى خلده ، فيطمئنه بأنه لن يدفع ثمن شبكة او مهر . وفى اليوم التالى يوافق على هذا الزواج اليسير الذى لن يكلف شيئا . . . لقد باع أثاثه القديم وانتقل الى الشقة الجديدة مع « الهام » وما أن يأتى الصباح ، حتى ينهمك فى تصفيف كتبه وكتب « الهام » ، وفجأة يعثر فى ثنايا كتاب من كتبها على صورة زهران . . . كانت مبثوثة فى رواية مدام بوفارى . . . لقد أزعجته الصورة ، فسألها عنها ، فأجابته على الفور ، بأنها صورة ممثل مشهور ، كان زوجها لاحسان التى تعمل بالحياسة فى منزلهم . . . فقد كان زوجها وهى تفخر بذلك ، وتوزع صورهم على زبائنهم ، لأنها لا تزال تحبه . . .

كان (صاحبنا) ينظر الى الزواج على أنه نوع من الاستقرار الذى يهيم له جوا هادئا يساعده على كثرة إنتاجه حتى يلحق بالمجد الذى حققه « زهران » . وتقوده قدماء الى حانة ركس ، فيلتقى بأحد أصدقاء زهران وهو حامد رشدى الذى كان رئيسا للجمعية السرية : « الخبز أولا » وتنكر له زهران وتجاهله فيما بعد ، فيحكى (سامى) له قصة زواجه السريع ، فيشير فى نفسه الشكوك ، ويحثه على استجلاء الدافع من عجلة أهلها فى الزواج منه ، لم تمض ستة شهور من زواجه ، حتى أنجز مسرحية جديدة ، تحكى عن عائلة يسيطر عليها أب جبار ، يرى أن القسوة هى الحزم ، وأن البطش هو العدل ، وقد انتهت بانهيال الأب ، حين تبين له أن سلوكه قد أدى الى تفكك العائلة ، والى سقوط الزوجة وهجرة الابن . . . أخذ مسرحيته الى الأستاذ « ح » الذى كان يملك مسرح النهضة المتواضع . . . وافق على عرض مسرحيته التى لاقت رواجاً هائلاً . . . أيقظته « الهام » فى يوم لتخبره بوفاة أبيها المفاجئ . . . تأثر لوفاة ابراهيم عارف ، وقد أذهله نبأ تعيين خصم المرحوم أحمد مخلوف مراقباً للدار ، وكان ذهوله أشد حين زارته حماته « نعمات ، هانم » وصديق العائلة عبد السلام بك ، ليعلنا عن زواجهما بعد شهور قليلة من موت والد « الهام » . . . وفى تلك الفترة ، كانت « الهام » تعاني من الحمل وتنتهى العملية الولادة ، وما هى الا أيام حتى وضعت وليدها الذى أطلق عليه والده اسم سمير . . . سقط الأستاذ (ح) مريضاً فقد أصيب بنوبة اغماء مفاجئة وهو يغادر مسرحه وأراد (سامى) أن يزوره ويطمئن عليه لكنه فوجئ فى الصباح بنبأ وفاته فى الصحف . . . وقع خبر وفاته عليه كالصاعقة . . . أحس بأن سلاحه قد سقط أثناء المعركة ، وقد زادت كآبته حين علم أن « زهران » قد اشترى مسرحه وأبقاه مغلقاً الى أجل غير مسمى . . . لقد ضيقت عليه الحياة خناقها . . . فقد لاحظ الهام ترتدى ثوباً مهترئاً ، كما أن طعامهم اليومى يؤكد ما يحيط بهم من فاقة وعوز ، وأخذ يتأمل طفله وكيف يفعل لو احتاج الى دواء أو ملابس . . . وتذكر كيف استطاع أن يرد الصاع

لزهرا ن حين نشر مقالا فى مجلة (النجمة) بدون توقيعه ، يهاجمه فيه ويسفه شخصه فى دور « مجنون ليلي » . وكيف قابل الأستاذ (ح) تصرفه باستحسان و إعجاب ، فقد كان زهران يناصره العداء . تركت نعمات هانم بيتها غاضبة ، وذهبت الى بيت ابنتها ، فقد طردها عبد السلام زوجها ، بعد أن نشبت مشادة بينهما . . قررت « الهام » أن تبني أمها عندها ، على أن يأتي عبد السلام اليها فى الغد ليصالحها . دق التلفون فى مكتب المراقب وكانت المكالمة موجهة الى « سامى » وكان « زهران » هو الذى تحدث اليه ، فقد طلب منه أن يقابله فى نفس اليوم الساعة الخامسة فى مكتبه بالمسرح ، وحين التقيا راح يعاتبه عن مقاطعته له كل هذه السنين ، وأبان له أن هذه القطيعة كانت بسبب تنكره له ورفضه مسرحيته (اللؤلؤة) . وضحك زهران واعتذر له ، واعترف بأنه كاتب موهوب ، وعرض عليه أن يعمل معه ، وقد طمأنه بأنه يستطيع أن يقول ما يريد دون تدخل منه . وبالفعل ، قدم له رواية (رأس بلا عقل) ، وأحاطها بدعاية بالغة ، وأصبح « سامى » النكرة فى يوم وليلة ، كاتبا مشهورا . . دعا « الهام » ونعمات هانم وعبد السلام لمشاهدة هذه المسرحية . وأبدت نعمات هانم رغبتها فى مصافحة زهران وتهنئته ، فصحبهم (سامى) اليه ، فرحب بهم ، وصاح مداعبا « الهام » : (آه ! هذه ملهمتك اذن ! . . وجه اليهم الدعوة للعشاء فى نادى السيارات . . فى هذه الليلة داخله شعور بالسعادة فقد تقاضى مائتى جنيهه ثمنا لتأليف مسرحيته . . كان زهران قد استحوذ عليه تماما ؟ فقد وافقه على أن يستقيل من وظيفته فى دار الكتب ، وقد اتفق معه على أن يدفع له شهريا خمسين جنيها كل شهر فى مقابل أن يقدم له مسرحية واحدة فى العام . وقد أهداه سيارة جديدة . . لكنه حين قرأ اعلانات الصحف عن مسرحيته ، سرعان ما أحس بصدمة عنيفة وجهها اليه زهران . فقد سرق جهده ، وسجل اسمه كمؤلف للمسرحية بدلا من « سامى » المؤلف الحقيقى . لم يسعه الا أن يجرجر أقدامه الثقيلة متوجها الى (حانة ركس) ، حيث أراد أن يدفن حزنه وألمه فى كئوس الخمر التى كان يجرعها فى نهم لتطفيء صدره المقروح ، هكذا يفعل كلما أصابته مصيبة ، فلا يجد سلوانه الا فى السكر والشكوى لصديقه ونديمه حامد رشدى . . فكر فى أن يقاضيه ، لكن صديقه أقنعه بالاحجام عن ذلك . . أراد أن يرفض العمل مع زهران ، لكن حامد رشدى نصحه بأن مثل هذا الصرف يجعله لا يفقد مرتبه وسيارته فحسب ، بل سوف يتعقبه زهران ليضمن عدم وصوله الى أى عمل ، فهكذا فعل مع آخرين كثيرين . . وأخيرا قرر أن يذهب الى بيته ليطالبه ببقية أجره عن المسرحية .

لمح سيارته التى كانت تقودها زوجته ، تقف الى جوار رصيف

الشارع الخلفى للعمارة... ورأى «الهام» تمرق فى عجلة من باب العمارة ، وتستدير فى الشارع ناحية سيارتها ، وقد دلفت اليها فى سرعة دون أن تلمحه .. وهبت فى وجهه كل الشكوك ، وتذكر كيف كانت الهام تحتفظ فى كتاب لها بصورة زهران .. أهنالك علاقة سابقة .. أسرع يتعقبها . وما أن وصل الى بيته ودق الجرس حتى فتحت له فقادها الى حجرة بعيدة عن ابنها والخادمة ، ثم سألها : من أين جئت الآن ؟ .. ولم تتردد فى أن تبوح له بالحقيقة ، فقد اعترفت بأنها كانت عند زهران . ثم أردفت قائلة : (ها أنا قد أخبرتك ، ولن أعيش معك بعد اليوم .. أريدك أن تطلقنى فى الحال .. قال فى هدوء : ليس من الملائم أن نتحدث فى هذا الموضوع هنا ، لننزل معا الى أى مكان . وافقته على رأيه ، وأسلمت له مفاتيح السيارة وجلست الى جانبه كالمعتاد .. ظلا فى حال من الصمت والوجوم وكان سورا شاهقا يحول بينهما . حتى اذا وقفت السيارة الى كازينو صغير راح يسألها : كيف تذهبين وحدك الى شقة رجل أعزب ، وأنت زوجة وأم ؟!! .. فكان ردها بأنها ذهبت اليه فعلا ، لكنها لم تجده هناك .. وأخذت تعترف له بأنها أحبت زهران .. أحبه قبل أن نتزوج يا سامى .. كانت قبل الزواج محموعة بقراءة الروايات الغرامية وقد تحولت بسبب ذلك الى انسانية خيالية ، يختلط لديها الواقع بالخيال ، وكان من الصعب عليها أن تصدق أن حياتها التى تحياها ، هى حياتها الحقيقية .. أحضرت « احسان » زوجة زهران الأولى الى منزلهم ثيابا لأمها وروت لها تفاصيل حياتهما الزوجية يوم بيوم . ومع خيالها الحاد تتبنت هذه التفاصيل فى ذهنها . فقد أحست كأنها هى التى عاشت مع زهران وكانت زوجة له .. لقد روت لها احسان أدق مسائل العلاقات الزوجية بينهما وقد عاشتها معها بخيالها المريض وأعصابها الرهيفة ومن ثم أحست أنها تحبه ، وعندما أهدتها صورة زهران ، كانت تتأملها فى نشوة بالغة ، وتناديها متحدثة ، وعندما علمت من « احسان » أنه كان زميلا لزهران بدار الكتب ، وأنه من جديد قريبا منها ، وحين وجد سامى صورته بين يديها فى صبحية الزفاف . كادت تنهار ، وتعترف بالحقيقة كلها .. فى كل مرة تلتقى به ، كانت تشعر أن قدرها مرتبط بزهران .. كانت تثق أنه يحبها كما أحبتة ، وأنه سيتزوجها بمجرد طلاقها من (سامى) .. لم يسعه الا أن يطلقها مشروطا أن تسأل زهران أولا ، اذا كان ينوى الزواج منها ثم تعود اليه لتخبره باجابته .. قالت انها وافقه من ذلك .. فكر سامى فى الانتقام منهما .. أراد أن يشوه بها وجه زهران .. وبينما هو غارق فى أفكاره ، اذا بغلاق يدق جرس الباب . ففتح له ، فيسلمه رسالة من الهام تخبره فيها عن خداع زهران لها وهى لذلك قررت أن تنتحر .

بحث عنها فى كل مكان .. ولم يعثر عليها الا وهى واقعة على
رصيف كوبرى عباس وقد أوشكت على القاء نفسها ، فصرخ باسمها صرخة
عالية ، لكنها لم تلتفت اليه ، فقد قفزت على السور وألقت بنفسها فى
النيل .

أصر أن يقابل زهران .. وجده وحده فى شقته ، فسأله عن بقية ثمن
مسرحيته ، ففتح خزانة صغيرة وأخرج رزمة من الأوراق المالية ، أعطاه
له .. وحين سألها عما اذا كان قد طلق « الهام » أدرك أنه لا يزال يجهل
مصيرها .. فأخبره عن انتحارها ، فلم يتأثر ولم يحرك ساكنا .. وفى
لمحة أمسك بالمطوّه ودفنها فى صدره ثم انهال عليه بالطعنات حتى وجده
يتهاوى أمامه على سجادة الأنثريه . أسستطاع أن يفلت من الناس وأن
يستأجر « سيارة تاكسى » نقلته الى أحد الملاحى بالهرم .. وهناك تعرف
على إحدى الراقصات التى صحبتته الى شقتها بالدقى .. وهناك كان فى
خال من التوتر والقلق والخوف ، فرغم كثرة مداعباتها له الا أنه كان
عزوا عنها .. لقد راح يغط فى نوم عميق ، ولم يستيقظ الا فى ظهيرة
اليوم التالى حين أحس بقلقها من وجوده ، نفحها عشرة جنيهاً .. ثم
أعطاه ثلاثه جنيهاً لكى تشتري له زجاجة كبيرة يروى بها ظمأه ..
وأدارت المفتاح وانفرج الباب ليشاهد فى صحبتها ضابط البوليس الذى
ذهب معه عن طواعية .

دلالات الأسوار :

كان سور السجن يمثل له نهاية الأسوار التى عاناها فى حياته .
فقد لاح له السجن بأسواره الحديدية العالية فى صورة حصاره
المأساوى الذى انتهى اليه .. انه الآن لا يستطيع أن يفيل الحديد ، أو
يقاومه .. فكل شئ حوله قد صنع من الحديد : السلالم ، الممرات ،
السقوف ، الأبواب ، كلها من الحديد .. وحين وضع القيد فى يديه
تمهيدا لنقله الى النياحة التى يرفض الاعتراف أمامها ، أحس بالمهانة ،
والضعة .. وحين مر به التاكسى هو والضابط ، بجوار دار الكتب ،
تذكر بداية حياته ، والأشخاص الذين دفعوه الى مأساته : زهران ،
رضوان عبد المجيد ، عارف بك ومع هذا ، فقد تمنى أن يبدأ من جديد ..
من الصفر ، وأن يدفع عمره بأكمله ثمنا لذلك ، تماما مثل زميله رضوان
الذى ظل راضيا ، قابعا خلف مكتبه ثلاثين عاما .

ان (زهران) قد تحول عنه ننكر له ولكل من يعرفهم من قبل .
لقد تغير بمجرد أن تغيرت ظروفه ، الأمر الذى دفعه الى تسفيه مسرحيته :

« اللؤلؤة » ، التى كان يتوقع ترحيبه وفرحه بها ٠٠ لكنه انهال عليها نقدا وتجريحا ٠٠ كانت بطله هذا العمل الفنى ، امرأة بذلت وضحت من أجل زوجها الفقير العاطل ، لكن فى ضوء تفكيره السليم رأى أن الفقر انما هو أوهى الأسوار التى لا تصمد أمام أدنى الهزات ومن ثم ، فالمرأة لا تحب الضعف . بدليل ان زوجته « احسان » « ما زالت تحبه رغم طلاقها منه ، وها هى الهام تقع فى حبه وتضحى بنفسها لفراقه ، كان يتأبى عليهم ، فهو ينظر الى المرأة بمنظاره الخاص ٠٠ انه لا يخلص الا لذاته التى تضخمت وصارت دميمة شائنة ٠٠ انه لا يطيق أن نحتكر حياته امرأة ، بقاء امرأة معه باستمرار ، قد يصيبه بالجنون ، حتى لو كانت هذه المرأة « كليوباترا » ٠٠ ان التركيز الشديد على ذاته ، أصاب بصره وبصيرته بالطمس والعمى ، فلم يلتزم ازاء الآخرين الا بخيانتته لهم والغدر بهم واقامة الأسوار التى تحجبه عنهم ٠٠ وفى هذا الصدد يتذكر « سامى » ذلك المغنى المشهور الذى ضاق بزحام الناس حوله ، فكان يحجب نفسه بشتى الوسائل . حتى انه كان يركب سيارته ويسدل ستائرهما ، لكى لا يراه الناس .

نسبية الحقائق :

لعلنا قد لاحظنا كيف أن البطل قد تقلب فى حياته فى أحوال شتى ٠٠ فاذا سألنا : كيف صعد (سامى) سلم المجد وتألق اسمه فى سماء الشهرة ككاتب مسرحى مشهور وكيف انه كان محبطا بائسا مجهولا من قبل ؟ ان الاجابة تتمثل فى موقف زهران وطبيعة هذا الموقف من صديقه ٠٠ فقد جعله مثل « قطعة الشطرنج » التى يحركها كيفما يشاء ٠٠ أنزله مرة ، الى أسفل الدرك ، ساجدا منه اعترافه بموهبته فى التأليف ، ومن ثم ، انزوى وذبل وكاد أن يتلاشى ٠٠ فى مرة أخرى ، رأيناه يصعده ويرفعه الى أعلى عليين ٠٠ لعل هذا التحول والتبدل يعطينا معنى النسبية فى الحقائق . فالانسان وحده مقياس كل شىء مقياس تلك الحقائق ٠٠ ما أراه خيرا فهو خير ٠٠ وما أجده - فى نظرى - شرا ، فهو الشر بعينه ٠٠ ولعل دلالة (الخير والشر) فى الأسوار العالية نفصح عن مفهوم المنفعة الخاصة فان ارتفاع (سامى) وهبوطه كان رهنا بنوعية علاقته بزهران ومن هنا ، كانت الحقائق نسبية .

النقد والتقييم :

من الضروري أن نطرح هذا السؤال بادىء ذى بدء : ترى لو أن زهران لم يمت والده ، أكان سيظل ولما ، حميما لصديقه سامى وزملائه

الآخرين ؟ وبالتالي ، هل كان فى مقدور (عباس الاسوانى) أن يقدم نفس الرواية التى تسع ١٨٢ صفحة ٠٠ أقول هذا ، لأن بناء هذه الرواية قد أقيم على أساس بنية هشة اسمها : « الصدفة » ٠٠ فالصدفة وحدها هى التى جعلت الأب يموت قبل ابنه فيرث كل هذا الثراء ٠ لهذا لعبت الصدفة دورا محوريا فى تشكيل القوة الدرامية التى دفعت عناصر العمل الفنى الى الحركة والنمو والتكامل ٠٠ فلو حذفنا عنصر الصدفة (وهو وفاة الأب) من تركيب الرواية لتداعى بناؤها على الفور ٠ كذلك ، آخذ على هذه الرواية ، دفعة (سامى) الهستيرية وتعجله للقاء زهران ، رغم أنه يفيض منه - أسى وألما وهلعا ٠٠ ألم يكن أولى به أن يتحاشاه ، تماما مثل زميله المنزل الفقير الذى يدعى (العسال) الذى رفض أن يعمل معه حتى لو دفع له مليون جنيه ٠ أما كان أولى به أن يعامله بحذر ، بعد أن انكوى بناره ، فلا يتهافت عليه ، ولا يتبذل عليه حين يقرب منه زوجته وحماته وحماه ٠٠ بل يتقبل شاكرا دعوة عشائه وعزومته لهم وأيضا هداياه بل حتى لا يعصى أمره له ، بالاستقالة من وظيفته الحكومية ٠٠ فقليل دائم خير من كثير منقطع ؟

مهما يكن من أمر ، فموضوع الرواية يعتبر فريدا من نوعه فى تاريخ الرواية المصرية ، ولعل ذلك ، ما يجعلها تنتزع كل تقدير و إعجاب ٠

المثلث الفيروزي لعز الدين نجيب فوستوك يصل الى القمر لمجيد طوبيا

من البداية اننا لا نعرف الأشياء الا اذا استحالنا في اذهاننا الى
مدرجات حسية يمكن تمسها وهي تتداعى في شريط من الرموز والصور
والأشكال ، ونحن حين نستجيب الى هذا التداعى ، انما نستجيب لتيار
الشعور الذى ينبثنا بما يجرى حولنا من أحداث ، وتغيرات ومثيرات ،
وقد تتخذ استجابتنا في التعبير عن شعورنا أشكالا مختلفة فقد نتوسل
بالتعبير الخبرى الذى يصلنا بالواقع وصلا مباشرا ، وقد نستعين فى ذلك
بالتعبير الجمالى الذى يصوغ الواقع صياغة جديدة ، حيث نجد الكلمة هنا
وكأنها قطرة الضوء التى يستقطرها الفنان من وهج الشمس ، او بقعة
اللون التى توحى بالنغم والانسجام أو اللبنة التى تمثل جزءا من بقية
الأجزاء حتى يتألف الشكل . . وهذا بحق يمثل فى الكتاب « المثلث
الفيروزي » للكاتب الفنان « عز الدين نجيب » فهو يضم مجموعة من
القصص القصيرة لا تعدو أن تكون تكوينات لونية درامية . .

فالكلمات هنا هى اللون الذى يتألف منها تشكيل الواحدة وهى
توحى بالتلوين والتنويع وهى الأحاسيس النابضة بالحركة والحياة . .
فلا غرابة اذا رأينا القصة عنده لا تخرج عن كونها « لوحة تشكيلية »
يحاول الكاتب أن ينطق عناصرها الصامتة النابضة عن طريق « بيان »
الكلمات . . من ثم نجده يجرد هذه العناصر من عالمها المكانى الذى لا يخطئ
الحدود الضيقة للوحة اليلقى بها الى خضم عالمها الفسيح حيث نجد
تنجرف الى التلاحم والتشابك والتصارع ، وهكذا أمكن الكاتب ان يترك
شكلا قصصيا جديدا يقوم على أساس خلق تكوينات علامية درامية تربط
بين التشكيل اللونى الاستاتيكي من جهة والتشكيل الأدبى الديناميكي
من جهة أخرى ، وبالتالي أمكن أن يستخرج شخصية من جيوف ذلك

اللوحة التي يعمد أن يقدمها بادیء ذی بدء فی قصصه جميعا ٠٠ فنجدہ فی « المثلث الفيروزی » يستهل القصة بما يلي :

— « ٠٠ بينما كان يلف اللوحة فی الورق تاقت نفسه الى أن يلقى النظرة الأخيرة ٠٠ تركها على الحامل وتراجع حتى لاصق ظهره الجدار ٠٠ سيقولون عدت الى تصوير الأشخاص هذا اذا اهتموا بأن يقولوا شيئا على الاطلاق ٠٠ عندما أرسم أمی يا سادة لا أصور أشخاصا ٠٠ أنا « فقط » أطل الى الداخل ٠٠ » .

من خلال هذه اللوحة يحاول الكاتب أن يولد تخريجاته ، ويستنبط خيوطه التي يخلق منها نسيج القصة ٠٠ فالبطل يعمل رساما باحدى المجلات الكاسدة وهو يتخذ من فنه طريقا ٠ طريقا للطموح والنجاح ٠٠ لهذا نجدہ يبدع تلك « اللوحة » التي تضم وجه أمه ويتقدم بها الى المسابقة ٠ لعله يفوز بالجائزة الأولى التي تتيح له السفر الى أوربا ٠٠ لكن الظنون تساوره ، فلعل أحد أعضاء اللجنة لا تعجبه اللوحة ، متذعرا في ذلك بأن صاحبها يهتم بتصوير الأشخاص ، وأنه غير قادر على أن يتخطى الواقع ٠٠ في تلك اللحظة اليائسة يحاول الفنان أن يتذكر ملامح أمه لكن انفعاله العنيف سرعان ما يطمس تلك الملامح فلا تكاد تبين ذاكرته ٠٠ الأمر الذي جعله يصرخ قائلا : (أين ملامح أمی ٠٠ لقد ضاعت ٠٠ لقد ماتت أمی ٠٠) وأحس برغبة قوية تدفعه الى أن يجرى في الشارع صارخا بأعلى صوته « ماتت أمی ، ماتت أمی » ٠٠ ولم يهدأ حتى رآها تطل عليه من خلف زجاج مكتبة بالمجلة التي يعمل بها وبأنها صورة وجهها الذابل ، والدموع تنحدر في خطوطه الفائرة ، وتظهر نتيجة المسابقة ، ويفوز بالجائزة الأولى وبذلك يتحقق الحلم فقد أراد أن يجعل من نفسه راهبا للفن .

وفي قصة « ظل السكين » نجد كاتبنا يوحى إلينا بمضمون القصة من خلال اللوحة التي يعبر عنها بقوله «لأول وهلة جذبت عينه اللوحة المثبتة على الحامل بألوانها الزيتية التي تلمع في النور ٠٠ وبرغم بعد المسافة ، والضوء الخافت رأى بسهولة كل التفاصيل ، صوامع الغلال الفارغة ، المتناثرة على السطح ، والسلم المتنقل « الموضوع » على الجدار ، وظله الذي تقيه الشمس بجانبه ٠٠ ليست هناك ألوان تقريبا « فقط » هناك الأبيض والأسود يرقصان في ايقاع حاد يوحى بالظهيرة ٠٠ « واضح ان الضوء الذي يشع في اللوحة انما يوميء الى كشف الستار عن كل ما يدور في الخفاء بين « فتحي » الطالب بكلية الفنون ، و « صباح » زوجة « مرسى » ابن عمه الذي قضى نحبہ فما من لقاء يتم بينهما في الظلام الا يحس بأنه قد تعرى أمام القرية جميعها ، فهذا الصراع الذي يعاينه الآن انما يحدث نتيجة

تصادم صورتى وجهها أمامه صورة وجهها الذى يراه ناضرا غضا ، وصورته يوم المآثم حيث كانت تلتطخه بالطين ، وينهال عليه صفعا ولطما ، وواضح ان رمز « البقرة » فى القصة انما يومىء بشخصية « صباح » وما تعانيه من تمزق وضياع ، حتى صارت وكأنها تلك البقرة المعلقة بين الحياة والموت ، والتى يوشك الجزار أن يجز بسكينته رقبتها ٠٠ ان اللوحة تنبئ بالحزن والفراغ والحواء ، تماما كما يحدث فى الواقع الخارجى ٠٠ فالحداد ما يزال يطارد (فتحي) وينغص عليه حياته ٠٠ الحداد الذى ينملاه من وجه صباح الملطخ بالطين ، والذى جعله يشوب الى رشده ، ويحس أنه تعرى تماما وفى هذا الصدد يقول الكاتب : « ٠٠ وعندما رفعت صباح رأسها عن صدره الأيسر خيل اليه أنه حدث تجويف عميق مكانه ، وشعر أنه أصبح خاويا يمكن أن ترى الأشياء من خلاله ٠٠ » .

ويوعز الينا عز الدين نجيب فى قصة (السقوط) بذلك الجو الدرامى الذى يعيش فيه « عواد » ٠٠ فهذه الصورة التى سجلها الكاتب فى بدء قصته انما تنم عن ذلك الاحساس الغامض الذى يسيطر على البطل وكأنه يحدث بذلك الفعل المنكر الذى سوف يقدم عليه ويجعله معذبا طول حياته .

يقول الكاتب : « ارتعش ضوء المصباح « الجاز » على (الطبلية) عندما هبت نسمة مجهولة المصدر ٠٠٠ لاحظ عواد مزقا جديدا فى جلبابه عند الحجر ٠٠ كان رأسه تحت المصباح تماما يغمره الظلام ٠٠ أخذ يللم المزق باصبعه ، ووجهه فى حجره ٠٠٠ قام فى صمت ودس قدميه فى حذائه البالى وغادر النار ٠٠ يخترق ظلام الزقاق .

٠٠ لقد كان عواد يعتقد أن الضيق الذى استحكم على حياته ، كاد أن ينفرج حين طرق بابه العجوز «حمصون» الذى دعاه الى لقاء الحاج شعبان ٠٠ فقد كان يخمن أنه سوف يفلح أرضه الشاسعة وهو فى مقابل ذلك سوف يجنى أجرا سخيا ٠٠ الكنه حين كان يعبر الطريق اليه ، كان ينصت الى تلك الهواجس الغامضة التى ظلت تراوده حتى تم لقاءه بالحاج شعبان ويبدو أن الكاتب يرمز الى تلك الهواجس بصوت ماكينة الطحين الذى راح يدق باستمرار فى أذن عواد ٠٠ لقد طحنت الحاجة عواد تمتما كما طحن الماكينة القمح ليصبح دقيقا ، فقد انصاع لأمر الحاج شعبان الذى حتم عليه أن يقتلع قطن «السبدة أم كمال» التى تؤثره دائما بأفضالها ٠٠ انه الآن يتألم ويخرج من بيته هائما على وجهه ويجد نفسه فجأة أمام تلك الشجيرات المخلوعة ٠٠ انها تبدو أمامه كالجثث التى تحلق فيه لقد أحس أن كل شئ يحلق فيه وانه لم يعد متأثرا بأثوابه فهو يحاول أن يللم مزق جلبابه لكن دون جدوى ٠٠

فوق ذلك نجد عز الدين نجيب يقوم دائماً بالتركيز على ملامح الشخصية وكأنه يقول : اننا حين نفتقد هذه الملامح لا يمكن أن يحقق لنا ادراك جوهر الشخصية ، فهي لاتعدو أن تكون شخصية بلا صورة فالصورة هي التي تحدد طبيعتها وتسمها بسمة التشيؤ ، وبالتالي تبدو الشخصية هنا وكأنها فوضى من الهوى التي لاتخضع للرؤية أو الادراك . . وهكذا يحاول عز الدين أن يسجل لنا هذا المعنى من خلال قصة «القطار» . . فالبطلة هنا تعاني من عدم فهمها لشخصية البطل الذي ينوى الزواج منها ومن ثم فهي ترفض هذه العجلة وتطلب منه أن يمهله رويدا . . وعندما تقترب من هذه الملامح تجدها تتشبهت بها وتمعن النظر فيها . . فقد أدركت الآن كل شيء فيه ، حتى أصابعه وهي تتقلص وتنفرج على الكوب الزجاجي . . وعند ذاك أحست بارتياح شديد . . لقد عرفتة الآن ولا يسعها الا أن ترفضه . وفي قصته «المستنقع» نجد «درية» تعاني من نفس الاحساس فهي تعمل رسامة عند «فكري» صاحب «مكتب تصميمات النسيج» لقد أرادت أن تكشف النقاب عن شخصيته لكنها لم تفلح ذلك لانه «كان دائماً ينكفيء في الركن المظلم على لوحته في صمت لعدة أيام فقد حاولت أن تحفظ ملامحه لكن دون جدوى» حتى سقطت في النهاية ضحية غموضه وخداعه . .

أما قصة «أم شوقي» فقد استطاع الكاتب أن يقدم الوحته على النحو التالي :

« لقد أطبقت على الشمس الصغيرة قبضة هائلة من السحب ، وظلت تخنقها حتى انطفأ آخر شعاع ترسله الى الأرض . . رفعت «هانم» وجهها الى السماء ، مستطلعا ، فبانت العينان محمرتين . . وعلى الحدين أثار الدموع . . ظلت العينان تنبشان بين كتل السحاب على أثر الشمس دون جدوى» .

ان رمز السحب التي تغلف الشمس هنا انما يوحى بحالة القلق والحيرة التي تنتاب «هانم» فهي عاجزة أن تجد مخرجا من هذا المأزق الذي وقعت فيه . .

فقد أخبرت زوجها الفلاح الأجير بما يحدث من شجار بينها وبين شقيقتها « نظيرة » التي رفضت بعض النقود لكي تشتري « لحم الموسم » الأمر الذي جعلها تلجأ الى احدى الجارات لكي تحقق ذلك . . لقد أنكرت على زوجها تصرفها الأخير ، وما كانت تعلم انه سوف ينفجر فيها غاضبا مهددا بالقاء اللحم الى الكلاب في الشارع .

وهنا تتكاثف السحب ويظلم المكان فلا تقوى « هانم » على الابصار

٠٠ لقد كانت تبحث عن بصيص من ضوء يذيب تلك الظلمة الحالكة الضارية عليها ٠٠ وأخيرا ينصاع الزوج للأمر الواقع حين يلح ابنه الصغير فى السؤال عن لحم الموسم ٠

أما « قصة قمر الليلة السابعة » فلعل العنوان ينبئنا بأن ثمة شىء لم تكتمل صورته فى ننايا القصة ٠٠ ان هذا الشىء هو الطائر الصامت الذى ينطلق وسط الظلام حيث يطلق نداء غامضا يستغلق على ذهن البطلة ٠٠ ويرمز الكاتب بهذا الطائر الى ذلك الفنان الذى ينتقل من بلدة الى أخرى بلا متاع اللهم الا حقيبته المكسدة بالكتب التى يستلهم منها أعماله المسرحية التى يجرى وراء عرضها فى الاقاليم ٠٠ والكاتب هنا يرسم صورتين : صورة الزوج الذى لا يهتم سوى اشباع دوافعه الغريزية ، وصورة الفنان « شكرى » الذى يتردد على منزل « أم بديعة » حيث يشغل حجرتها بين حين وآخر وتنجذب « بديعة » الى شخصية شكرى رغم زواجها من « عبده » وانجابها طفلا ٠٠ كانت تعجب بصمته وزهده ووفائه لفنه لكن « شكرى » لم يكتثر بها فقد كان مشغولا بفنه وكان مثل الطائر يحلق دائما ولا يهبط الى الأرض الا نادرا ٠٠ وفيجأة تستيقظ « بديعة » من هذا الحذر الذى يستولى عليها على أثر مرض طفلها الذى كاد أن يموت ٠

فى ضوء مما سبق يتبين لنا أن « عز الدين نجيب » انما يبدع فنه عن طريق التفكير بالصور التى توحي رموزها بالأجواء الغامضة التى تحول - فى بعض الأحيان - دون رؤية البطل للامح الأشياء ، الأمر الذى يجعله يتعثر ويتخبط ويسقط فى النهاية سقطته التراجيدية ٠٠ وهذا ما توعد به قصة « الكنز » حيث نجد « حسنى » ينهال بالفأس على جدار بيته بحثا عن الثروة التى أخفاها والده فى مكان مجهول قبل موته ٠٠ وقد ظل يضرب بفأسه بلا وعى بطريقة عشوائية حتى أصيب بالهوس والخبل حين ضل الطريق وعجز عن ابصار الهدف ٠٠

وفى قصته « صمت النخيل » نجد « رشدى » يلقي بنفسه الى التهلكة حتى يسطو على « حجة البيت » التى كانت فى حوزة الحاج شعبان ، فقد باع والده اليه البيت فى مقابل مبلغ يشتري به جهازا لابنته سعدية ٠٠ لقد أراد رشدى أن يثار لوالده الذى أصيب بالشلل فى اعقاب بيع البيت ، فداهم الحاج شعبان وسدد اليه طعنة بمطواه ثم ولى الأدبار حاملا « الحجة » الى أبيه ٠٠ لكن سرعان ما يصدم رشدى حيث يجد أباه يعرض عنه ويرشد العمدة الى مخبئه ، واضح أن الكاتب هنا يريد أن يؤكد مصير الذى تردى فيه البطل كان نتيجة اختلال رؤيته وعدم تقديره لطبيعة الموقف ٠٠ كذلك يمكن أن تنسحب هذه الدلالة على

قصص « السقوط والمستنقع » و « قمر الليلة السابعة » حيث نجد الشخص هنا تتعرض لعمليات التدمير بسبب ما تعانيه من طمس الحواس وعدم تميز الأشياء . . لكن الكاتب - الى جانب ذلك - يسوق الينا بعض القصص التي تشع بالضوء والنصوع فهو هنا لا يتردد في انصاف شخصه طالما كان في مقدورها أن تعي واقعها ، وتبصر ملامح الأشياء في عالمها الخاص . . وهذا يمكن أن ينطبق على قصص « المثلث الفيروزي والقطار » و « أم شوقي » ورغم هذه المزايا التي تتسم بها مجموعة : « المثلث الفيروزي » ، فانه لا يفوتنا أن نشير الى بعض الهنات التي نأخذها على الكاتب . . فقد لاحظنا أنه ينزع - أحيانا الى التحقيق في جو رومانسي ينأى به عن الصدق ويبعده عن منطلق الاقناع ، ويمكن أن نتمثل ذلك في موقف بديعة وشكري من ناحية ، وموقف الأم من ناحية أخرى .

في قصة « قمر الليلة السابعة » رأينا (بديعة) تحلم بشخصية ذلك الفنان الذي لا يحس بوجودها والذي كان دائما على سفر ، وهي تغالى في أحلامها وتهويماتها الى درجة التهافت والاسفاف ومن عجب أن الأم تدفعها الى ذلك وتهيب لها الفرصة للقاء بشكري ، بل نجدها تخلى الحجرة طول غيابه وترفض أن يشغلها غيره . رغم ضيق ذات اليد كذلك لم يستطع عز الدين أن يقنعنا في قصة (صمت النخيل) بموقف الأب الذي يرشده العمدة الى مخبأ ابنه - دون أدنى تردد رغم أنه ضحى بنفسه من أجله . . ونجد نفس العيب في قصة (القطار) . .

فالبطلة نحب البطل ثم فجأة ترفضه لأسباب واهية . . وينطبق ذلك على قصة (المستنقع) التي تنطق بروح الافتعال فنجد (درية) تقع في نفس المصير الذي لقيته زميلتها « نجلاء » رغم تحذير الأخيرة لها من شخصية مراد . . .

والحق أن هذه العيوب كان أثرها واضحا في طبيعة التشكيل عند كاتبنا . . فهذا اللوحات التي ساقها الينا في ثنايا قصصه هي أبعد ما تكون عن اللوحات الفذة الفريدة التي ترسخ في الأذهان . . فنحن سرعان ما نغفلها بمجرد أن ننهي من الاطلاع عليها . . ان تأثيرها فيزول بزوال المؤثر . . لكنها مع ذلك ، لا تخلو من الجمال . . الجمال الذي برق وميضه ثم يختفى فجأة . . ومهما يكن من أمر فلا يسعنا في النهاية الا أن نسجل تقديرنا لموهبة عز الدين نجيب في عالم القصة .

وحين ننتقل الى كاتب « فوستوك يصل الى القمر » للكاتب مجيد طوبيا لكي أتناوله بالبحث والدرس والتقييم ، سرعان ما تنير انتباهي

تلك الطريقة الفذة التى يعالج بها الكاتب مادته الفنية .. فمن الحقيقة والوهم ، ومن الواقع والحلم ، ومن الشعور واللا شعور ، ومن خلال هذه التكوينات الثنائية المتناقضة ، تنثال المادة الفنية ، وتأخذ تشكيلها وصياغتها التى تعبر عن عالم « مجيد طويبا » الذى يشع بالصور والألوان والأفكار .. ولعل أبرز ما يميز هذا العالم هو ذلك الخيال الذى يلوذ به الانسان حين يضيق ذرعا بالحياة ، وحين تصطدم آماله ورغباته بصلاية الواقع ، فلا يقوى على مواجهة صدوده وعوائقه ، حينئذ لا يجد عزاء الا فى التحليق والارتفاع فوق المحسوس ، ومن ثم نجد البطل يعاني دائما من الصراع بين ما ينبغى أن يكون وبين ما هو كائن .. ومن خلال الصراع الذى ينشب بين المثال والواقع يتولد الاحساس الدرامى عند مجيد طويبا .. فالبطل ينقسم على نفسه ، وينشطر الى شطرين منفصلين ، وبذلك ازدوج الشخصية وتنشعب حركتها فى ضوء خطين متوازيين يناقض كل منها الآخر .. ويكاد هذا التصور أن يطغى على أغلب قصص المجموعة ، فهذا السائق يتخذ من سيارة النقل التى يقودها ، وسيلة للفرار من عالمه الملىء بالصخب والضوضاء .. انه ينظر اليها على أنها « فوستوك » .

الذى سوف يقوم بنقله الى القمر حيث السكون والهدوء .. فهو يعاني من ذلك الصراخ الذى يتسلط عليه فى كل مكان .. فهو بمثابة الوحش الذى كان يطارده أينما كان .. وفى الطريق يصطدم بهذا الوحش الذى يملأ الدنيا صياحا وضجيجا .. وفى البيت يجده ماثلا فى أصوات المطارق التى تنبعث من ورشة الحديد ، وعجلات القطارات التى لا تتوقف ، وأبنائه وزوجته الذين يعلنون بأصواتهم حتى يسمع كل منهم الآخر ويسرح « السائق » بخياله فى عالمه البعيد الذى ينشده ، ويختلط حلمه بالواقع وعند ذاك تهتز الأشياء أمامه ، وترتبك رؤيته فيختل توازنه وينقلب بالسيارة .. وحين ساد الهدوء المكان ، خيل اليه أنه قد حقق حلمه وأنه يعيش فوق القمر ، ولم يكن يعلم أنه قد أصيب وأنه موجود بالمستشفى ، وفى قصة « الوجه الآخر » نجد البطل أمام المرآة مسددا ناظريه الى وجهه الذى يفصح عما يدور فى واقعه من أحداث وفواجع ..

فهناك أنباء تتواتر اليه عن احتمال نشوب حرب ذرية عالمية ، وهناك اعصار يجتاح استراليا ، وهناك تفجير قنبلة ذرية تحت الأرض .. وحين لم يستطع أن يهدىء من روعه ، رأيناه يلجأ الى المرآة لكى يستنبط من خلالها الوجه الآخر لعالمه الواقعى ..

وجه الأنبياء الذى ترسم على صفحته امارات الطمأنينة والأمن

والسلام ٠٠ وينبثق ذلك الوجه السماوى من خلال سطح المرأة اللامع ، ويتحرك متجها الى الطريق ، ملتقيا بأفراده من الناس ، مبشرا بالحب والخير والوئام ٠٠ ويتأثر خطوه جمع غفير لكن هذا الجمع يتقاعس فى منتصف الطريق فلا يقوى على السير خلفه حتى النهاية فقد أحس بالارهاق والجوع والضياع ٠٠

وحين ينتهى ذلك النبى من جولته فى ربوع الأرض يعود أدراجه الى حيث بدأ فيبتلعه ذلك السطح اللامع وفى ذلك الوقت يستيقظ البطل من غفلته حيث تصطدم حواسه من جديد ، بضجيج الحياة الذى لا ينتهى وعلى هذا نجد أن الكاتب يريد أن يؤكد لنا أن الحلم انما يمثل ضرورة نفسية ومعنوية نحتاج اليها حين نحس بذلك التصدع الذى ينتاب عالمنا بين حين وآخر فمن يفقد أحلامه يفقد خصوبته وحيويته يصبح عقيما مجنونا .

وتعتبر قصة « الرصيد » أصدق تعبير عن هذه الدلالة حيث نجد البطل هنا قد استحال الى كتلة من جماد ، فهو لا يحس ولا يفعل ، ومن ثم نجد رصيده فى البنك يتناقص يوما بعد يوم ٠٠٠ رغم انه أشد ما يكون حرصا على أمواله فهو لا يركب الاتوبيس خشية أن يتعرض للسرقة وهو يعزف عن أصدقائه لانهم يريدون أن يشاركهم الاحتفال بليلة الميلاد ، الأمر الذى جعله ينتهى الى الافلاس والى سخرية الآخرين منه .

أما قصة « أشجار الدخان » فهى تنبئنا بشخصية (ماتسودا) الفلاح اليابانى الذى لا يعيش الا على ذلك الحلم الذى يود أن يحققه ٠٠ فهو يحلم بأن يسود العالم السلام والطمانينة ، وهو يحب الأرض والانسان والطيور ٠٠ ويحب على الأخص الحمام ويكره العقارب ٠٠ كما يكره فى الناس من يصيد الحمام ٠٠ لكن حلمه سرعان ما يتبدد حين ينبئه الواقع بالطائرة الأمريكية التى تضرب « هاواى » بقنابل النابالم ، وبالغواصة الذرية الأمريكية التى تزور موانئ اليابان ٠٠ الآن لا يستطيع أن يطفىء شجرة الدخان التى تلح صورتها على ذهنه دائما .

انها تلك الشجرة التى تمثل حرق ربع مليون انسان فى «هيروشيما» ٠٠ ويصطدم الماضى بالحاضر فى نفس « ماتسودا » الماضى وما يحمله من صور مفجعة والحاضر وما ينذر به من تهديد وتدمير وعندئذ يجاهد « ماتسودا » من أجل الأطفال شجرة الدخان ومن ثم لم يجد بدا من أن يزرع ثمن « جهاز » ابنته الى جريدة أمريكية كى تذيع على العالم تحذيره الشديد من ذلك الشر الذى يحرق بالبشرية وكاد أن يودى بها .

فوق ذلك نجد « طوبيا » يسلط الأضواء على تلك القوة الخفية التى تسيطر علينا ، وتجبرنا فى أغلب الأحيان - على أن نكون مسيرين فيما نأتيه من افعال وتصرفات انها القوة اللاشعورية التى يحاول الكاتب تكتيفها وإبراز تأثيرها من خلال بعض القصص ..

ففى قصة « الزمان والمكان » تجد ان البطلة وهى تعمل مدرسة تقف أمام التلميذات وهى فى حال من الشرود والسرمان .. فقد كانت غائبة عن وعيها تماما ، ذلك لأنها لم تستطع أن تفلت من تلك الصورة التى تسلط عليها دائما .. انها صورة طفلها الذى تركته فى البيت وهو يئن من المرض .. لقد تضخمت صورة الطفل أمام عينيها حتى جعلها لا ترى شيئا سواها لكنها تستيقظ فجأة من تلك الحالة اللاشعورية التى تعانيتها ، حتى تستدعيها الناظرة وتوبخها عن تأخيرها « كشف درجات الفترة » .. وتبرز هذه الدلالة ايضا فى قصة « زفاف » فنجد « المعلم » يحتفل بذلك « الثور » الذى ينوى ان يذبحه ، فيجوب به الشوارع وقد استولى عليه الدهول ، فقد كان يفكر فى زوجته التى هربت من منزله دون ادنى سبب فهو يذكر انه كان يغدق عليها العطاء وانه كان لا يرفض لها طلبا ، وحين اعياء التفكير راح يسقط احاسيسه على « الثور » حتى خيل اليه انه الزوجة التى يجب أن يقتص منها ، وفجأة ينهال عليه ضربا وصفعا .. وتتم « قصة » الفأر الذى لم يمت عن مدى الاختلال الذى يصيب شخصية البطل حين يصبح مغلوبا على أمره ، كاظما غيظه أمام المدير الذى أهانه على الملأ .. فهو الآن يستعيد الموقف بجميع حذايره ، محاولا إعادة صياغته وفقا لما ترتضيه نفسه ..

لقد أراد أن يثار لكرامته ولو عن طريق الوهم .. وبذلك أمكنه أن يحقق شيئا من التوازن بين عالمه الداخلى وعالمه الواقعى .

وتعبر قصة « فاتح الكوبرى » عن ذلك الضعف الذى يعترينا أحيانا فيقعنا عن التمييز بين الصواب والخطأ ، الأمر الذى يجعلنا نرتكب أخطاءنا رغم عنا ودون ارادتنا .. فقد انصاع عباس لأمر الضابط وفتح الكوبرى على الطلبة المتظاهرين فأغرق سبعة وخمسين طالبا . لقد اهتز عباس لذلك الحادث المفجع الذى ظل يطفو فى منامه كل ليلة فقد كان يحلم بالشيوخ رضوان وهو يتقمص شخصية القاضى ويحكم عليه بالاعدام ربما بالرصاص .. ويهب عباس من نومه مفزوعا صائحا بأنه كان « عبد المأمور » فقد أطاع الضابط حتى لا يتعرض للفصل .. لقد كانت عيون الاهالى تسدد اليه دائما وتكاد تنهشه نهشا .. وينطلق الى ذلك المقهى الذى تحشده فيه الناس ويقف فوق مقعد صارخا بأنه برىء ويظل

يصرخ ويصرخ لكن دون جدوى فقد انقض النّاس من حوله وصار وحيدا
لا يسمع الا صدى حتى جن جنونه .

وفى قصة «اللحظة الطويلة» نلاحظ أن العنوان ينطبق تماما على
المضمون . . فقد استطاع الكاتب أن يمت تلك اللحظة ويستخرج من
جوفها السنين الطويلة التي قضتها خديجة مع زوجها «حسين» . . فقد
ضاقّت الدنيا بها ولم تجد عزاء الا فى صورة زوجها المعلقة على الجدار
التي استحوّلت أمامها الى سيال من الذكريات يحمل اليها صور الماضي
وأيام الصبا حيث كان زوجها يشملها بالحب والحنان لكن هذه اللحظة
التي تفيض بالنشوة والأنس والامتناع لم تستمر طويلا فسرعان ما تذكرت
موت زوجها فراحت تجهش بالبكاء .

واضح أن «مجيد طوبيا» يستعين فى تعبيره الفنى بأحداث
الأساليب . . وكأنه بذلك يريد أن يقنعنا بأن الفن لابد أن يتميز بلغة
خاصة ، تنأى عن الهبوط الى مستوى لغتنا الدارجة فهى لغة رامزة
تقوم على التلميح والايحاء وتستعجن الاخبار عن الواقع بطريقة مباشرة
وهذا ما تنطق به القصص المجموعة بحق . . فمن الضروري أن نذكر أن
كاتبنا قد يروق له فى بعض الأحيان أن يعبر عن قصصه بالطريقة
السريالية . . لهذا نجده لا يرتبط بمنطق الواقع وانما يحطم تلك
العلاقات المنطقية لكى يبتكر شكلا جديدا . . فهو مثلا ، يخلق ازدواجا
فى الشخصية الواحدة حتى تبدو أمامنا وكأنها قد انقسمت الى
شخصيتين متناقضتين . . تلتصق احداها بالواقع وتلتزم بحرفية
قوانينه ، وترتفع الأخرى الى ما فوق الواقع محلقة على جناح من الخيال
وكانها تنتمى الى عالم المثال الذى نفتقده فى حياتنا . . وتعتبر «فوستوك
يصل الى القمر» ، و «الوجه الآخر» و «أشهر رسائل الحب» و «اللحظة
الطويلة» أصدق تعبير عن ذلك . . وقد يميل مجيد طوبيا الى التحرير
الذهنى فى بعض قصصه حتى تبدو وكأنها ترجمة دقيقة لما يجول فى
ذهنه من أفكار ملحة لا يجد منها مخلصا . . فالقصة هنا لاتخرج عن
كونها فكرة مجردة قد نسج الكاتب خيوطها حتى صارت شكلا فنيا . .
ويهمنا أن نذكر أن أفكار مجيد طوبيا غالبا ماتطغى على جميع مقوماته
الفنية . . فلا غرابة اذا رأينا هذه النزعة الذهنية تسود أغلب أعماله
. . بل تبدو وكأنها السمة الرئيسية التى تتميز بها هذه الأعمال وقد
يلوح لى أن كاتبنا انما يقف من عالمه الفنى موقف العالم . . الذى يلقي
فروضه على الطبيعة لكى يختبر مدى صدقها . . فقد ينبجج أحد الفروض
فى تفسير بعض الظواهر وعند ذاك نصل الى النتيجة التى يصبو اليها
وقد نتعرض لذلك نتيجة اعتمادنا على فرض خاطيء قد عجز عن التنبؤ

بحقيقة الواقع وقد يجانبنا الصواب حين ننحرف في عملية تطبيق الفروض على الواقع ..

وذلك ما حدث تماما بالنسبة لبعض أعمال مجيد طوبيا .. فقد افترض بادىء ذى بدء أن ثمة علاقة تربط ما بين الواقع والخيال ، وما بين الوهم والحقيقة .. لكنه لم يلتزم بحرفية هذا الافتراض حين أراد تطبيقه على عالمه الفنى ، فواضح أنه قد أخفق فى السيطرة على ذلك الرباط الذى يؤلف بين النقيضين ويوحد شملهما فى كل محكم متماسك .

فقد سار الخيال والواقع أمامنا فى خطين متوازيين لا يلتقيان ، فهما لا يختلطان ، ولا يتفاعلان ذلك لانهما قد تحررا من أية علاقة تجمع بينهما . ذلك نلمسه بوضوح فى قصة «الوجه الآخر» حيث نجد الشخصية تنقسم أمامنا الى شخصيتين منفصلتين .. احدهما تمثل الواقع على طول الخط ، والأخرى تمثل الخيال على نمط واحد .. ولاشك أن هذا العيب الفنى قد انعكست آثاره بوضوح على مجرى سياق القصة، ونلمس ذلك فيما ندركه من تداخل ، وتقطع ، وبطء ، ورتابة .. وينسحب ذلك على قصة «الرصيف» فقد قدم الينا نمطا انسانيا لا يمكن أن يتحقق فى عالم الفن ، فقد تعمد هنا أن يجرد الشخصية من الحلم والخيال والانفعال حتى بدت متحجرة وكأنها قطعة من جماد .. فهى لا تهتز أمام الأحداث الخارجية فلا تصدر عنها ردود أو استجابات دائمة فى حالة سلب مستمر .. والحق أن شخصية على هذا النحو لا يمكن أن توجد فى عالمنا .. فالانسان دائما ينفعل بالأشياء ويؤثر فيها ويتأثر بها . ومهمة الكاتب هنا تتمثل فى قدرته على أن يلقف من مجرى الواقع تلك المؤثرات التى يقوم بنكثيفها وتشكيلها تشكيلا فنيا .

وبعد فقد منحنا «مجيد طوبيا» من خلال كتاب «فوستوك يصل الى القمر» رؤية جديدة ننفذ بها الى جوهر الأشياء فنكشف فى ضوئها عما يدور فى جوف الواقع من أسرار وظواهر وأحداث ..

عالم محمد كمال محمد

٠٠ فى القصة القصيرة

ربما كان من الضرورى لكى نفهم أديبنا محمد كمال محمد ونفهم
عالمه الأدبى الذى يقدمه لنا من خلال كتابه « الاصبغ والزناد » أن نركز
الضوء على طبيعة جدله الدرامى الذى يتألف من عدة عناصر – منها عنصر
المرأة ، وعنصر الاحساس بالطفولة وأخيرا عنصر الاحساس بالاهانة
والانهاك الشديد .

فمن خلال هذه العناصر تتولد عمليات البناء والتشكيل فى دنيا
القصة عند محمد كمال محمد .

وجدير بالذكر أنه ينحت شخوصه من صميم واقع يمتاز بالحشونة
والحدة والحساسية ٠٠ ذلك الواقع الذى يجعله – بحاسته الفنية – الى
خيوط متشابكة معقدة لا تخلو من نفحات رومانسية حاملة ، تثلج الصدور
المقروحة ، وتروح عن النفوس المكدودة ٠٠ ففى عالمه قد نحس قيظ
الحياة وسعيرها ، وقد تلفحتا هبوة علية نستروح نسماتها ٠٠ فمثلا
حين ننظر الى قصة « الاصبغ والزناد » – وهى أولى قصص الكتاب الذى
يحمل هذا العنوان – نستطيع أن نفطن الى طبيعة الأنثى عند الكاتب ٠٠
وكيف تتشكل بأشكال مختلفة ومن ثم فهو هنا يعرض شخصية «فكرية»
زوجة توفيق ويكشف النقاب عن دورها الأساوى فى حياة توفيق وكيف
أنها أس نكبته ، فقد كانت قادرة على تحويله الى انسان أشبه بالآلة
الصماء – فهو يطيعها ولا يعصى لها أمرا ويخضع لأوامرها بطريقة
لا واعية ، فمثلا أرادت المصلحة التى يعمل بها ترقيته ونقله الى القاهرة
٠٠ فما كان منها الا أن وقفت أمام ترقيته ونقله بكل عناد وصلف –
لقد فرضت عليه أن يتجمد ويتحجر فى بلدتها دمياط فلا يتزحزح عنها

ويظل متسمرا فى مكانه . . ولم تقتنع بتقوقعه وانكماشه ، بل راحت تحرضه على تقديم استقالته حتى استجاب لها واستحال فى نظر الجميع الى انسان عاطل فاشل ضعيف ظل يتقلص ويتآكل شيئا فشيئا حتى تلاشى تماما . . وقد راعى أن لاحظ محاولة الكاتب فى تجسيده لأحاسيس الخيانة والكراهية والاحتقار . . فرأينا كيف ضرب معاون المباحث « توفيق » من أجل فكرية ، وكيف تخيل ضيف توفيق – ذات ليلة – شخصية فكرية وهى قابضة على البندقية ذات الفوهة الواسعى وهى تتخفى وراء ثوبها المعلق لتصوبها الى رأس صديقه النائم وقد زحفت بأصبعها ذى الظفر العنابى نحو الزناد .

لئن كان الكاتب قد صور شخصية فكرية على هذا النحو فانه لا يريد أن يقول كل شئ عن المرأة فى هذا الشأن وانما كانت فكرية تمثل نصف الحقيقة ، أما النصف الآخر فهو الجانب المضى من المرأة الممثل فى قصة « بلا هزيمة » فهنا نجد البطل يغرق فى حبه ويتحدى بالحب الكل والأهل والحلان . . لقد أراد أن يسعد بحبه حتى لو كان منبوذا من أهله . . كل جريره انه أحب امرأة فقيرة كانت تأكل بجسدها فأنكروا عليه هذا الحب وأنكروا عليه الزواج منها . . انظر الى حديثه لابن شقيقته الصبى الذى جاء الى خاله الصديق يريد أن يكتشف حقيقة هذه المرأة التى عشقها خاله . . جاء زائرا رغم معارضة أمه ووالده : « ان حبها أهدنى بطاقة كبيرة من القوة وحب النضال لأواجه الفقر الذى صنعوه لى بعدها قطعوا عنى كل عون . . صفحة ٨٢ » . . ومن ثم فهذه المرأة جديرة بالحب . . لأنها جعلته لا يشكو من ضيق ولا يشعر بحاجة الى الغير رغم راتبه الصغير ونفقات معيشته . . وينتقل الكاتب الى تصوير جانب آخر من جوانب طبيعة المرأة فى قصة « ضوء الحياة » فهنا يحكى عن تجربة حب بين فتى يدعى « خليل » المثقف صاحب دكان البقالة وفتاة تسمى « بركسان » فلننظر ماذا حدث بينهما . . لقد رفضت هذه الفتاة حب خليل الذى طال أمده . . بمجرد أن رأت هذا الشاب موظف البنك وحيد أمه وأبيه . . أى بمجرد ما التقت بشاب واقعى يؤمن بقوانين الأشياء المحسوسة الملموسة المباشرة . . ان واقعية الفتاة هنا انما تنسحب على جميع أفراد جنسها . . ذلك ما يقصده الكاتب بالضبط . . فجدير بالذكر أنه وضع شخصية المرأة فى موقف حرج للغاية . . أى حين جعلها تختار شريك حياتها وتختار نوعية الحياة التى أرادت مع شريكها . . وهنا تبدو المرأة منسلخة عن كل المساحيق التى تخفى طبيعتها . . تبدو عارية فتكشف عن حقيقتها ، بلا رتوش أو زيف أو افتعال ومن ثم فلا غرابة اذا رأيتها تأخذ قرارا واقعيا صرفا بعيدا عن أية عواطف

أو خيالات - لقد اختارته الشاب الذى يعمل بعلم الحساب ، وينظر الى الأشياء نظرة أرقام وأعداد .. وهى فى ذلك لا تراعى الشخص الذى أحبها حبا جما .. الشخص المثقف الرهيف الحساسة الذى يتخيلها فى ذهنه ووجدانه كالملاك كالشعاع كالروح الطائر .. انها هنا تقيس حياتها قياسا نفعا برجماتيا خلوا من أية عاطفة أو رومانسية فلا تخلط بين قوانين الواقع وشطحات الخيال ، وعلى هذا فهذه القصة أصدق تعبير عن واقعية المرأة وميلها لكل ما هو صرفى ونفعى ومباشر .. كما تكشف القصة عن رومانسية الرجل الذى كان يقطع الجبن بالسكين فى نفس الوقت الذى يقطع بنفس السكين ، صفحات كتاب أدبى يقرأه .. ويحلم فى حبه ويظل يحلم حتى بعد فشله فى ذلك الحب .

أما النصف الثالث من النساء فيتمثل عند أديبنا فى المرأة القابلة للتآكل والانسحاق ، فهى تتلقى ضربات الزمن القاسية دون مقاومة أو شكوى .. بل تجدها صاغرة مستسلمة ، لا تعصى أوامر القدر .. والعل قصة « بسيمة والمطر » أصدق مثال على ذلك ، فلنقرأ صفحة حياتها التى تنطق بما تعانيه بسيمة من آلام وأحزان ، فهى الآن تتحايل على المعاش بحرفة جديدة .. ففى البدء كانت تحمل القواديم والمناجل التى يصنعها زوجها الحداد فى مقطف على رأسها لتبيعه فى الأسواق المحيطة بالسنبلاوين بلدتها .. أما ابنها الذى أصبح يتكسب من الحلاقة للعيانين فى المستشفى ، فهو يتنكر لأمه ولا يعينها بشئ ، فحسبه أن « يلبس الغالى ويجرى وراء الممرضات بالحلوى والهدايا » .

وهى الآن جاءت الى مولد أبى المعاطى فى دمياط حامله معها هذه اللوحة - لوحة الرماية المنصوبة وقد التف حولها جمع من الناس .. لكن على غير توقع بدأت الأمطار تسقط بغزارة لتغرق سكان المدينة وتغرق سوق المولد .. فلم يكن لبسيسة من حديث الا عن حظها العاثر وما كانت تأمل من كسب يعينها على الوفاء بدين أهل جارتها الذى استنفده ثمن البندقية واللوحة ونفقات الرحلة الى دمياط .. ان سقوط المطر قد زاد من كثافة الاحساس الدرامى فلم تكن تتوقع أن هطول المطر وانفضاض الناس من حولها سيضاعف من وحدتها وعزلتها وأحزانها .. ولم تكن تتوقع انها ستقع فريسة ينهشها ذلك العملاق صاحب الشارب الغليظ وحافظته المتخمة المتورمة بالنقود .. ومن ثم استطاع الكاتب أن يصور لنا امرأة ضائعة محبطة ، دون حول أو قوة .

أما العنصر الثانى فى تأليف الجدل الدرامى فيتمثل فى الاحساس بالطفولة .. فعالم الطفولة عند محمد كمال محمد هو عالم البراءة

والسماحة والعفوية .. ولعل قصة « شىء صغير » تحكى عن الحياة التلقائية السمحة التى تمارسها بطلة القصة وسيمة .. فهى صبية تعمل شغالة .. وتتمنى أن تهذى شقيقتها العقد الأحمر ذى المشبك المعدنى الذى اشتريته لها وحفظته فى صرة ملابسها .. ان وسيمة تعد نفسها للسفر الى القاهرة بعد أن قضت مع مخدوميهها أسبوعين برأس البر .. وما زالت تنهمك فى اعداد الحقائق حتى داعب النوم جفونها وراحت تحلم بما يجرى فى عالمها الواقعى من صور وأحداث ، فرأت فى المنام الصبية « انشاد » فجرى بينهما الحوار التالى حول الهدية وقيمتها .. تقول وسيمة لانشاد :

— اشتريت لأختى عقدا بعشرة قروش .. لكن انشاد تتعالى عليها قائلة :

— أنا اشتريت « النادر » أخى فى عيد ميلاده هدية بجنيهين .

وتتألم وسيمة لدى الفارق بينهما .. وسرعان ما تعود الى يقظتها وتنهمك فى اعداد حقائق السفر .. وتتحرك العربة وفى أثناء الطريق تتوقف فجأة فقد سقطت حقيبة كبيرة تناثرت محتوياتها على الجانبين .. وانتفضت وسيمة مذعورة فقد اكتشفت ضياع « الصرة » التى تحمل فى جوفها العقد الأحمر ، ومن ثم انطلقت تفتش عنها فى عرض الطريق ، بعد أن استعاد مخدوماها أشياءهما وحقيبتيهما ، الأمر الذى أغضب الجميع فراحوا يقذفونها — حتى السائق — بأقذع الشتائم والسباب .. وكان لضياع العقد وقع الصدمة على الصبية وسيمة .. فهى لم تعد تحلم ولن تعود الى عالمها الملىء بالخيالات والأمانى والأفراح مرة ثانية .. انها الآن تجهش بالبكاء حزنا على ضياع العقد الأحمر .. أى حزنا على ضياع أحلامها ودنياها .

أما العنصر الثالث فى الجدل الدرامى .. فهو يتمثل فى الاحساس بالهوان .. ولعل قصة « الاصبع والزناد » تجسد هذا المعنى .. فعلاقة فكرية بزوجها توفيق علاقة هدم واذلال .. فهى لم تكتف بأن تجعله لا يتزحزح — شأن بنات بلدتها دمياط — عن المدينة لكى لا تنتقل الى مكان آخر فجعلته فى حال من الجمود والتحجر ، بل دفعته الى منزل الق الهوان والضياع فصار عاطلا فاشلا لضيق مجالات العمل الوظيفى بالمدينة ، وصار ينتظر قوت يومه بالوقوف أمام مصنع النسيج — لقبول أى عمل فيه — بلا فائدة . وكم كان يعتصر اهانة واذلالا حين أعربت عن احتقارها له بأن أخذت تدوس بقدميهها ملابسه المتسخة وتركها بعيدا

لتخفيها عن عينيها دون أن تعمل على غسلها له .. لقد كانت حتى تكره رائحة عرقه في تلك الثياب !

وبعد .. فقد كنت أسأل نفسي مرارا : ما السر في ضعف النتاج القصصى عندنا ؟ ولماذا يتخلف ولا يصعد الى مستوى النتاج الأوربي ؟ وكنت أتذرع بأسباب منطقية أحيانا وأسباب غير منطقية أحيانا أخرى .. فأقول ربما كان السبب في افتقار الأدباء الى الالمام بالتراث الأدبي الذي هو أضخم وأعظم تراث عرفته الأمم .. وربما أوعز الضعف الى جهلهم بلغة أجنبية تتيح لهم الاطلاع على الآداب العالمية .

والحق أنهم ضعفاء لجهلهم بالتراث و جهلهم بالخبرة الانسانية العميقة .

لكن أسعدني أن أستثنى في ذلك حفنة قليلة جدا فهي أقل من القليل .. من هذه الحفنة محمد كمال محمد الذي أثار فضولي بكتاباتهِ .. ودفعني الى أن أسأله عن سر اختياره للنماذج البشرية التي تدور قصصه حولها .. وعن فهمه للتراث واستيعابه لدقائق الألفاظ وسيطرته على أداة التعبير .. ومنه عرفت أنه عاش منذ طفولته حياة حافلة بالتجارب الانسانية والأحداث التي كونته وشكلته .. وانه كان لا يغادر « مكتبة البلدية » في موطنه المنصورة طوال الاجازة الصيفية .. ومنها كان يغترف ما أفاده في عمليات التعبير والخلق .

نقد قصص حرب أكتوبر كلمات فى ضوء القصص الفائزة

تعتبر القصة القصيرة ، لونا من ألوان الفن الذى يمتاز بتكثيف جزئية من الجزئيات ، تنطوى على شحنة شعورية شديدة التركيز . . . وواضح ان « الكاتب » يمهّد من خلال سياقه لانفجار هذه « الشحنة الشعورية » ، وذلك حين يسقط البطل « سقطته التراجيدية » ، أى سقطته المأساوية دفعة واحدة . . ان الكاتب يفرز افرازاته الذهنية فيضفى على سياق القصة ، الشكل الفنى المحكم ، المتناسك فى وحدته الفنية والعضوية .

ومن هنا كانت « القصة القصيرة » أشبه بالقصيدة من ناحية التركيز ، والشحنة الانفعالية .

والكاتب أحمد أحمد ماضى قد فعل ذلك تماما فى قصته : « مأمورية » ، فهو يلقف من « تجربة القتال مع إسرائيل » ، جزئية يتصاعد بها شعوريا ، حتى تصل الى حد « الانفجار الشعورى » ، حين يسقط البطل سقطته التراجيدية ، فيقتل ويصبح شهيدا عند ربه .

ففى قصة « مأمورية » للكاتب أحمد ماضى ، نلاحظ أن الضابط ابراهيم يصطحب الجندى بحراوى الذى يحمل معه « لفافة » وصندوقا خشبيا يحتوى جميع مهمات الضابط « هاشم » ، ليخبر أسرته بنبا استشهاده . وكان الشهيد « هاشم » له علاقة وثيقة بالضابط ابراهيم والجندى بحراوى : الأمر الذى جعلهما فى حال من الحزن والالَم لفراقه الأبدى ، ورغم استغراق « بحراوى » فى حزنه الشديد ، الا أن ذهنه كان يطفو فوق السطح بين حين وآخر . مشغولا بشئون دنياه فهو مثلا يجد فى هذه المهمة فرصة لزيارة أهله قبل قيامه بمهمة « اختراق دفاعات

العدو من خلال الثغرة » وهو أيضا يحمل معه نقود الضابط الشهيد الذي دفعها له رغبة في شراء بعض اللوحات التي تزين جدران غرفة الجلوس في منزله . . ان الجندي « بحرأوى » يرتقب من هذا الموقف العصيب . . فلولا حرصه على أن يوصل نقود الشهيد لأهله ، لرفض بلباقة مهمة . توصيل بقايا وآثار الضابط الشهيد صديقه « هاشم » . . فقد أخذ يفكر في المغزى الذي دفع هاشم الى زواجه منذ ثلاثة أشهر ، قبل أن يتهاى مسكنه الخاص لاستقباله وكأنه تنبأ بالغيب ، وكم كان ذهوله حين قرأ خطابا مرسلا الى الضابط الشهيد يفيد بأن زوجته حامل . . الأمر الذي أثار دموع الجميع .

أما قصة رحلة الصقر للأديب الشاب محمد حسن الشراوى فقد كان فيها البطل الضابط الشهيد أحمد . . أكثر تلويها وتنويعا من الوجهة . الشعورية والانسانية . . فانظر اليه وهو يعاتب شقيقه الأصغر ، فيلف نفسه بالبطانية ، ويدهن وجهه من قاع الحلة النحاسية حتى يصبح في شكل الأسد ، الأمر الذي يجعل شقيقه يهرع الى أمه مستغيها . . كان يتقمص أشكال العفاريت حتى يستنجد بأمه . . كل ذلك لكى يزيح من طريقه شقيقه حتى ينطلق الى الميدان « لقد أراد المقدم الضابط أحمد الشهيد أن ينتشل « محطة الرادار » التى سقطت فى حفرة ، فعندما كان يحاول جرها بمدركة ، أصابته دانة مباشرة ، فاستقرت الشظية فى كبده .

وتأتى القصة الثالثة للكاتب عبد العزيز الشناوى وهى « الراية البيضاء » ، وقد حازت على الجائزة ، الثالثة . . انها لقطة مكثفة ، أمكن للأديب عبد العزيز الشناوى أن يلقفها من تجربة الحرب مع إسرائيل ويستنبط من هذه اللقطة كل التخريجات البطولية والانسانية . . وقد استطاع « من هذه اللقطة » أن يستقطر منها كل القطرات الدرامية التى جمعها داخل شكل محكم متماسك .

أنها قصة الملازم الشاب وجنوده البواسل . . الجنود ذوى الصدور المقروحة من الغيظ والكبت . . انهم يريدون أن يدمروا « الموقع » بكل من فيه من جنود الأعداء ، لكن الملازم الشاب لا يريد أن يقتل أعداءه وانما يريد أن ينفذ التعليمات بأن يأسرهم جميعا أحياء .

وهنا يكشف الجنود فى همساتهم عن قبح الاسرائيليين ، ومدى ما يتميزون به من جبن وخساسة . فيقول الجندي صلاح : « حشرونا فى حجرات ضيقة مظلمة . . افترس العطش والاختناق الكثير من جنودنا . . » ويردد قائلا : « ذات يوم صحبنى (الجلاد) الى احدى

المدارس .. التف الأطفال حوله .. كما يفعلون عند زيارتهم لحديقة الحيوان .. هتف (الجلاد) : ها هو العربي الذي قام ليحاربكم .. يقتلكم .. ابتسم (الجلاد) ومد يده بعلبة السجائر نحوى .. وعندما امتدت يدي نحوه صفعنى على وجهى .. صلصلت ضحكات الأطفال ، الأمر الذى جعل « صلاح » يتميز غيظا .. ثم وجه كلامه للملازم الشاب : « لماذا لا نطلق النار عليهم ؟ » .. قال الملازم الشاب : « لقد استسلموا .. ألم تر الراية البيضاء .. » قال الجندى حمدى فى غيظ وحسرة : « ان شقيقى ظل يطلق قذائف مدفعه حتى نفذت ذخيرته ثم استسلم ، أراد أن يكون أسيرا ، لكنهم أطلقوا عليه الرصاص .. كانوا يقتلون الأطفال فى (بحر البقر) ، والعمال فى أبى زعبل .. يطلقون النار على الطائرات المدنية .. » يختطفون زعماء المقاومة الفلسطينية .. أين يذهبهم الطولى .. ؟ » .

ذلك هو الوجه القبيح الذميم للعدو .. ان هذا الوجه القبيح يناقضه الوجه الانسانى الذى يعبر عن حسن معاملة الجنود الاسرائيليين .. فانظر الى الملازم الشاب وهو يصر على أخذ هؤلاء المهزومين كأسرى أحياء ، وانظر الى أحد الجنود المقهورة وهو يركع وقبل قدمى الجندى المصرى فتدفعه انسانيته الى أن يناوله « زمزميته ليشفى غليله ويرتوى من شدة العطش » .

وتأتى قصة « قرن فلفل » للأديب (مفيد جمعة) وهى تصور طبيعة الحياة السمحة الكريمة لأسرتين مصريتين .. فهما مصريان صميمان أحدهما مصرى مسلم ويسمى « ضو » ، والآخر مصرى يهودى اسمه « ليون » .. يعيشان معا فى بيت واحد ، لهما أبوان متنافران فى الطبع والمزاج والعمل .. ولهما والدتان مختلفتان فى طبائعهما وتكوينهما ، لكن كل هذا التنافر ، وكل هذا الاختلاف لا يحول دون صداقتهم ومودتهم ، واحتساء القهوة معا أثناء حديثهم الحلو الشجى .

لقد ولد « ضو » فى اليوم الذى ولد فيه « ليون » يتحلب من ثدى « تريزه » وقت الرضاعة ، وكان « ليون » يتحلب من ثدى « نفوسة » حين يشعر بالجوع ، وكان الخواجة « شحاتة » الذى يعمل محصلا لشركة النور يصطحب فى أغلب الليالى صديقه « العلاف » الذى يرتدى الجبابب الصعيدي ، فيسهران سويا ، اما فى خمارة أو فى مشاهدة فيلم سينمائى ، الأمر الذى أغضب زوجة العلاف ، فتصب جام غضبها على « تريزه » متهمه زوجها بأنه يفسد رجلها ويبدد أمواله فى الخمر والسهر والعريضة .

أما الشابان « ضو » و « ليون » فكانا أشبه بصديقين حبيبين حميمين ، وقد توطدت علاقتهما ، وزادت توثقا ورسوخا مع مرور الأيام ، وخصوصا أيام المراهقة .

وجاءت حرب ١٩٤٨ ، ودب الغضب في نفوس المصريين حين بقر اليهود بطون النساء العرب في فلسطين . وجاءت حرب ١٩٥٦ حين تعرض المصريون للعدوان الثلاثي الذي نهش أسطول طيرانهم وشتت جيوشهم : مما جعل اليهود المصريين يتعرضون للحرع الشديد وكان « ليون » يتحاشى مقابلة صديقه « ضو » : ويتجنب الحديث معه حتى بلغت العلاقة المشدودة بينهما الى حد القطبعة لكنه أدرك في النهاية ، أنه مخطئ في ظنونه وتصوراتيه ، وان صديقه « ضو » ما زال يحمل له كل حب ومودة : فعاد له واطمأن اليه ، وراح يتأبط ذراعه في ذهابه وإيابه محتميا به من أولاد البلد الذين كانوا يتحرشون باليهود في ذلك الوقت . وذات يوم أراد « ليون » أن يسرى عن صديق طفولته فاقترح عليه أن يتنزها معا في صحبة فتاتين يهوديتين جميلتين . ودفعتهما الرغبة المشبوبة للقاء . وكانا يحسبان الأيام وهما على أحر من الجمر . لكن « ليون » أخبر صديقه بأنه يلزمهما خمسة جنيهات للصرف على هذه النزهة . وقال انه يملك جنيهين ونصفا ، وان على صديقه أن يدبر مثلهما هو الآخر حتى يتكامل المبلغ المطلوب . فراح « ضو » يعصر تفكيره ، ويبحث عن حيلة للحصول على هذا المبلغ ، وما زال يشغل نفسه بذلك حتى اهتدى الى سرقة السلسلة الذهبية التي يتدلى منها قرن فلفل أحمر من العقيق ، كانت والدته لا تكثرث بها ، لانها كانت ملكا لضرتها المطلقة . وذهبا معا الى ذلك الرجل اليهودي العجوز ، صاحب محل الرهونات وقدماء له السلسلة الذهبية بقرنها الأحمر . فممنحهما المبلغ شريطة أن يسددها في موعد محدد . انطلق الصديقان يمرحان ويلهوان وبصحبتهما الفتاتان اليهوديتان الجميلتان . وقضيا معهما وقتا ممتعا في مريوط .

لكن « ضو » حاول جاهدا أن يسدد ما عليه : لكن كل محاولاته كانت عبثا ، فاقترح عليه « ليون » أن يحصل على السلسلة في مقابل أن يعطيه المبلغ على دفعات .

وجاءت حرب ١٩٦٧ ، وأعقب ذلك ، ترحيل اليهود عن مصر ، ورأى « ضو » صديقه « ليون » وأسرتهم عربية البوليس للتحقيق معهم وترحيلهم عن مصر . وعاشت مصر سنين عجافا في ظل الهزيمة ، ثم دق ناقوس الحرب ، فكان « ضو » أحد المقاتلين في حرب العبور ، لقد

قذف بصاروخ أصاب الدبابة التي انفجرت ، وهرع أحد أفرادها يلتمس النجاة ، شأهرا سلاحه فى وجه « ضو » ضاغظا على زناد مدفعه لكنه لم ينطلق ، الأمر الذى جعل المقاتل المصرى يقذف الصاروخ ويلطمه به على وجهه ، فتنفجر منه الدماء ويتمايل كالسكران وأراد أن يجهز عليه تماما ، وفجأة تقلصت أصابعه • فقد لمح حول رقبتة سلسلة من الذهب ، معلقا بها قرن فلل أحمر من العقيق ، وأخذ يتمتم كالفحيح : «ضو•ضو•!•» •

وهنا وقف المقاتل المصرى كالتمثال ، مشدوها الهول الصدفه ، وانثالت فى ذهنه الذكريات ، ملاحظا نظرات الاستجداء التى تنطلق فى عينى « ليون » ، بألا ينفذ فيه قانون الحرب : « اقتل قبل أن تقتل » •

وبعد فقد استطاع الأديب « مفيد جمعة » هنا أن يتصاعد بهذه الجزئية الى أقصى أبعاد الانسانية • استطاع أن يستقطر منها قطرات وجدانية ، وانسانية ، وحضارية ، فضلا عن الحس الدرامى المتمثل فى هذه الشحنة الشعورية المركزة التى انفجرت من خلال هذا الموقف المفاجئ غير المتوقع •

ولئن كانت هذه القصة قد انتهت بهذه « الفرقة » التى أضاعت على القارئ عملية تحديد الاحساس الدرامى الذى يفسح للتلقى صورا درامية جديدة ، والتى كان فى مقدور « أدينا » أن يستوحىها من صميم تجربة الحرب ، الا انه أثر أن تختزل ، ويقتضب فى أسلوبه فى النهاية وهو أشبه بالانفجار المباغت • أسلوب أشبه بالصدمة التى تنبعث من انفجار لغم •

وعلى أى حال فهى قصة رائعة ننزع منا كل تقدير •

فى ضوء ما سبق ، يتبين لنا ان أغلب القصص التى عرضنا لها ، وخصوصا القصتان اللتان فازتا بالجائزة الأولى والجائزة الثانية ، سقط البطل فيهما ، « السقطة التراجيدية » • صحيح أن الشهداء « عند ربهم يرزقون » ، وصحيح أن البذل والتضحية بحياة البطل ، ومدى احتماله السعير الحرب : ومكابدة الصعاب والمشاق من أجل بلوغ الهدف : لو أنه استطاع أن يسئلهم « معنى كثافة وجود البطل » • بمعنى أن وجوده لابد أن يستمد من هذا « الكوجيتو » : (أنا أفعل اذن أنا موجود » أقصد هنا أفعالا بطولية - فيسجل كيف قهر المقاتل المصرى « المانع المائى » وذلك بعبور القناة فى وقت وجيز جدا هو ومعداته الثقيلة وكيف حطم « السار الترابى » بمدفعه المائىة (التى اخترعها لأول مرة فى تاريخ الحروب) وكيف التحم مع عدوه بالسلاح الأبيض ، وجها لوجه ، وكيف

حطم أسطورة اسرائيل الوهمية التى مؤداها : « بأن الجيش الاسرائيلي لا يقهر » لو انه استلهم من ذلك كله قصة لكان ابداعه فذا فريدا عظيما .
لكننى ألاحظ ان كتاباته هنا ، خلو من هذه الصور الكثيفة ، ذلك
لانه آثر أن يستعين فى تعبيره بأسلوب الاختزال والايجاز ، والاقتضاب ،
الضغط الشديد الى درجة التخلص من البطل عن طريق الاستشهاد .

فن النحت المعاصر

موسيقية التصوير

عبد الحميد حمدي

مصطفى عبد المعطي

فى النحت المصرى المعاصر

عند عبد الحميد حمدى

يحضرنى قول مارسيل بروسى ، اذ يقول « أنه ينبغى أن ندين بالفضل لآثار الفن . . فعن طريق هذه الآثار تتجدد الحياة ، وتزداد حيوية ، فبدلا من أن نرى عالما واحدا هو عالمنا الحاضر . . نرى ذلك العالم يتضاعف ويتكاثر بحيث يصبح مجموعة من العوالم تتساوى ومجموع الفنانين ذوى الأصالة والروعة . . هؤلاء الذين يرسلون شعاعهم الخاص يوما بعد يوم » . ولئن كان فى مقدور الفنان أن يهبنا عالما جديدا فريدا بين حين وآخر ، الا انه مع هذا ، لا يستطيع أن ينسلخ عن عالمه الذى يعيش فيه ، والذى يفرض عليه بعض الضروريات اللازمة له فى الحياة . .

ومن هنا نرى أنه فى حال من التوزيع والتشتيت بين دوافع الفن من ناحية ، ودوافع الحياة من ناحية أخرى . فلا غرابة أن يقول « أوسكار وايلد » فى هذا الشأن : « ان كل ما يريحنا من أجل الحياة ، نفقده من أجل الفن » ، ويقول « أندريه جيد » : « ما دام الانسان مشغولا بالحياة ، فانه لا يجد وقتا للكتابة والابداع . . » والمثال عبد الحميد حمدى تنطبق عليه هذه المقدمة التى عرضنا لها . . فهو مشغول برسالة الفن التى يعتبرها رسالة وطنية مقدسة ، ومن ثم ، نراه يعتصر من قلبه الرحيق ، وينحت بيده روح بلاده ، وهو فوق ذلك ، مشغول بأسباب الحياة ، فهو مسئول عن الهيئة العامة للفنون والآداب التى يرأس ادارتها ، وهو أستاذ غير متفرغ فى كلية الفنون الجميلة . . ومع هذا ، نراه يتفوق على نفسه ويطفو فوق كل هذه الظروف حين يتبين لنا مدى اصراره وعناده على مواصلة الطريق ، وتأدية رسالته فى دنيا الفن والنحت .

فهو يوظف ابداعه فى عملية تجسيد الرجل العادى ، وتكثيف ملامح

« الفلاحة المصرية ، والشيخ المعمر الذى ينطق وجهه بآثار الزمن ، وبورتريه الفتاة الافريقية ، والشخصية السياسية ، والقائد الشهير ، والفيلسوف العربى ، وأمير الشعراء ، ورءوس الفتيان التى توحى بالحب والبراءة والصفاء ، وبكل النصر والعبور ، وبورتريه سيدة مصر الأولى ، وغيرها من شخصيات مصرية وافريقية ، ويابانية ، وتشيكية ، قد بلغت نحو ثلاثين تمثالا ، قد صيغت ونسقت فى نظام جميل ، فى قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك .

ويمكن أن نستخلص من هذا النسق الممتع رؤية متنوعة متجانسة ، متكاملة ، تضم آثارا من التراث العربى والافريقى ، وآثارا مصرية صميمة تومىء الى أصحابها الذين لعبوا دورا فى حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ويمكن القول بأن الدافع الحقيقى الذى يكمن وراء هذا المعرض ، هو ايمان المثال البارع عبد الحميد حمدى بأنه ينبغى أن ينطق صخور مصر بما أفاضته عليها من روح ماضيها العريق ، وحاضرها المأمول .
تبدأ رحلة عبد الحميد حمدى مع الفن حين وضع أول تمثال له . منذ عام ١٩٦٣ ، وأقام أول مرسم له عام ١٩٣٨ ثم تبعه لمرسمه الثانى عام ١٩٤١ .

وما أن ينتهى من دراسته فى كلية الفنون فى بعثة فنية متخصصا . فى النحت . . ويلتحق باستوديو الفنان الشهير بول لاندوفسكى ، ويحوز على ميدالية صالون الفنانين الفرنسيين بعد أن يضع تمثاله البرونزى : (مصر المستقلة) .

يهمنا الآن أن نلقى مزيدا من الضوء على طبيعة الآثار الفنية التى يضمها معرض المثال الكبير عبد الحميد حمدى فنحاول أن نكشف عن الخصائص الفريدة للتماثيل التى تبلغ ثلاثين قطعة فنية . . كما نحاول أن نستبطن ما يكمن فى جوفها من أسرار وخفايا .

واضح أن المثال عبد الحميد حمدى يتخذ من تجسيده المنظور محورا لفنه ، وبمعنى أخص نجده يهتم بفن « البورتريه » بالدرجة الأولى . فمن المؤكد أنه ينظر الى التمثال الشخصى ، أو فن التشخيص على أنه الموضوع المحورى فى عالمه الفنى . . وهنا تمتاز حاسته الفنية بقرّة فائقة على فهم اللغة التشكيلية لطبيعة الوجه البشرى وهو فوق ذلك ، فى مقدوره أن يضفى على مادته روح التوازن والنظام والحياة . . أى أنه يبتث فيها من روحه فيجعلها تنطق بروعة التشكيل . . أى يجعلها تنطبع بطابع الوحدة البنائية المعمارية . .

وهنا يقف المثال العظيم موقف المكتشف لخصائص الوجه البشرى . . يقف متأملا مبناه ، مفسرا ملامحه الحقيقية . ولعل ذلك ما يحتم علينا أن نرى الوجه البشرى من خلال عيونه وحواسه قط . ومن أجل هذا ، كان من الضروري أن نذكر أن النحت عند عبد الحميد حمدي لا يعدو أن يكون قوة تشكيلية ، قبل أن يكون قوة جمالية بل هو قوة تشكيلية فطرية ، تجعل رجل الغابة المتوحش يعيد تشكيل ملامح وجهه ، وجسمه بلمسات غريبة وأشكال غير مألوفة وألوان جافية .

ذلك هو فن التشخيص عند مثالنا . . أنه في نظره الفن الوحيد ، فهو الكتلة وهو الحي ، سواء جاء من الوحشية ، أو من ذلك الفنان المثقف المتحضر .

وفي ضوء ما سبق ، يمكن أن نلاحظ ان فن التشخيص عند مثالنا الموهوب لم يكن نقلا ، أو محاكاة للواقع ، وانما هو نقل لحياتنا الداخلية، ولمشاعرنا ، وعواطفنا . . انه فن معبر . . ولا يستطيع أن يكون معبر الا اذا كان تشكيليا ، ومن ثم ، يقول ليوناردو دافنشي : « ان الفنان والمثال هما العالمان العظيمان في دنيا المنظور » . ومن الملحوظ ، أن المثال عبد الحميد حمدي يعقد دائما علاقة شعورية وطيدة بينه وبين مادته التشكيلية . . وهو لا يسمح بأية شائبة تشوب هذه العلاقة الوثيقة . . لا يسمح بالتزاويق والبهرجة في عالمه النحتي . . ذلك لأنه يؤمن بأن الزخرفة انما هي نوع من الزيف والكذب تنأى به عن حقيقة مادته التشكيلية . . وواضح أنه يأخذ بفكرة البناء المعماري في تماثله . . تلك الفكرة التي تمثل جوهر تركيبه وتشكيله النحتي . . وكأنه يهتدى في هذا الصدد بقول « جيته » في مقال له بعنوان : (في العمارة الألمانية) اذ يقول : « لا تدع سوء الفهم يحول بيننا . . لا تدع ذلك المبدأ المائع الذي وضعه تجار الجمال المحدثون يجعلك أرق من أن تستطيع الاستمتاع بالخشونة المميزة ، ولا تجعل مشاعرك في النهاية تتحمل فقط النعومة السخيفة . . انهم يريدون أن تؤمن بأن الفنون الجميلة جاءت في ضوء رغبتنا المحمومة التي تحثنا على تجميل العالم من حولنا . . هذا باطل ، .

وهناك ركيزة أخرى من ركائز التكوين النحتي عند المثال عبد الحميد حمدي وهي المثلة في النحت الفرعوني القديم . فهو يستلهم منه أساليبه التي يعالج بها مادته ، وكم رأيناه يوجه طلبته ويلفت نظرهم الى هذا التراث الشامخ ، ويوصيهم بأن يمعنوا النظر في أصول ذلك الفن وقواعده الأصيلة . . ومعروف أن أهم ما يمتاز به الفن الفرعوني انما هو البناء المعماري .

فلا غرابة ، أن تتميز تماثيل عبد الحميد حمدى بالبناء المعماري ،
خضلا عن أنه يعتصر الروح المصرية في تشكيل تماثيله .

وإذا كان الله قد حبا مصر بهبة كبرى ، اذ خصها بالمقومات الثلاثة
اللازمة لابداع نحت عظيم ألا وهى : الروح والأحجار ، والضوء ، فان
المثال عبد الحميد حمدى أمكنه أن يصور ويصوغ من المعادن والحجر تحفا
وصورا رائعة . فقد جمع فى رؤية منسجمة ، متجانسة ، مكتملة بين
التراث ، والحداثة ، والمعاصرة . . فهو هنا يعلن عن فرحته وهو يقهر
المادة ليبدع شكلا جديدا نابضا بأحاسيسه وانفعالاته ، ناطقا بلسانه ،
معبرا عن آماله ، وآمال أمته العربية وم ن ثم نراه يحول الايقاع اللحظى
الى ايقاع دائم وذلك بتنظيمه تنظيميا معماريا موسيقيا متوافقا ، وكأنما
يقول للمتلقى المشاهد : « أنظر الى تماثيلي . . انك تلمس فيها قوة
التعبير ، وفلسفة المساحة والكتلة . . ان هذه التماثيل أبلغ تعبير عن
حضارتنا المصرية ، وحضارتنا العربية » وكأنما يقول أيضا : « أنا أعرف
هؤلاء الناس ، وأعرف عطائهم ، واللغة التى خاطبوا بها مصر والعالم
جميعا . . » .

والحق أن هذا المعرض أروع رسالة نبعثها الى العالم ، تعبيرا عن
وعينا بما نملك من تراث ، وتأكيذا لقدرتنا فى الحفاظ عليه .

أنظر الى التمثال النصفى لابن سينا . . انك تحس هنا بلمسات
أصابع الفنان مطبوعة عليه . . تحس بضربات أزميله ، ابقاء على المظهر
الحيوى للتشكيل . . وها هو تمثال نصفى لرائد الاقتصاد المصرى طلعت
حرب . . انه يمتاز بقوة التعبير ، فهو بناء متماسك بدون زخرف . . أما
بورترية الفتاة الريفية فهو يتسم باللامح المصرية الشديدة الحساسية
وهذا البورترية لا يخلو من خاصية تشتهر بها الأنثى المصرية ، فهى
تتميز بضعفيتها المألوفة التى تبرزها يد المثال البصير .

أما تمثال المثال عبد الحميد حمدى فهو يتميز بحسن البناء وقوة التعبير
.. ويأتى تمثال الفلاحة المصرية ذات الملامح الريفية الشديدة الحساسية
.. وكأنها تخاطبني بقولها : (أنا الفلاحة المصرية مناحة للخير والخصب
والنماء حارسة الأرض ، أم الأبطال . . وتبدو بصمات المثال بوضوح فى
التمثال النصفى لسيدة الغناء العربى أم كلثوم وكذا أمير الشعراء أحمد
شوقي . . ولقد وضع تمثال عبد الله النديم فى تشكيل من النحت البارز
.. أما بورترية فتاة من الجنوب . . فهو يعبر عن ملامحها الأفريقية ،
القريدة حيث غلظة الشفاة والأنف والأفطس والشعر الأشعث المجعد .
.. وهناك بورترية للفتى حازم حمدى وبورترية للفتاة نهال حمدى ، وهما
يعبران عن مدى البراءة والشفافية .

كذلك لاحظت رأس ذلك الشيخ المعمر الذى أكل منه الدهر حيث تبدو آثار الزمن على وجهه فى شكل حفر وخطوط . ويضم المعرض بورتريه لفتاة يابانية وآخر لفتاة تشيكية . أما التمثال النصفى للقائد الشهير صلاح الدين الأيوبي فهو ينطق بقوة الشكيمة ويعبر عن سر عظمته فى حروبه مع الصليبيين .

ويتصدر القاعة تمثال نصفى لبطل العبور محمد أنور السادات ، وبورتريه لجيهان السادات .

وبعد ، فإن هذا المعرض يعد أصدق تعبير عن حب المثال الكبير عبد الحميد حمدى لفنه ووطنه ، وتراثه الحضارى ، وكأنه هنا يأخذ بوصية رائد النحت المصرى محمود مختار اذ يقول فى وصيته : « ان سر الفن فى الحب ، ومن لا يهب حياته لفنه ، يجب أن يتخلى عن رسالة بعث الحياة فى الحجر » .

موسيقية التصوير عند مصطفى عبد المعطى (١)

زرت معرض الدكتور مصطفى عبد المعطى ، فى قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك ٠٠ ولاحظت أن لوحات المعرض تتميز - بادىء ذى بدء - بالطابع التجريدى ، فعملية التصوير الفنى هنا لا تعنى نقل الهدف نقلا مباشرا جامدا ، بل معناها نقل التناسق بين مختلف العلاقات ورفعها الى اللوحة على شكل سلم أنغام فى ذاته ، عن طريق تنمية هذه العلاقات تبعا لمنطق جديد أصيل ٠٠٠ ان عمل لوحة هنا معناه تشكيكها ، فهو هنا يريد أن يدل على أن الفن الصحيح لا يمكن تحقيقه الا من خلال عمليات التنظيم والترتيب والاختصار بين مختلف عناصر المنظر التجريدى اللا تصويرى .

كذلك لاحظت أنه يستوحى صور المعرض من صميم البيئة المصرية ، أى من خلاصة مؤثرات الحضارة المصرية الفرعونية ، والحضارة الاسلامية ومن ثم ، فمصطفى عبد المعطى انما هو ابن البيئة المصرية انه فى عمليات ابداعه يستبطن ذاته ، ويتملى أعماقه ، فعن طريق تجاربه الذاتية وثقافته الخاصة يلقف مدده ويستولد نهجنا الفنية والجمالية ويستلهم طاقاته الابداعية التى يعمل على تكثيفها وصبها فى تلك الصور ٠٠ فانظر مثلا الى اللون الأسود الذى يسود أغلب لوحاته ١٠٠ انه لون فرعونى قديم يكشف عن العمق الدرامى للانسان المصرى ، واللون الأسود له بعد ميتافيزيقى ، وله احساس بالمجهول ، مع اتسامه بالغموض .

كذلك اللون الأحمر هنا يتميز بمعناه الكلى المطلق ، واللون الأحمر الطوبى انما هو لون مصرى فرعونى قديم منحوت من البيئة المصرية

(١) مجلة الثقافة عام ١٩٨٢ .

القديمة وكأن هذا الفنان قد صنعت وجدانياته ومداركه من حصيلة مؤثرات عالمه المصرى التى لا تنفصم عن طاقاته الا بداعية وبالتالي فهو يبدع من خلالها رواء المعاصرة . واضح أن فى هذه اللوحات كلا من المثلث والمستطيل والخط المستقيم ، وأن التشكيل الرياضى فى اللوحات يدعو الى الدهشة والذهول .

وواضح أن الألوان متزنة فى كل لوحة ، وأن أى خلل فى الألوان سيخل باللوحة بالتأكيد ، وأن هناك توافقا وتنافساً هرمونية بين العناصر ، بين المثلث ، والدائرة والخط المستقيم الفرعوى ، وأن هناك لوحة تثير فينا احساس بالزحمة وأن أخرى تبعث فينا احساس بالراحة .

وأخيرا ، فالصور عند مصطفى عبد المعطى لا تعدو أن تكون (سطح مسطح تغطيه الألوان بنظام معين) انه يقنعنا هنا بأنه فى مقدوره أن يستغنى عن تصوير الأشياء بشرط أن يكون ترتيب لا نجد فيه أثرا لشيء ينتمى الى العالم الخارجى ، وهذا ما يسمى بالفن التجريدى . مع الملاحظة ان الفن التجريدى ظهر منذ نصف قرن وهو انعكاس لموقف وقفه الفنانون المصورون أزاء فن التصوير وكان أولهم (ديلاكروا) الذى كان نهاية من نهايات هذه الثورة التى جاءت بحركات الانطباعية،والوحشية والتكعيبية والسريالية ، والانشائية ألخ . . . وكانت الواقعية فى القرن التاسع عشر قد وصلت الى أكبر درجة من السوء ، والمسخ ، وكان لابد من ظهور رد فعل ما ، وكان الفن التجريدى تعبير عن ردود الفعل هذه . . . حتى جاء الفنان مصطفى عبد المعطى . . فكان معرضه أشد المحاولات جرأة لاعادة فن التصوير الى نفسه وتنقيته من كل شائبة ، ومن كل ثرثرة . هكذا فعل هذا الفنان الفذ فى معرضه الذى شاهده فى هذه الأيام .

لقد استخدم هرمونية الألوان ، واستخدم الخط المستقيم الفرعوى والمثلث ، والاسطوانة ، والدائرة وذلك كله غير موجود فى الطبيعة ومن ثم ، فهو لا يعنى الا ذات نفسه . . نفسه التى تنطق بمؤثرات الحضارة المصرية القديمة ومؤثرات الحضارة الاسلامية ومؤثرات الحضارة المعاصرة .

من كل هذه الحضارات استطاع أن يستلهم آثاره المصرية ونتاجه الابداعى الذى يضمه هذا المعرض .

أخذت بدورى أسأل الدكتور مصطفى عبد المعطى وكأنى أقمص شخصية سقراط ومنهجه فى التهكم والتوليد .

ماذا تعنى اذن أى لوحة موجودة فى المعرض ؟ فأجاب :

انها لوحة ٠٠ وهى عبارة عن قطعة تصويرية فحسب ٠

قلت متسائلا : لكنها لا تعبر عن موضوع ما ؟ فأجاب :

اذا كان الأمر كذلك فانها تصبح فى ذاتها موضوعا ، قيمته فى بنائه الداخلى ، وفى تنظيم عناصره وتماسك أجزائه ٠٠ وهى تشبه فى هذا قطعة موسيقية ٠

سألته : اذا كانت لوحتك قطعة موسيقية - فلا بد أن تعنى شيئا !!!

أجاب : انها قطعة موسيقية ، ليست فى حاجة لكى تبرر وجودها الى أن تعنى شيئا ٠٠٠

ان هذا الفن انما هو نوع من موسيقية التصوير ٠

سألته : هل تستطيع أن تدلل على وجهة نظرك بشئ من الأدب ؟

أجاب : انظر مثلا الى نوع من الشعر الحديث ٠٠ انه يرمى الى استخدام الكلمات لمجرد الرنين الذى يصدر عنها ، ويصرف النظر عن معناها فهى شعر تجريدى ٠٠ لقد أوضح (المصور) (الثان) هذا التقابل فقال : (أعتقد أن المصور غير التصويرى هو ذلك الذى يقبل استخدام الأشكال والألوان والأضواء دون أن يبدأ من موضوع سبق تحديده تماما كما كان الشاعر (مالارميه) ينصح الشعراء بترك معنوية الكلمات ٠

سألته بجرأة : هل تتفق معى أن هذه اللوحات أشبه بالمعادلات الرياضية التى تتميز بالتجريد والتى تخلو من نبض الحرارة والعاطفة ؟

أجاب : بالعكس فان هذه الصور واللوحات لا تنقصها العاطفة ، فالعالم الداخلى الذى أشعر به وأصوره فى ألوان وأضواء متوافقة متناسقة حتى أكشف عن عالمى الداخلى حتى أستطيع أن أعبر عنه عن طريق قدرة الألوان والأشكال ومن أجل هذا أوضح تماما بالطرق التشكيلية المعترف بها ، المعادلات الروحية للعالم الخارجى والعالم الداخلى ، وأن أجعل هذه التقابلات مفهومة عن طريق النقل على اللوحة وهكذا يتحقق الاكتشافات الخاصة بالتناسق المطلق ٠

وأخيرا قلت : دعنى أعترف ان هذه اللوحات التى يضمها المعرض انما هى تبيان لمدى وعمق خبرتك واتساع فهمك فى التصوير والتشكيل والادراك الفنى الواسع ٠

أجاب : لقد رأيت أن تتوافر لدى روح تشكيلية وثقافة وعلم ، فى التصوير حتى أستطيع أن أجعل المتلقى يستمتع بشيء .. فانظر كيف يجهدنى فن التصوير ويعاملنى بكل قسوة وكيف أدفع الثمن باهظا عن طيب خاطر . حتى أعطى شيئا جيدا للمتلقى .

فلت حقا لقد كنت صادقا مع فن التصوير غير التصويرى ، وكانت تجربتك تدعو للحماسة وهى تجربة ، أطلق عليها فاليرى ، ومن قبل جوته انها : (الفن العظيم) لانها تطلب من الانسان أن يستخدم جميع ملكاته حتى يبدع عمله الفنى على نحو مكتمل .

وبعد . فالجمال هو نبض الحياة ، ذلك لأن الحياة بدون جمال تعتبر مملة ، مقفرة .. فاذا تصورنا أن الأرض لا تنتج عشباً أخضرا ، وأن السماء رمادية اللون ، وأن كل الوجوه الانسانية صورة واحدة مكررة بدون تغير وان كل المباني لونا كلون الطين بدون تناسق وان الموسيقى انعدمت ، أى لو تحطمت كل مباحج الحياة ، فينبغى أن نعذر الانسان فى هذه الحالة اذا لجأ الى ادمان الخمر أو الانغماس فى ارتكاب الجريمة .

فلا جدال أن الجمال فى طبيعة الانسان وأنه يجرى فى دمه ، فهو يسوغه ويتذوقه أراد ذلك أم كره .

الدكتور مصطفى عبد المعطى فى كلمات

- وُلِدَ عام ١٩٣٨ بالاسكندرية .
- تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية .
- أستاذ مساعد بقسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية .
- عضو مؤسس لجماعة التجريبيين التى تكونت عام ١٩٥٨ من الفنانين : محمود عبد الله العدوى ومصطفى عبد المعطى .
- حصل على منحة تفرغ من الحكومة المصرية لدراسة شمال الدلتا وتقديم معرض عن المنظر فى دنيا دلتا مصر عام ١٩٦٨ .
- حصل على درجة الأستاذية فى الفنون من أكاديمية سان فرناندر جامعة مدريد والمعادلة لدرجة الدكتوراة التى منحتها الجامعات المصرية عام ١٩٧٧ .
- وكيل وزارة الثقافة ومدير المركز القومى للفنون والآداب .
- منذ نهاية الخمسينات اشترك فى معظم المعارض التى أقيمت فى ذلك الحين وحتى الآن .
- **معارض خاصة بمصر :**
- قاعة قصر ثقافة الحرية بالاسكندرية سنة ١٩٦٥ .
- قاعة قصر الثقافة بكفر الشيخ سنة ١٩٦٨ .
- قاعة قصر ثقافة الأنفوشى بالاسكندرية سنة ١٩٧٠ .
- قاعة النادى السورى بالاسكندرية سنة ١٩٧٠ .

- قاعة باب اللوق للفنون الجميلة سنة ١٩٧٣ •
- قاعة المركز الثقافى السوفيتى بالقاهرة سنة ١٩٧٣ •
- قاعة المركز الثقافى الالمانى (جوته) بالاسكندرية سنة ١٩٨٧ •

— معارض خاصة فى اسبانيا :

- جاليرى تيبس سنة ١٩٧٤ تصوير ورسم مدريد •
- جاليرى فاونس سنة ١٩٧٦ تصوير ورسم مدريد •
- جاليرى ماسترى مانىو سنة ١٩٧٧ تصوير - رسم لاکورونيا •

— بعض المعارض الجماعية فى اسبانيا :

- معرض الفن المصرى المعاصر بقاعة معهد الدراسات الاسلاميه مدريد سنة ١٩٧٤ •
- معرض فنانى جاليرى فاونس مدريد سنة ١٩٧٥ •

— بعض المعارض الدولية :

- معرض الفن المصرى المعاصر فى باريس سنة ١٩٦٨ •
- معرض الفنانين السكندري فى يوسلافيا سنة ١٩٧١ •

فهرس

مقدمة ٥

القسم الأول : ابداع الشيوخ

عبقرية محمد عبده	٧
قراءة في فكر الشيخ مصطفى عبد الرازق	١٥
رشيد رضا الصحفى الاسلامى الثائر	٢٥
عبقرية العقاد	٣٣
عبقرية محمد	٣٩
محمد كامل حسين الأديب المفكر	٤٤
أحمد أمين الأديب وصاحب النظر الصوفى	٦٧
الجواتية عند عثمان أمين	٧٥
الرؤية النقدية عند أنور المعداوى	٨٣
أحمد شوقى الشاعر	٩٣
ابراهيم عبد القادر المازنى وروح السخرية	٩٩
الدكتور محمد حسين هيكىل : ماذا يبقى « زينب » وثورة الأدب	١٠٥
الدكتور هيكىل روائيا ومفكرا سياسيا	١١٣
ما وراء أدب يحيى حقى	١٢٣
قصة نفس للدكتور زكى نجيب محمود	١٣٧

القسم الثانى : ابداع الشبان

ياسين رفاعية « العصفير »	١٤٣
------------------------------------	-----

صفحة

١٥٣	• • • • •	زهير الشايب « المصيدة »
١٦١	• •	عباس الأسوانى : الأسوار العالية بين المقاومة والاستسلام
١٧١	• • • • •	عز الدين نجيب : المثلث القيرودى
١٨٣	• • • • •	عالم محمد كامل محمد •• فى القصة القصيرة

القسم الثالث : نقد قصص حرب أكتوبر

١٨٩	• • • • •	كلمات فى ضوء القصص الفائزة
-----	-----------	----------------------------

القسم الرابع : الفنون التشكيلية

١٩٥	• • • • •	فن النحت المعاصر - موسيقية التصوير : دكتور مصطفى عبد المعطى
١٩٧	• • • • •	فن النحت المصرى المعاصر عند عبد الحميد حمدى
٢٠٣	• • • • •	موسيقية التصوير عند مصطفى عبد المعطى
٢٠٧	• • • • •	الدكتور مصطفى عبد المعطى فى كلمات



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliothèque d'Alexandrie

هذا الكتاب هو ابداع الشبان وابداع الشيوخ في دنيا الأدب
فالكتاب ينقسم إلى شعبتين : شعبة خاصة بأدب الشبان بادی ذی
بدء ، وشعبة خاصة بأدب الشيوخ . . سوف نرى في أدب الشبان :
زهير الشايب وياسين رفاعية وهو أديب سورى وأدب مجيد طوييا
ومحمد كمال محمد ، أما أدب الشيوخ فسوف نطلع على أدب
الدكتور محمد كامل حسين وأدب عباس محمود العقاد وأدب ابراهيم
عبد القادر المازنى وأدب الدكتور محمد حسين هيكل وأدب الشيخ
مصطفى عبد الرازق وأدب الامام محمد عبده وأدب الصحفى الناصر
رشيد رضا وأدب أنور المعداوى والجوانية عند الدكتور عثمان
أمين ، ولم أنس شاعرنا الكبير أمير الشعراء أحمد شوقى .

To: www.al-mostafa.com